مقدمة

فقد الفكر العربي بموت إلياس مرقص, 1929 - 1991م, واحداً من أكثر المثقفين العرب التزاماً بقضايا الأمة وشجونها, وقد عاصر الفقيد سنوات متوترة في الحاضر العربي, وحاول بعق الفيلسوف المناضل مواجهتها من أجل المساهمة في فهمها وتوجيهها وقفاً للاختيارات الوحدوية في مجال العقيدة السياسية, والنقدية في مجال النظر الفلسفي, وهي الاختيارات التي التزم بها طيلة حياته.

إن مراجعة سريعة لمجمل الآثار الفكرية التي تركها إلياس مرقص تثبت بما لا يدع أي مجال للشك انخراطه النقدي في مواجهة معضلات الفكر والواقع العربيين. وقد ساهمت هذه الآثار في تدعيم جبهة الفكر النقدي في دائرة الفكر العربي المعاصر, كما ساهمت في رسم الصورة المركبة لعمل الفكر المعبر عن شؤون الفلسفة والسياسة والتاريخ.

إن الولع البارز في أعمال إلياس مرقص بالنظرية والمفهوم لا يتجه صوب بناء الأنساق الفلسفية المجردة والمتعالية قدر ما يتجه نحو محاولة الإمساك بمعضلات التاريخ وبأدوات الوعي الدقيق, ولهذا الغرض وظف تكوينه الفلسفي لتعميق الوعي السياسي العربي, محاولاً تأسيسه على أرضية فلسفية صلبة تمكنه من فهم مجرى التاريخ والمساهمة في توجيه صيرورته, وفقاً للإرادة البشرية الواعية والمؤمنة بالتقدم وبالإنسان.

وضمن هذا الإطار تدخل مختلف مؤلفاته سواء منها التي اتجهت صوب قارة الفكر القومي وحاولت إعادة النظر في مكوناته وأصوله, أو المؤلفات التي اعتنت بالفلسفة الماركسية وسعت لإنجاز محاولات نقدية في سبيل ؟ مفاهيمها في المناخ العربي, وإبعاد الصنمية الماركسية، تدل بصورة مباشرة على جهوده العامة في باب تأصيل النظر الفلسفي في الفكر العربي المعاصر.

إن المنحى النقدي الذي اتخذه الأثر النظري المرقصي يعبر عم لحظة نفي إيجابية في سياق تطور الفكر العربي المعاصر. ففي مجال نقده للإيديولوجية القومية التقليدية حاول الوقوف ضد ميتافيزيقا الهوية الثابتة والجواهر الأصلية, معتبراً أن مسألة تشكل الأمة مسألة تاريخية, فلا يمكن مقاربة الوجود التاريخي القومي للأمة بآليات فكرية سكونية لا تاريخية. بل يجب أن يشكل المبضع التاريخي السياسي والجدلي الأداة المناسبة لمراجعة المنظومة القومية وإعادة تأسيسها في سبيل بلورة وعي وحدوي ديمقراطي. وفي هذا السياق ساهم إلياس مرقص في تأسيس مجلة «الوحدة» لسان حال المجلس القومي للثقافة العربية, من أجل إيجاد الأداة الفكرية المساهمة في تأصيل الفكر القومي, انطلاقاً من قناعته الراسخة بدور الفكر في توجيه العمل, إلى جانب مساهمته في تأسيس العديد من المنابر الفكرية والمؤسسات السياسية والثقافية.

أما مساهمته في مجال نقد الفلسفة الماركسية فقد تمثلت في قراءته للماركسية في ضوء أسئلة الحاضر العربي, وكان من نتائج هذه القراءة رفضه لمبدأ نسخ النماذج وتقليدها في مجالي السياسة والتاريخ, وكذلك نقده الشديد للتأويل الاقتصادوي للماركسية, إضافة إلى إلحاحه على ضرورة التمييز بين ما كان يسميه ماركسية عصر صعود البرجوازية وماركسية الزمن الامبريالي التي تتميز بسيادة الاستغلال على الصعيد العالمي.

وقد كانت قراءته الجديدة الماركسية مصحوبة كما أشرنا إلى ذلك آنفاً بجهد كبير في ترجمة بعض نصوص مؤسسي الفلسفة الماركسية, ماركس, لينين, لوكاش وغيرهم. وفي هذه الترجمات لم يكن إلياس مرقص يكتفي بالنقل الدقيق, بل إنه كان يطعم مترجماته بكتابة حواشي وتعليقات تدل على درجة تعلقه بالنص المترجم, كما تدل على رغبته في تحيين محتواه, وذلك عن طريق ربطه بأسئلة الحاضر العربي, وهو أمر كان يساهم في تحويل النص المترجم إلى نص جديد.

ونستطيع القول جازمين إن أعمال إلياس مرقص النظرية كتبت تحت ضغط هاجسين أساسين, هاجس التأصيل النظري (وكان يسميه التأسيس النظري) وهاجس تجاوز التأخر التاريخي العربي. تحت إلحاس الهاجس الأول تدخل أعماله المتعلقة بنقد الإيديولوجية القومية التقليدية, ونقد الماركسية الستالينية, وتحت ضغط الهاجس الثاني تبرز مواقفه الكفاحية من أجل الوحدة والتقدم.

لقد كان إلياس مرقص ينفر من العمل السياسي الأعمى, ولم يكتف طيلة حياته باحتلال مقعد المُنظر القابع في ببرجه العاجي, بل دافع على ضرورة الجمع بين وجهي العملة, ضرورة النظر السياسي القومي الملتزم, ولزوم الفعل السياسي القومي المنظم لتجاوز معوقات التقدم في الواقع العربي, ورغم صعوبات لم طرفي المعادلة المذكورة فقد تمكن من تقديم صيغة من صيغ الجمع الممكنة بينهما, وهي صيغة اتسمت بدافعها المتواصل عن ضرورة الحوار «والتناصت» لتعميق النظر وتيسير سبل العمل, وقد حققت هذه الصيغة في نظرنا جهداً هاماً في باب تطوير النظرية والممارسة في مجال الفكر السياسي العربي المعاصر.

نقدم في هذا الكتاب مجموعة من الدراسات التي سبق للمفكر أن نشرها أو قدمها للنشر في مجلة الوحدة, وذلك اعترافاً بجهوده الكبيرة في تأسيس هذه المجلة, واعترافاً في الوقت نفسه بأهمية مساهماته الفلسفية في مجال الفكر العربي المعاصر.

ولاشك في أن هذه الابحاث تعبر عن درجة القوة النظرية التي تتمتع بها كتابته, كما تعبر عن حدة انفعاله بهموم اللحظة العربية الراهنة.

وإذا كانت خسارة الفكر العربي التاريخي والنقدي كبيرة بموت هذا المفكر. عزاءنا الوحيد يتمثل في كون اللبنة الفكرية التي ترك, إضافة إلى نبل القيم التي دافع عنها, ستمكن الأجيال الجديدة من مواصلة جهوده النظرية والعملية لنتمكن من مزيد من تعميق الوعي العربي, وعقلنة العمل السياسي العربي, لبلوغ الأهداف القومية التي ظل مخلصاً لها طيلة حياته.

المجلس القومي للثقافة العربية

أطروحات من أجل إصلاح الفلسفة

مجلة الوحدة العدد (6) - 1985

1- يجب على الفكر العربي والوعي العربي الانتقال من الرمزية والشيئية إلى المفهومية والواقعية.

الرمز ليس المفهوم وليس الحقيقة.

الواقع لا يستنفذ في أشياء أو أجسام أو موجودات. وهو ليس موجودات ـ جواهر. فكرة الواقع الصحيحة تحيل على منطقة هو منطق الواقع.

الوطن ليس علماً. العلم رمز للوطن, لا أكثر.

الحزب ليس لافتة.

الصورة 5 أو 4 أو الكلمة أربعة ليست المفهوم أربعة والحقيقة أربعة. إنها رمز فقط, أي شيء محسوس (يُرى, يُسمع, الخ) واصطلاحي, وبمعنى معم, اعتسافي. هذه الصورة كان يمكن أن تكون غير ذلك, وهي بالفعل تتغير تماماً حسب أنظمة الترقيم أو الكتابة الرياضية. أما الحقيقة الفعلية الواقعية التي وراءها فهي ثابتة؟

الكلمات رموز. إنها بدائل عن الفكر أو المفاهيم, يجب الذهاب من الكلمات إلى المفاهيم, من اللغة إلى الفكر.

العلاقة أو المقابلة الكبرى, هي: الفكر / الواقع. هذا في المعرفة الواعية أنها المعرفة. اللغة وكلماتها الخ وسيط بين الاثنين: الفكر والواقع.

المعرفة الواعية ذاتها تعي أنها, في النهاية والغاية, معرفة الواقع, وأنها ليست الإيديولوجيا, وأن الواقع ليس المحسوس والمباشر.

المحسوس والمباشر ليس إلا مستوى أول في المعرفة.

المعرفة الحقة ترتكز على مسلمة أو مصادرة أولية هي المنطق.

الفكر يجب أن يحترم ذاته كفكر.

2- يجب الانتقال من الوجودية إلى الفكرية, من عنصر الوجود إلى عنصر الفكر. يجب على الفكر والوعي تبني مبدأ الـ «أنا أفكر».

هذا المبدأ ليس مبدأ ديكارت وحده, بل هو مبدأ فيثاغور والخوارزمي, هيغل وابن خلدون, نيوتن وآينشتاين, الخ, الخ.

إنه, في المستوى الروحي والفكري, «لحظة momeni الذاتية المطلقة», «الأمية», «الصحيفة البيضاء» العقلانية (والتجريبية بضمنها), الصفر حامل اللانهاية.

بدلاً من البدء بالقبض على حدّ أو حدود, ثم الركوع لحدّ أو حدود, أبدأ بالتجرد المطلق, وأتقدم بالحدود ـ المفاهيم في بناء الجملة, في إنشاء اللوحة المترابطة الحيّة, التي هي الغاية ونقطة الوصول في المعرفة لا سيما المعرفة التي تريد إرشاد العمل.

بالمقابل, إن وثنية الروح تقيم شيئية المعرفة.

يقول لينين وراء هيغل، وراء سقراط وأفلاطون: "الكلي، إنه الفكر".

في ساحة الفكر العربي, يجب فتح وخوض هذه المعركة: معركة الفكرة والمفهوم والفكر ضد أشباح الحس والوجود والجوهر, الآتية إلينا من ماضٍ سحيق ومن حاضر عالمي أمبريالي بالغ التقدم.

إن تيارات غريبة متنوعة تُعزز عندنا منحى قديماً يُراد له أن يكون منحانا القومي وخصوصيتنا «الروحية».

3- يجب الانتقال من الجوهر والماهية ومن المادة والكم إلى الشكل والعقل والروح. يجب إقامة الحد على ألفاظ محببة في قاموسنا المتداول, ضخمنا مدارس مختلفة متخاصمة, لكنها التقت على تكوين ذهنية جوهرية واحدة.

يجب الانتقال من «الصورة» إلى الشكل والمفهوم.

بدون ذلك لا تاريخية ولا تقدمية. التاريخ تشكل, تحول, «تغير أشكال», بل و«تنويعة على الأشكال» (ماركس). إذا كان الماركسيون عندنا (وعند غيرنا) يركبون على «التشكيل» و«التشكيلة» formation (التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية) ويجهلون مقولة الشكل forme, ويجهلون مسألية الصورة ـ الشكل ـ الفكرة ـ المفهوم ـ المثال؟, فهذ مفارقة مهمة من مفارقات الوعي العربي المعاصر.

«المادة» مقولة أساءت للفكر الماركسي وللفكر العربي عموماً.

في الفكر الماركسي, ضحى على مذبح «المادة» بمقولات مختلفة لا يمكن أن تنوب عنها المادة, قصدتُ مقولات الواقع, والطبيعة, والطبيعة / التاريخ.

يجب ردّ الاعتبار إلى وحدة عنصر المادة ـ الكتلة ـ الكمّ ـ الذرات الخ ويجب أن يقام إزاء هذا العنصر عنصر مقابل هو: العلاقة ـ العقل ـ الروح, بحيث يكون العنصر الأول نابعاً ومرؤوساً.

أما «مفهوم المادة الفلسفي» فلا يمكن أن يعني سوى أن الواقع قائم بنمامه خارج رأسي. ولا يجوز أن يضمن أي شيء آخر, لا يجوز أن يغططي أية مسلمة أو مصادرة ضمنية, لا سيما مسلمة تلغي أو تخفض المنطق في حرب على «المثالية» باسم «مادية» ملتبسة وباطلة.

4ـ يجب على الفكر العربي الانتقال من التجربية ـ الدوغمائية إلى الجل.

الطريق الأول (التجربية ـ الدوغمائية) يبدأ أو يعتقد أنه يبدأ من الواقع وينتهي إلى تبخيره (تبدبده) في مجردة أثيرية يسميها «الفانون» أو «الجوهر».

الطريق الثاني, «المعاكس», يبدأ من الصفر, يبني اللوحة, ينتهي إلى الكل أو الجملة toul, tolaliite, إلى الواقع كعالم أي لا كجوهر أو كقانون.

بهذا المعنى, إن بلداً من البلدان أو بيتاً من البيوت الخ هو عالم.

والوطن العربي والأمة العربية عالم.

هناك من يرفض هذا القول, ويقاتل ضده.

من جهتي, إن بيتي الصغير هو عالم وكون (ليس «جوهراً» أو «قانوناً»). هذا ما أدعوه أيضضاً: الديمقراطية. الديمقراطية موقف فلسفي هو الجدل.

5ـ ثمة تعارض يجب وعيه بين الوضعوية والعلموية من جهة والجدل من جهة أخرى

1- الوضعوية positivism هي المذهب الوضعي أو الإيجابي. أما الجدل فهو «بحكم التعريف», جدل النفي negation.

2- الوضعوية هي مذهب تقدم على خط مستقيم, مثلاً من الحالة اللاهوتية إلى الحالة الميتافيزيقية إلى الحالة الوضعية (أوغست كونت). أما الجدل فهو يؤكد مع الخط المستقيم فكرة الدائرة, يؤكد «وحدتهما».

3- الوضعوية «تكره المجردات», أي بالحقيقة المقولات الكبرى. بالمقابل, إن علم آدم سميث أو كارل ماركس يتأسس على الشغل المجرد, أي المجرد عن موضوعاته المادية. ومنطق هيغل يبدأ بالكائن ـ العدم. الخ.

4- الوضعوية تكره الفلسفة. الجدل يعي أنه فلسفة, منطق, نظرية معرفة. الفكر العربي يجمع وضعوية أوغست كونت مع وضعوية تقليدية.

إنه يتصور إنه مع العلم والعلمية. بالحقيقة إنه مع «العلموية» مجردة أو مضافاً إليها المجاز. و«الخيال» و«الشعر» الخ.

الميكانيكية أحد أعم أشكال الوضعوية والعلموية والتجربية ـ الدوغمائية.

هذا المجموه الذهني مسخّر بشكل طبيعي في خدمة الذاتوية subjectivisme, اذن الارادوية, المثالية.

هذه الذاتوية تتعامل مع الواقع بوصفه مادة للتحريك أو الملاعبة manipulation.

العمل الثوري يصبح كأنه مماثل لعمل الاسكافي في حانوته أو لعمل عالم الكيمياء في مخبره. ينسون أن الموضوع ذات.

6- بصدد «العقل», يتصور الذهن العربي الحاضر أن العقل شيء في رأسه, إنه بعيد عن معقولية الواقع أو لا يتخذها كمبدأ.

وهو يخفض العقل إلى «العقل السليم» لا أكثر.

إنه يجهل فكرة التناقض.

يجهل - مثلاً - أن «في اللغة لا يوجد سوى الكلي», وأن قولنا «هذه طاولة» (الإدراك الحسي) هو انفتاح نحو الكلي («طاولة» = عام). ويجهل - مثلاً - الصفر, اللانهاية, √2 (العدد الأصم), الخ... رياضيته بسيطة, ابتدائية.

وهو, إذ يتبنى «العقل السليم» بلا سؤال, يريد في أحسن حال أن يطور هذا «العفل السليم» «علمياً»: استحالة, عبث.

يجب على الفكر العربي الانتقال من «العقل السليم» و«العقل السليم المطور علمياً» إلى العقل حسب. يجب عليه أن يسعى إلى فكرة العقل الأعلى الفلسفية والهيغلية, اللوغوس والـ Vernunft.

7- يجب الانتقال من ثوران الأزلي والعابر إلى التاريخ والتاريخية.

الأزلي والعابر وجهان لعنصر واحد يعيش فيه الذهن العربي. لا يمكن أن توجد هوية حقيقية بالعنصر المذكور.

كثيراً ما يبدو ثابت الذهن العربي هو الشعور وهو المادة. ويكون عالم الفكر والعلم والعقل هو العابر, الشبحي, الذي ليس له قرار. (هذا الموقف يصرح به, على سبيل المثال, شوقي ضيف في كتابه «دراسات في الشعر العربي المعاصر», مصر 1969, ص 78 - 79 وص 85).

والحقيقة, إذا وجدت, فهي لا تصير حقيقة تاريخية.

«الثابت» و«المتحول» قطبان أخيران متحاربان متطاردان. الثابت سرمدية محافظة والتحوّل ثورة فردوسية مستحيلة.

في القاموس العربي المتداول, «النسبي» مهرب. إنه هروب من المفهوم, من الحقيقة, ومن التاريخ.

8- يجب الانتقال من ثوران السرمدية وسرمدية الثوران إلى فكرة التقدم.

في الواقع الذهني, الروحي والفكري, في الثورة قتلت فكرة التقدم تريد أن تعيش بدونها بدلاً من أن تقوم على أساسها, تريد أن تنوب عنها

في الحاصل, إن ما يراد هو تحويل الأرض إلى سماء والدنيا إلى جنة.. وهذه الارادة تُسمى «ثورة». هذه القفزة الشاقولية إلى السماء تحمل معها السقوط. حتماً.

هذا الموقف الذهني انتكاس كبير عما كنا عليه قبل ربع قرن, حيث جاءت الثورة امتداداً لنهضة وتأسيساً لنهضة أعمق وأشمل.

9- يجب الانتقال من الليبرالية النخبوية ومن تنظير التلاعب بالبشر إلى الديمقراطية ليست الليبرالية هي الشيطان... (الشيطان لا يتجسد مباشرة في شيء, في قطعة. أو لنقل إنه قابل للتجسد - جزئياً ونسبياً - في شتى الأشياء وكل الأشياء) الليبرالية لها ما لها وعليها ما عليها. لنقل إنها مرحلة تاريخية ومنطقية.

باختصار, ومع التبسيط, الليبرالية ترتبط بالطبقة الوسطى الميسورة. الديمقراطية ترتبط بالطبقة العوامية, plebeienne, الشعبية, العمال والفلاحين وصغار الكسبة. الخ..

هذا ملف يضم مونتسكيو وروسو وتوكفيل,. إنجلز ولينين / و / بليخانوف والمنشفيك, و... عبد الناصر /و/ المثقف العربي وأحزابه.

المثقف العربي النموذجي لم يفهم هذه القضية في يوم من الأيام. لم يفكر تارخياً الأخير... كأنه يريد ديمقراطية لنفسه, ديمقراطية بدون قاعدة جماهيرية, نهضة ليس أساسها مجموع الأمة, نعضة يكون أساسها شطراً من الأمة هو «المجامع الحديث» داخل كل قطر (فعصر الامبريالية والنهضة والحركة الوطنية و«الليبرالية» انتهى إلى شطر كل مجتمع عربي إلى مجتمعين: حديث وتقليدي). والليبرالي العربي يمكن أن يتحول إلى ما يشبه الفاشستي على قاعدته محبوبته ذاتها.

والوعي العربي منشطر بين باطلين: إما الحزب ـ الصنم أو اللاأحزاب...

10ـ يجب الانتقال من «الديمقراطية» (مع مزدوجين!) إلى «دولة حق» وديمقراطية. «دولة حق» Etat de, RechTsTaat droit, دولة حق وقانون الخ هذا هو الأساس المنطقي للديمقراطية.

لا دولة ديمقراطية إذا لم تكن أولاً «دولة حق».

لا ديمقراطية لا دولة.

لا ديمقراطية مع اللادولة.

واللادولة هي الدول (بالجمع), الفوضى والعسف والاستبداد, وهي المخلوطة دول ـ طبقات ـ طوائف ـ قبائل وهلمجرا.

دولة حق: هذا يعني أولاً سمو القانون. بدءاً من الدستور (دستور الدولة) وصولاً إلى نظام السير في الشوارع مروراً بالقاونين.

إذا كانت فكرة «الله تعالى» لا تؤسس فكرة سموّ القانون, فهذه مفارقة كبيرة تستحق الاهتمام.

في إشكالية المنهج
تحديث أم تأسيس؟

مجلة الوحدة العدد (1) - 1984

-1-

الفلسفة أولاً

أريد, من موقعي الشخصي [1], إبداء بعض الملاحظات المتصلة بالفكر العربي المعاصر والوعي العربي العام, وطرح خيارات عليهما, أراها ضرورية وأولية. بادئ ذي بدء, أعترف بأن شعار «تحديث الفكر العربي» يتركني على عطشي.

والذي لا يضيني في هذه الصيغة هو أولاً كلمة «تحديث».

صحيح أن هذه الكلمة لها مبرراتها, فالفكر العربي بهمومه وطروحاته ومسائله, يبدو في معظم الأحيان قديماً ومفوتاً. قلما يتناول مسائل العصر, قملا يستفيد من العلوم الإنسانية الحديثة, وقلما يصل إلى إنشاء لوحة العالم العربي الراهن. بالمقارنة مع حالته قبل ربع قرن أو نصف قرن, كثيراً ما يبدو منكساً... من هنا دعوات التحديث, اللحاق بالعالم المتقدم وعلومه المتقدمة, العقلنة, التثوير...

يمكن أيضاً أن نضيف:

أويوبا انتقلت, منذ فترة غير قصيرة, إلى العصر الحديث, نحن ما زلنا في العصور الوسطى. أوروبا فرزت, في المجموع الثقافي, العقلانية العلمية والتقنية, أنمت الفكر النظري العلمي الخ, بينما هذا كله لا يزال عندنا, بقدر ما هو موجود (وهو موجود دوما), غارقاً في الثقافة الرحبة الواسعة الشاملة للفن والسحر والأسطورة والعواطف والخيال, الخ, في وحدة لا تنفك. وهناك, عدا ذلك أو من جهة أخرى, في أوروبا, أصوات تمتدحنا نحن الشرقيين على هذه الوحدة. الأمر الذي قد يغريني, كرد فعل على هذا المديح, بقبول شعار «التحديث» كشعار أو وأخير!

لكن ألم يكن التحديث هاجس الأجيال السابقة؟ ومع ذلك, وأيا كانت مآثر الفكر الليبرالي والماركسي والقومي والإسلامي الحديث, فلا نبالغ كثيراً إذا قلنا أن الأمور انتعت إلى فشل. والإسلامي الحديث استوعب كعنصر في مجموع ديني ـ سياسي له وجهة أخرى [2]...

لعل المطلوب ليس التحديث بل التأسيس. لعل النقص ليس نقص الحداثة بل نقص الأساس. هذا اعتقادي. الحداثة تابع.

في صيغة «تحديث الفكر العربي», ليس فقط كلمة «تحديث» بل أيضاً كلمة «فكر» نفسها يجب أن تكون موضع سؤال.

ما الفكر؟ لهذه الكلمة أكثر من معنى, لحقيقتها أكثر من مستوى ولفكرتها أكثر من اتجاع. فأي فكر نقصد؟

هناك أولاً المقولة الكبرى الأكثر أساسية: الفكر pentee, الروح esprit, الوجدان والوعي conscience, التي تقابلها ـ في المنطق ـ مقولة الكائن, الواقع, الطبيعة (بما فيها المجتمع). هذا المعنى يشمل الصورة التي في رأس النجار وترشد عمله, ويشمل الفكر النظر المفهومي (فلسفة, علم وعلوم), ويشمل كل أشكال تملك الإنسان للعالم, عالمه, يشمل الحلم والخيال والشعور والعاطفة, الدين والفنون والآداب. هذا الفكر كله يجب أن يكون موضع سؤال. الروح العربية تحتاج إلى انقلاب. الحلم يحتاج إلى انقلاب. فهو حلم موضوعه وغرضه الماضي! حلم وغرضه الماضي؟ هذه مفارقة فاضحة. فالحلم المفيد, حلم الشغيل مثلاً, غرضه المستقبل: صنع هذه الطاولة, تنشئة الأولاد, وعالم أفضل. أما الحلم المسقط على ماض فهو بالأصح منام ورؤية منامية. أنتقل إلى مستوى ثان: الفكر يحصر المعنى, الفكر الناظر النظري.

هل الفكر العرب فكر؟ لعله اليوم شيء أقل من الفكر, أدنى منه في المرتبة.. لعله, في معظمه, «فقه»: فقه قومي, فقه ماركسي, فقه هذا العلم أو ذالك, فقه ثوري, فقه ديني ولغوي وثقافي ـ حضاري, ... «مسيس» دوماً, وليس عندي قضية أرفعها على الفقه. قضيتي هي ضد الفقه الذي

يتصور أنه هو الفكر, أولاً أخيراً. أدعو «فقها» الفكر الذي قوامه «مابدئ وتطبيقات», «أصول وفروع»... مثلاً: «المادية الجدلية» في عرض ستالين ومقلديه...

أما الفكر الحقيقي فيبدأ من الصفر. ركيزته «الصحيفة البيضاء» Tabula rasa, الـ «أنا أشك, أنا أفكر», «الرأس»[1] ومقابله العالم, مبدأ التجرد الذي يؤسس طريق التجريد, هذا الاتجريد الواعي أنها تجريد وحد ومفهوم.

هذا الصغر ركيزة كل الفتوحات, آينشتاين والسومري مخترع الدولاب, آدم سميث وهيغل وماركس, فيثاغور والخوارزمي وباسكال, هيرا كليت وأفلاطون, أرسطو وابن رشد وابن خلدون, كوبرنيك وفييت ونيوتن, فلاسفة عصر الأنوار و«الفلسفة الكلاسيكية الألمانية».

إن «التحديث» كلمة تحمل إيحاء مناوئاً للفلسفة, أقصد للفلسفة بالمعنى الكبير, للفلسفة الكلاسيكية, القديمة والحديثة, لصالح أزمنة أحدث. فالأزمنة الأوروبية الأخيرة تعلن (أعلنت مراراً) نهاية الفلسفة. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى, إن الفلسفة لم تشغل بتاتاً مدارس الفكر العربي المذكورة أعلاه. بعضها (الفكر الإسلامي) رفض المضمون والكلمة [4]. وبعضها الآخر (الفكر الماركسي) قبل الكلمة وأحبها ورفض المضمون: الفلسفة التي قدمها تحت اسم «المادية الجدلية» ليست فلسفة. في أحسن حال, إنها تصور للعالم, غلم وجود. لكنها ليست: علم منطق, نظرية معرفة.

ولنذكر أيضاً أن الانتقال, في بعض البلدان العربية, من براج التعليم الفرنسية إلى برامج التعليم الوطنية, حمل معه تقليص أو إلغاء لمادة الفلسفة في الصف الثانوي الأخير: بقي (وقلص) علم النفس وعلم المنطق (بمعنى «طرائق العلوم») وعلم الأخلاق (ثم صار علم اجتماع), وحذفت الفلسفة العامة أو «ميتافيزيقا» إنها ناقلة أو هي هرطقة! تجاه الدين أو تجاه العلم والعلوم والتقدم, لا فرق في ذلك: «الأطراف» تتلاقى على نتيجة واحدة: «الإيجابية».

هذه الكلمة الأخيرة تقودنا إلى «المناخ». المناخ الذي عاش ويعيش فيه الفكر العربي هو المذهب الإيجابي أو الوضعي (posilivisme, الوضعوية), مذهب أوغست كونت Comte وآخرين, أو لنقل: هو المناخ الوضعوي والعلموي (scientism).

حسب أوغست كونت: ينتقل الفكر البشري وتنتقل البشرية من الحالة اللاهوتية إلى الحالة الميتافيزيائية التي هي تطوير للحالة السابقة وأخيراً بعد طول عناء تصل إلى الحالة الوضعية أو الإيجابية, تاركة ما لا نفع فيه ولا جدوى منه ولا طائل تحته. إلى هذا المذهب الفلسفي الوضعي أضاف كونت دينا وضعياً إيجابياً هو «دين البشرية» مع كنيسة وطقوس وإكليروس يرأسه بابا (هو أوغست كونت), دينا بلا لاهوت أو نوهاً من «كاثوليكية بدون المسيحية», كما يقول أحد المفكرين! على أي حال, المذهب الديني سقط, المذهب «الفلسفي» بقي, والمذاهب التالية تمده, تواصل المناخ. الفلسفة الحقيقية ملغاة. أوغست كونت يكره «المجردات» ويؤيد «الايجابية», يرفع لواء «النظام والتقدم» [1].

أوروبا المتقدمة, أوروبا الصناعة والتقنيات والعلوم, بهوت أنظار رجال عصر النهضة العرب. هذا بوجه عام, وسواء أرادوا الحديث وحده أو الحديث مع التقديم, سواء أرادوا العلم الأوروبي خالصاً أو أرادوه مع «التراث». قلما عادوا إلى ما قبل أوروبا القرن التاسع عشر, قلما تساءلوا عن أساسات هذا التقدم. ركضوا إلى «النتائج». هذه النتائج ليس فيها فلسفة. الفلسفة, الميتافيزياء, اللاهوت الخ هذا من الماضي الذي خلفته أوروبا وراءها. وعلى العرب أن ينتقلوا بدورهم إلى الإيجابية.

الجناح الإسلامي في النهضة يضيف أو يبرز أن الإسلام دين الإيجابية والواقعية والعقل: هذه خصوصية الجناح المذكور في إطار فكر النهضة مأخوذاً كمجموع عريض وبعض الإسلاميين الحديثين (وغيرهم, وليسوا بالضرورة مسلمين) يشددون هذا الموقف في معارضة أو مقابلة يقيمونها بين الدينين: الإسلام, بخلاف المسيحية أو بعكسها, دين واقعي إيجابي يؤيد العقل والعلم. وإذا كانت الشعوب المسيحية هي التي تقدمت وهي المتقدمة والشعوب الإسلامية في تأخر وجهل, فلأن المسيحيين خالفوا دينهم والمسلمين خالفوا دينهم. كان يمكن أن يقولو بموجب مسأليتهم وبدفه

منطقهم إلى نهاية: المسيحيون هم المسلمون والمسلمون هم المسيحيون... هذا المنطق باطل, الخطأ خطأ المنطلق. لقد استسهلوا الكلمات: واقع, عقل, إيجابية, علم, دين, دنيا الخ... لكن مأثرتهم كبيرة. لقد طرحوا السؤال: لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟... وأبدوا العقل.

واليوم كما بالأمس, الفلسفة مطرودة من الفكر والوعي عند أنصار «الدين والعلم» وعند أنصار «المعرفة العلمية» سواء بسواء.

الفكر الماركسي العالمي, الذي لم يدخل الساحة العربية إلا في وقت متأخر, مأخوذ هو نفسه. إلى هذه الدرجة أو تلك, في المناخ المذكور. هذا الفكر الماركسي يحمل مشروعاً آخر, غير التقدم البرجوازي, وغير محاكاة الغرب, (هو مشروع الثورة الإشتراكية العالمية). ومع ذلك, ورغم النسب الهيغلي المعلن وبضعة أمور أخرى, فهو تحت تأثير الجو. بين هذه الماركسية الذاهبة إلى أمام وبين الخط الذي دشنه أوغست كونت تعاطف ما هوي: ضد اللاهوت والحالة اللاهوتية, ضد «الميتافيزياء» أو «المثالية», مع العلوم والتقدم. الماركسية هي «النظرية العلمية» و«الفلسفة العلمية»: حاكمة على العلوم؟ تابعة للعلوم وملحقة بها؟ وهذه الفلسفة العلمية التي تذيع شهرتها تحت اسم «المادية جدلية والمادية التاريخية», تستغني, في كتاب ستالين (وهو الكتاب الأكثر شهرة في كل تراث وتاريخ الفكر الماركسي), عن كلمة «مفهوم» (concept), وعن تأكيدات لينين «المادة مفهوم» و«المادة مفهوم فلسفي». ستالين يتعامل مع المقولات الكبرى ـ طبيعة, روح, مادة, وعي, تاريخ, مجتمع ـ كأنها أصناف وحسب, كأنها أشياء كبيرة ونتاجات كبيرة لأشياء كبية, أو كأنها كلمات معلومة وبديهية!

حين أحذف «المفهوم», حين أتعامل مع الكلمات كأنها أشياء, أو كأنها كلمات لكن بدون الإشارة إلى أنها أولاً كلمات, فإن الذي أحذفه هو الفكر. أحذف الفكر كمبدأ لعملية المعرفة التي هي معرفة الواقع, أحذف الفكر العارف الناظر, أحذف الطريق, الطريقة, الوساطة. وبالضبط, هذا لسان حال الماركسية «المادية» و«العلمية»: الفكر نتاج, والفكر انعكاس, والقول بأن الفكر مبدأ هو المثالية idealism. بمعنى ما, هذا صحيح: لغوياً, المثالية هي الفكرية والفكرتية والمثلية. والماركسيون يحجمون عن الانتقال إلى هذا «العنصر», يبقون مع وفي «عنصر» الوجود... وهذا تعزيز رفيع للحن شرقي وشرقاني قديم ويتلقفه الغرب الحديث أيضاً: الوجودية ضد الفكرية. الـ «أنا موجود» ضد الـ «أنا أفكر». في الماركسية المذكورة, الأونطولوجيا (نظرية الوجود أو علم الوجود) أكلت الغنوزيولوجيا (نظرية المعرفة). بموجب هذا الشطط. نعرف أصل الفكر, ونؤكد دوره وأهميته, لا نعرف ما هو, لا نعرف طريقة (كيفية) ذهابه إلى الواقع. ستالين, في الكتاب الذي نحن بصدده, لم يعطنا بتاتاً طريقة فكر أو طريق معرفة, أعطانا ـ وتحت اسم «الطريقة» (الطريقة الجدلية)! ـ طريقة عمل الطبيعة, أي جزء من تصور الطبيعة ونظرية الوجود, ولسان حاله: هكذا تعمل الطبيعة وبالتالي هكذا يجب أن نفكر! أي أنه قلب العلاقة «طريقة نظر ونظرية» ملغياً الطرف الأول.

واليوم, في الوقت الذي يكثر فيه الحديث عن مناهج العلوم والميادين العلمية, يجب أولاً رفع لواء الطريقة أو الطريق (بصبغة المفرد). الفكر العارف أو الناظر طريق. بدءاً من أبسط فكر. أريد أن أرى هذا البيت, أن أراه جيداً, كما هو, يجب أن أنظر إليه من هنا ومن هناك ومن هنالك, وهكذا دواليك, من زوايا كثيرة. المعرفة وجهة ووجهات, حيثية وحيثيات, حد وحدات, تجريدات ترتكز على مبدأ النظر, على الفكر كمبدأ. المعرفة ليست أكلاً وشرباً وتملاً للمأكول في جسم الآكل. المعرفة توسط, الفكر طريق, الذكاء التواء detour. ضد المباشر والمباشرية. في عملية المعرفة, لا أحد قاعد في الواقع, كل يذهب إليه, ولا أحد يذهب إليه حراً فارغاً, كل يذهب إليه ومعه كلماته. فليحذرها, فليحذر «أصنام اللغة».

-2-

عل الفكر عربي؟

«عربي» كلمة. في «تحديث الفكر العربي», يجب أن لا تتضخم, أن لا تتحول إلى إله ـ صنم. في الوعي الصاحي. إن هذا الوصف ـ «عربي» ـ يعني أن الفكر الذي نحن معه أو ضده فكر بشر عرب ومفكرين عرب.

كل «تضمين» إضافي يكون مصادرة في غير محلها. بطبيعة الحال, إن كونهم عرباً يفترض ويتضمن: هموم عربية, أداة تعبير عربية الخ. لكن هنا أيضاً يجب الحذر من التصنيم: فالهم العربي عم بشري, واللغة العربية لغة, والفكر فكر, الخ, هذا أولاً. وثانياً, يجب الصراع والتسويغ و«إقامة الحدّ».

«الفكر العربي» الذي نحن بصدده ليس «عربياً» إلا بمعنى محدد ومحدود. الليبرالي, القومي, الماركسي, الإسلامي الحديث والإسلامي الأخير, هذا كله فكر بشري وعالمي. إنه ينتمي للإنسان ككلي مجرد وكعالم أمم. الليبرالي والقومي والماركسي أوروبي المصدر. وكذلك ـ جزئياً ـ الإسلامي الحديث. بل والإسلامي كله هو, في جوهره ذاته, عربي وغير عربي. ولا يمكن فهمه ولا تصوّر وجوده, كمضامين واتجاهات وشعارات, بدون العالم وبدون أوروبا. ويمكن أن نقول عن معظمه أنه لا يتعترف بـ «العربي» كقومية...

إن «عالمية» الفكر الإسلامي (بل ـ بمعانٍ محددة ـ عدم عروبته) تدفعنا بعد التذكير بأن العرب قطعة من المعمورة الإسلامية (فالعرب همس المسلمين في العالم), إلى أبراز جانب آخر يمكن أن أدعوه «الإحداثية الزمنية التاريخية».

في أطار التاريخ الإسلامي وتاريخ العالم, «العرب» حقبة: العصور الوسطى (ق7 - ق15). بالمقابل, الأزمنة الحديقة هي حقبة الامبراطورية العثمانية وفارس الصفوية وكبار مغول الهند, حقبة أوج إسلامي سياسي (وحضاري), والعرب خارجها, فالعرب جزء من الامبراطورية الأولى, تابع...

في تاريخ الفكر الإسلامي, تنتهي الفلسفة العربية الإسلامية مع ابن رشد وتشريقة (وشرقنة) محي الدين بن العربي. وتبدأ حقبة جديدة في تاريخ الفلسفة الإسلامية, العرب خارجها.

بالطبع, هذه الأحكام الآنفة هي «قطعات», أشكال كبرى, عملية قبض على خطوط عريضة, لا أكثر وهي ليست صحيحة إلا في سياق المقابلة (المعارضة opposition) المحددة والواجبة. كثير من رجال النهضة العرب وعوا «الفرق», كما وعاه أيضاً كثير من أوروبي النهضة والأزمنة الحديثة والمعاصرة, وكما وعاه وأبرزه أخيراً أنصار أوروبيون للفلسفة الإسلامية غير العربية (مثلاً هنري كوربان H. Corbin, تاريخ الفلسفة الإسلامية). ويجدر بنا أن نعيه؟ الفلسفة الإسلامية العربية شيء والفلسفة الإسلامية التالية (أو بالأصح المرافقة والتالية) شيء آخر. وبعد «اقامة الحد» على المصطلحات, لا بد من القول: إن «الإسلامية العربية» هي الأقرب وبكثير للموقف النظري الذي يجب أن يُدعى «المفهومية والتاريخية».

لقد توقف نمو الفلسفة العربية الإسلامية في وقت مبكر, قبل النهضة (الميلاد الجديد) في الغرب. على هذه الفلسفة عاش هذا الغرب (الغزالي, ابن سينا, أخيراً: ابن رشد) قبل «العودة» والبدء الجديد (ق15 - ق16).

إلى أين وصلت الفلسفة الإسلامية العربية (ابن رشد, وابن خلدون: فكر الاجتماع الإنساني, فكرة العمران الخ)؟ وقبل ذلك, ما هي «الأفلاطونية المحدثة»؟ ما «طبيعة» هذه الفلسفة المشرفية المسيحية, ثم الإسلامية؟ تلك أسئلة حيوية لن أتعامل معها هنا [5].

المهم أن عرب سنة 1900, فيما عدا استثناءات قليلة, ليس تحتهم قاعدة فلسفية. والاستثناء لا يتخطى, كفلسفة, فكرة «تصور العالم أو الوجود». مسألة المعرفة, الفكر كفكر. غير مطروحة (في هذه الحيثية الحادة في تجريدها, يبدو «الشك الديكارتي» عند طه حسين نقطة ذروة, مقطوعة وميتة). والتطورات التالية (لاسيما الفكر الماركسي) لن تساعد على طرحها.

يجب أن نميز في «الفكر» جانبين أحدهما «الإيديولوجيا» والآخر الطريقة, المنطق, الخ, سواء كان هذا الجانب الأخير مصرحاً به أو ضمنياً وغير معترف به كجانب مستقل, ومعين ومقرر في كل فكر و«أفكار». هذا الجانب الثاني (في اعتقادي إنه أول!) لا صلة له بالقومية ولا «حتى»

بالطبقية. ويجب أن يكون في السؤال والنقد. قبل أي شيء, أما الجانب الأول ـ أفكار, أيديولوجيات ـ فمواصلاتها مع العالم غير العربي معروفة إلى حد لا بأس به.

في المجموع, ما يجب أن يوضع في السؤال ليس الفكر العربي أساساً. بل شيء «أكبر» وبمعنيين: أشمل لأنه «أبداً», أعمل, أكثر أساسية, منطقاً وأيديولوجيات.

والقضية هنا ليست محصورة في المعنى العام والتساوي الذي نستطيع بموجبه أن نؤكد لا قومية الفكر عن كل فكر لأمة في عالم الأمم, بل هي تتعدى هذا المعنى العام إلى تأكيد عدم التساوي. لا يمكن أن نقول عن فكرنا النموذجي أنه عربي بالمعنى الذي نقول فيه عن فكر ديكارت أنه فكر فرنسي, وعن فكر كنط وفيشته وشيلنغ وهيغل أنه الفلسفة الكلاسيكية الألمانية وعن فكر آدم سميث وريكاردو أنه علم الاقتصاد السياسي الكلاسيكي الإنكليزي وعن الفيزيوقراطية أنها الفيزيوقراطية الفرنسية. باختصار, لا يمكن أن نقول أنه عربي بالمعنى الذي نقول فيه عن ذلك الفكر العالمي واللا قومي والكوسموبوليتي إنه: ألماني, فرنسي, إنكليزي. ويمكن أن نعقد المعارضة نفسها بين فكرنا الحالي وفكر أسلافنا قبل عشرة قرون. حين تكون هوية لا تكون عقدة هوية. والتمهيد الفكري للوحدة الألمانية كان البعث الروحي والفكري العام (فلسفة, موسيقى, آداب, علوم..) الذي غمر أمة متأخرة ومجزأة وكونها كشعب ـ ذات. أن يكون شعب مبتلياً بالهوية عقدة فهذا يفهم, يعلل, يبرر. أما أن يركب مفكرون على هذه الحالة فهذا سقوط الذات, إنساناً وأمة على حد سواء.

الفكر العربي ليس الفكر العربي. المثقف العربي المعاصر لم يكتشف الذرة, الفكر العربي لم يفتح شيئاً, وهو لن يفتح إلا إذا توفرت له شروط وأسباب. أولها, في صعيده الخاص, الإيمان بذاته كفكر, وإلغاء التضمينات الملتبسة (القومية والدينية واللغوية) للصفة: «العربي». الفكر العربي ليس الفكر العربي والمطلوب أن يعي هذه الحقيقة. عندئذ, يمكن أن يكون فكراً عربياً وفاتحاً. يمكن أن يرشد العمل العربي, أن يُسعم إسهاماً أولياً في تكون وعي عربي وذات عربية.

أعود إذاً إلى «التحديث».

تحديث؟ من أجل ماذا؟ من أجل أي عمل وأي مشروع؟

لقد وصلت البشرية الآن, في هذه اللحظة moment المنطقية والتاريخية, إلى أكبر مفترق في تاريخها الطويل. وصلت إلى نهاية. إما أن تكون نهاية تقدم وثورة تأسيس لتقدم آخر وإما أن نكون نهاية النوع. هذه القضية تخصنا بالتمام!

الأسلحة النووية, تلوث البيئة, تفاد ثروات باطن الأرض, التصحر والتصلع, استمرار أو اتساع الفقر والجوع, عودة أمراض وظهور أمراض, التفجر الديموغرافي, أزمة العالم الثالث وسقوط مذهبيته الثورية, عودة الأزمة في الغرب, وتوسع الهوة شمال / جنوب, أزمة الاشتراكية كعالم أمم وكنظام اجتماعي, الخ, هذا كله ليس بعيداً عنا ولسنا بعيدين عنه.

وأزمتنا العربية ليست من «مادة» أخرى أو «جوهر» آخر. وما نحتاج إليه, أي الضرورة والضرورات التي يجب أن توعى, أكبر وأعمق من أن تؤخذ بمصطلح «التحديث» وفكرة التحديث. التحديث جانب مهم جداً وحيوي وملح لكنه لا يستنفذ القضية ولا هو أساسها.

كلمة «تحديث» تحمل إيحاء برجوايا. هذا المدلول ليس الشيطان وهذه الفكرة أفضل من فكرة wesletnization. التحديث ضروري. «البرجوازي» كصفة لمجتمع ولثقافة وحضارة متقدم على ما قبله في البسط التاريخي للإنسان. و«الشرقي» يقع قبله ودونه, بل دونه بكثير في بعض الحيثيات الهامة. لكن ثمة فرق كبير بين «برجوازي» و«برجوازي», بين أوروبا وأوروبا, ثمة فرق بين التأسيس والصعود إلى المجتمع الحديث وهذا الذي بهر أنظار أسلافنا الفريبين ويبهر أبصار الكثيرين منّأ. ثمة فرق بين أوروبا المجاهدة وأوروبا المجتهدة. ثمة فرق بين فكر يرفع لواء الكليات ـ المجردات (إنسان, عمل, مجتمع مدني, أمن, حرية ومساواة وإخاء, ملكية, طبيعة وحق طبيعي, وطن ومواطن, شعب, أمة, دولة, الخ) وفكر «تجاوزها» أو تخلى عنها.

الإيجابي الذي حققته أوروبا يجب أن نحققه. وإلا فنحن عائدون, في عصر متقدم, إلى حالة سابقة: مادة لتاريخ عالمي نحن خارجه, موضوع لمصير إنساني لسنا فيه كذات.

(كلمة غير واضحة صفحة 18)

وهذا الإيجابي الأوروبي المطلوب تحقيقه ويتخطى التقنية والصناعة والعلوم. إنه أولاً معقولية فكر ومعقولية واقع واجتماع بشري. والعمل التاريخي العربي الواجب والممكن يتخطى هذا الإيجابي الأوروبي, إيجاباً ونفياً.

إذا كان علينا (وعلى شعوب عديدة أكبر منا أحياناً وأعرق) إن نحقق هذا «الشيء» الأوروبي, فلأن الأوروبي هو مرحلة في بسط الإنسان كمنطق وكتاريخ, وبالتالي لأن «الإنسان» كمفهوم كلي ليس مستنفداً في المكانية الامتدادية. «الأوروبي» مرحلة في التاريخ كتقدم وكدراما. بذوره, عناصره, موجودة «في كل مكان».

والاستعمار نفسه, ومع التأكيد الأشد على أن الاستعمار الأوروبي الحديث مع جرائمه الكبرى والمهورة (إبادات الخ) ظاهرة جديدة وخطيرة في تاريخ العالم, ليس جوهراً أو ماهية محصورة في علاقة أوروبا مع العوالم الأخرى. لغة وفكراً وواقعاً, الاستعمار هو استعمار الأرض والبشر. والتاريخ كله استعمار. فالتاريخ تاريخ البشر في الدنيا, ليس تاريخ الملائكة ورؤسائها والهيمنات السماوية في الملأ الأعلى. الفكر الأوروبي الكبير هو الذي أبرز وأسس فلسفياً فكرة التاريخ وعلم التاريخ, الفكرة التي لها خلفيات وركائز لاهوتية بينة في «دين الإله الواحد» monotheisme: العلينة transcendantalisation)الله فوق, الله هو الصمد) أساس (كلمة غير واضحة صفحة 19) historisation والعلمنة secularizstion و laicisstion: الدنيا دنيا, لها تاريخ, إمكانية تحسن, العالم عالم, التاريخ تقدم ودراما ومأساة [2].

إذا كان الفكر الأوروبي الأساسي قد بلغ ذروتين (النهضة, وعصر الأنوار الخ). فإن هاتين الذروتين هما ذروتان في حيثية الكلي universel, على وجه التحديد. والتاريخ, كفكرة فلسفية وكمفهوم صحيح, ليس مستنفداً في مسار خط, كأنه طريق رحلة مدرسية من مدينة إلى مدينة أو كأنه مشوار لثوار.

التاريخ يفترض ويتضمن عودات.. إن بذور «المجتمع المدني» (bergerlische Geaellschaft, civil society) ـ مثلاً ـ موجودة وفاعلة في أحقاب سابقة. في عوالم مختلفة: يمكن أن أنظرها في أوغاريت أو في دمشق الأمويين. ولعل فكرة «العمران» الخلدونية أكثر أساسية من مفاهيم أو حكايات علمية ظهرت في أوروبا القرن التاسع عشر.

لا تقليد ولا محاكاة. بل منطق واقع وتاريخ, عمل بشري وخيارات.

نعم للتحديث, نعم لهذا الذي يسميه التراث الماركسي «المهام البرجوازية» التي يجب أن تُفهم بمعنى أعمق وأكبر.

نعم للتحديث, كجزء عضوي في عمل تاريخي يتخطى فكرة «المجتمع المدني» إلى فكرة «المجتمع الإنساني».

والفكر من أجل هذا العمل.

فكر في المبادئ والأساسيات للأزمنة الأكبر والمنعطف الأكبر في تاريخنا وتاريخ النوع.

المبادئ والأوليات هي التي يجب أن تكون موضوع النظر والمناظرة بين المثقفين العرب.

في اعتقادي, يجب على الوعي العربي أن يحقق عدداً من الانتقالات أولها الانتقال من الرمزية والشيئية إلى المفهومية والواقعية.

-3-

الكلمات ليست أشياء

الفكر يستخدم الكلمات. الكلمات ليست أشياء. الكلمات تسميات. بعضها تسميات لأشياء. بعضها تسميات لعلاقات, لعمليات, إلخ.

هذا التقسيم ـ أشياء, علاقات, عمليات, الخ ـ الذي لا يتوخى الحصر ولا الدقة, ليس تقسيم علم الصرف أو موروفولوجية اللغة العربية (أو الفرنسية وغيرها).

مثلاً, الكلمات: في (حرف الجر), و(حرف العطف), القيمة (مقولة علم الاقتصاد), الهوية, الفرق, التعارض, التناقض الخ تسميات لعلاقات. والكلمات: يطير, طيران, فكر, تفكير, الخ تسميات لعمليات وأفعال...

علم الصرف يبدأ بتقسيم الكلام إلى ثلاثة أقسام: الفعل, الاسم, الحرف... هذه البداية تستلزم بداية قبلها. خارج علم الصرف, بداية تكون تعريفاً للكلمة ككلمة. يجب استرجاع كلية المبدأ: الكلمة, ضد تصنيم ثلاثة أنواع وضد سلطان المدونة القواعدية اللغوية على الفكر والروح. الكلمات كلمات, هذا أولاً وقبل أي شيء آخر.

«كلمة» العربية تحبلنا على الفعل كلم = جرح, و«اسم» تحيلنا, من جهة, على: سمة, إذن صفة, حد, تحديد, تعيين, جانب, كيف من كيفات. ويمكن أن تحيلنا, من جهة أخرى, على: سما, يسمو, سماء, وعلى قول هياكليت «الأسماء قوانين الطبيعة». الأسماء «قوانين» وليست أشياء. ثمة علاقة بين لوغوس logos ولغة. ثمة علاقة بين النطق والمنطق. الإنسان حيوان ناطق, هذا يجب أن يعني: المنطق, الفكر, القدرة على اكتشاف معقولية الدنيا.. بالحد الذي «هو» أيضاً المفهوم.

يمكن أن يبقى الفكر البشري في مستوى الشيء والكلمة. أمامي أشياء ـ أغراض objets وألصق عليها ذهنياً اتيكيتات كتبت عليها أسماءها: طاولة, كرسي, أيضاً كرمي, جدار, نافذة, ممحاة, مصباح كهربائي, قمر الخ... وربما: طبقة, أمة, طبيعة, قيمة, مادة!!؟

لكن, إذا ما بدأت عملية الفكر الناظر, فإنني أقول لنفسي: «طاولة»؟ هذه صفة لهذه الطاولة الكائنة أمامي ولكل الطاولات المختلفة, في البيت والعالم, في الحاضر والماضي والمستقبل, وللواتي هن طاولات كتابة وطاولات طعام الخ ولهن دائماً وبالضرورة صفات كثيرة كثيرة إضافة إلى صفتهن كطاولة. «طاولة» هي صفتهن العامة المشتركة. «طاولة» هي كلي universel. وهذه الطاولة الكائنة أمامي هي كل من كليات. هي حاصل جمع لصفات (= عموميات, كليات) لا حصر لعددهن. فهي طاولة وهي حمراء وهي قديمة وهي مستطيلة وفي طرفها مسمار ناتئ وهي خشبية الخ كل من هذه الصفات على حدة هي مشترك بين هذه الطاولة وأشياء أخرى مختلفة «الأنواع».

بل: «هذه الطاولة» أو «هذا الشيء» أيا كان (بحد ذاته وبدون التأشير بالأصبع) كلي. يمكن أن أقول «هذا الشيء» عن أي شيء كان, بلا استثناء. وهكذا تنكشف الكلمة الأكثر خصوصة في ظاهرها وبموجب استعمال عن كونها الكلمة الأكثر عمومية: كل شيء مادي أو فكري يمكن أن نقول عنه «هذا», اسم الاشارة: «ضمير الاشارة»؛ وكل إنسان يمكن أن يقول «أنا» (هيغل, لينين). «في اللغة لا يوجد سولا الكلي», هذا يردده لينين في الدفاتر الفلسفية. وراء فويرباخ وهيغل ومدارس الفلسفة اليونانية.

لكن, أليست الكلمة «طاولة» أكثر من صفة عادية لهذه الطاولة ولأخواتها الطاولات الكثيرات المختلفة؟ أليست تسمية (= نعيينا) لنون أو الجنس أو الصنف أو... الجوهر, الماهية...؟ (ما هي؟ ـ طاولة!).

نعم, نعم بالتأكيد, في الحالة العادية, في استعمالي اليومي. نعم. بموجب عملي واهتمامي ومصلحتي. لكن هذا أيضاً نسبي. يمكن أن نككون مصلحتي عند «طاولة الكتابة الصغيرة» لا «طاولة المطبخ» مثلاً.

أما عالم الفيزياء, فالأرجح أنه ـ في عمله المعرفي كعالم فيزياء ـ لا يعترف بالجوهر طاولة, أو باب, أو كرسي. إنه يتعامل معهن جميعاً بوصفهم أجساماً, كتلا, ذرات, الخ, كلمة جسم corps العلمية الفيزيائية هي تسمية لأجسام من «أنواع» مختلفة الطاولة, القمر, جسم الإنسان, النفط, الغاز الخ. «أنواع» مختلفة جداً, لكن بينها هذا المشترك: جسم, كتلة, كتيلات molecules وذرات, جاذبية, حجم, امتداد, حرارة, الخ. المشترك «كبير», لائحته طويلة. هذه لائحة مفهومية مضبوطة. إنها, في علم الفيزياء, أي في معرفة المستوى الفيزيقي للواقع, علاقات مفاهيم.

إن شيئاً من الأشياء لينتمي إلى ما لا حصر له من الأنواع والأصناف, في مستويات واتجاهات شتى: كل صفة من صفاته, كل كيف من كيفاته, كل حد من حداته, إنما يحدد (يعين, يقرر) نوعاً يشمل في مجموع أفراده الشيء الذي نحن بصدده. مثلاً, هذه «طاولة مستطيلة خشبية عتيقة»: إنها تنتمي لنوع الطاولات, وتنتمي لصنف الأشياء الخشبية, ... وتنتمي لمجموعة الأغراض العتيقة البالية التي يجب أن أتخلص منها: هذا جوهرها أو جوهريها الآن بالنسبة لي ولحياتي.

إذن: المنطق (بمعنى هيغل وأرسطو) «يقيم الحدّ» على فكرة النوع, الصنف, الجوهر, الخصوصي ـ النوعي. بتعبير آخر, إنه يعلم مسبيتها, بنسبها أو بنسبنها. المنطق يخضع فكرة الجوهر لفكرة العلاقة أو النسبة... جوهر؟ ـ نسبة إلى ماذا؟ في العلاقة مع ماذا؟ في حدود أية معقولية؟ ليس ثمة جوهر مطلق (ومع الإيحاء العربي للكلمة): كل جوهر مربوط, مقيد, معقول.

كل كيف (صفة qualite) يحدد نوعاً (كيف؟ ← صفة ← نوع). حيث الفرنسيون يقولون «كماً وكيفاً», العرب أو الألمان يقولون: «كماً ونوعاً». النوع تابع لكيف أي لصفة. اسم هذا الشيء إجابة على السؤال ما هو؟.. لكن السؤال والجواب هما في الـ «كيف؟».

هكذا أيضاً الدرس الأول في نظرية المجموعات, رياضيات الصف الأول الابتدائي: في الصفحة الأولى من الكتاب, نجد عدداً من الأشكال الهندسية (مربعات, مستطيلات, مثلثات, دوائر) المختلفة الألوان. الطلب الأول: كون مجموعة المربعات, الطلب الثاني: كون مجموعة الأشكال الصفراء (دوائر, مربع, مثلثان). والكتاب لا يقول للتلاميذ: الشكل الهندسي جوهر, واللون عرض, الشكل الهندسي هو الأساسي واللون ثانوي.

هذا الموقف تقدم جذري, يجب أن يستثمر, أن يدفع إلى الأمام. قبل 15 عاماً كان هناك إلحاح (عندنا وفي فرنسا سواء بسواء) في الاتجاه المعاكس: لا يجوز جمع قطتين وكلين, لا يجوز جمع أشياء من أنواع مختلفة.

ـ لم لا؟ أجمع قطتين وكلبين وفيكون معي أربعة حيوانات بل أربعة «حيوانات أهلية لطيفة وألعب معها»: هذا أيضاً نوعها وجوهرها. (الواقع ليس مستنفذاً في علم البيولوجيا أو سواه).. الآن انقلب الموقف: حسب «الرياضيات الحديثة», العدد خمسة أصبح بحكم التعريف «مميز» أو «رئيسي» مجموعة من خمسة رجال أو... «مجموعة من رجلين ودراجة وسيارة وكنيسة».

المجموعات حرة! هذا ما تقوله «الرياضيات الحديثة» التي لها على الأقل هذه المزية: سقوط الجوهر, الماهية, النوع المطلق.

لنعد إلى المنطق. أجمع 3 كراسي, 4 رجال, 3 حيوانات, أحصل على عشرة أجسام.

لكن أجمع أيضاً وقبل ذلك: العدد, القيمة, المادة, كرسي, عفريت, فأحصل على خمس كلمات, هذا أولاً, هي خمس فكرات. هذا ثانياً, وأتساءل عن كيانها خارج الرأس, هذا ثالثاً.

بتعبير آخر, قصدت ما يلي: يجب على الفكر العارف (الفكر في المعرفة أو مسيرة معرفة) أن يعي, قبل كل شيء وفوق كل شيء, أنه يستخدم كلمات, وأن يحذر كلماته, أن يحذر ما يسميه فرانسيس بيكون «أصنام اللغة». الكلمات ليست أشياء ـ أصناماً ـ آلهة.

كل الكلمات هي كلمات. هذه حقيقة نوتولوجية, إنها صفر. لكن الفكر يسقط إذا لم يبدأ بهذا الصفر.

المادة كلمة. كذلك الطبيعة, الواقع, الحزب, الفكر, العقل, الشيء, المجتمع, التاريخ, العمل, الوجود, العدم, العالم.. كلها كلمات. وهي كلمات صعبة.

حصان, طاولة, بيت, كرسي.. كلمات سهلة. مع ذلك, إن الفلسفة, أي أفلاطون ولينين, «تبدأ» بهذه الكلمات غير السهلة!

الفلسفة تعلم أن هذه الأسماء العادية هي كليات univeraaux.

والفلسفة الأوروبية الوسطوية (ق13) تدخل في «مشاجرة الكليات», إحدى أعظم لحظات الفكر البشري وتاريخه. «الواقعيون» realisles (أنصار أفلاطون) يقولون إن «الكليات» هي الواقع أو الواقع الحق. «الاسمانيون» nominalistes يقولون أن «الكليات» ما هي إلا أسماء: الكائنات الحقيقية هي الأحصنة أمامنا.

هناك أيضاً «المفهوميون» في الوسط. في نظرهم, الكليات أكثر من أسماء.

يمكن القول إن هذا الموقف الأخير هو الصواب.

لكن المهم الأجدى, هو الطرفان النقيضان, اللذان دفعا المسألة إلى الحدين الطرفين الأخيرين بعيداً عن كل انتقائية وتوفيقية واختلاط.

ومن أفلاطون عبر حلقات وسيطة متنوعة (ديكارت, العقلانية) إلى هيغل هذا خط في تاريخ الفلسفة. إنه خط «المثالية الموضوعية» التي تصير عند هيغل «المثالية المطلقة» (و«الفكرة المطلقة» مسلمة المنطق).

المفهوميون يمكن أن نضعهم على خط يبدأ مع أرسطو ويصل إلى؟ ... إلى ماركس؟ ـ لنقل: إلى «الجميع» لكن المهم هو الخروج من الاختلاط ودفع الأمور إلى نهايتها, إدراك صواب الطرفين النقيضين.

الاسمانيون هم ماديو العصر الوسيط. وقد لعب أشهر دورا فكريا وسياسياً ثورياً وقاتلاً.

من الاسمانية (العصر الوسيط) إلى التجربية (العصر الحديث: جون لوك Locke, ق17): هذا خط ثان.

و... من لوك إلى بركلي Berkeley. هذا ما لاحظه لينين في «المادية والتجربية النقدية», حيث قال: من لوك يمكن الذهاب إلى ديدرو (المادية) أو إلى الأسقف بركلي (المثالية الذاتية, مذهب اللامادية أو اللامادة). لكن لينين لم يتعامل مع «الاسمانية» و«الواقعية», مشاجرة الكليات, قضية القرن الثالث عشر.. بركلي ينتسب إلى الاسمانية, عن طريق التجربية (لوك), بل ومباشرة بدون هذه الوساطة. بركلي, المثالي الذاتي, يقف على خط الاسمانية المادية!

«بالمقابل», لنذكر أن مدرسة مهمة في الرياضيات المعاصرة تسمي نفسها اليوم المدرسة «الواقعية الجديدة», واقعية بمعنى أفلاطون والقرن الثالث عشر. تسمية ضاربة, استفزازية. فالأرجح أن أحداً من هؤلاء لا يعتقد أن هذه الطاولة المحسوسة غير واقعية وغير حقيقية. إنما يؤكدون «رياضية الواقع وواقعية الرياضي».

ومن المؤكد أن كل العلم, وكل الفكر الذي يستحق أن يسمى فكراً, يؤمن بـ «مفهومية الواقع وواقعية المفهوم», أو ـ بمفردات أفلاطون ـ يؤمن ـ «مثلية الواقع وواقعية المثل», على هذا النحو أو ذالك.

هكذا الفلاسفة والعلماء (بل لنقل هكذا البشر المنتمون لمفهومهم ونوعهم: «الإنسان العاقل», «الإنسان الصانع العاقل»). والخلاف بينهم قائم على قضية «هذا النحو أو ذاك».

ثمة واقع وراء المباشر.

يجب رد الاعتبار لأفلاطون «مخترع» المثل, مدشن الفلسفة المفهومية, طارد الشعراء من المدينة مكللين بالزهور...

يجب رد الاعتبار للأوائل الذين سبقوا أفلاطون. ليس فقط الكنعاني الذي «اخترع الذرة» (الذرة / الفراغ) أو ذلك الذي اخترع اللغة ثانية أو ثالثة (الكتابة الأبجدية: إلغاء الصورة أو المعنى, الانتقال ن الكتابة التصويرية إلى الكتابة الصوتية) واليوناني الذي أكمل الشوط بفصله الوحدة الصوتية إلى صائتة وساكنة لا «وجود» لأي منهما, وليس فقط السومري الذي اخترع الدولاب «معلناً» (عملياً) مبدأ وحدة الدائرة والخط المستقيم (الدولاب يدور, العربة أو السيارة تتقدم). هذا المبدأ الذي سوف يعنه نظرياً نقول دوكزا وجوردانو بونو في مطلع الأزمنة الحديقة, الخ الخ... بل أيضاً وأولاً وأولئك الذين «صنعوا» الثورة النيوليتية وعمروا القرى وأقاموا أسسا نهائية للحضارة. هؤلاء كأنهم قالوا لأنفسهم ذات يوم ـ يوم يمتد من الألف العاشر إلى الألف السادس قبل الميلاد ـ: منفعة؟ ثمة منفعة ومنفعة, مباشرة وبعيدة, ونمسك بالبعيدة. واقع؟ ثمة واقع مباشر و«واقع ـ وراء» هو مفتاح المباشر. هؤلاء انتقلوا. عبر مسارات متناقضة وتحت حكم ضروروات آنية متفرقة, من القطف إلى الزرع ومن الصيد إلى الرعي, من الأخذ والاتلاف إلى المكاثرة, من كهف إلى «بيت» ووطن وعالم مؤنس. هؤلاء جبروا وحبسوا وهندسوا, استوعوا وتوجدنوا ونطقوا.

يجب رد الاعتبار للإنسان الصانع والعاقل.

قبل أي «حديث».

-4-

المفهوم ليس الرمز

الكلمات تعبير عن فكر, مثل idees, مفاهيم (مطموسة صفحة 24), إنها ألفاظ, حدود termes.

إنها «مفردات» termes . المفردة اللغوية لييست كائناً مفرداً بل «عكسه». إنها تعبر عن كلي, عن عام. المفردة لغة كلية كائناً ـ هذا ما قلناه.

الكلمة تعبير عن فكرة ومعنى. بما أنها ليست شيئاً كائنا مفردا, لذا لها أكثر من معنى, من اتجاه, من قصد. المعنى المحدد محكوم بعلاقة الكلمة مع كلمات ولنقل مع مقابلات أو معارضات. المعنى المحدد يحدد سياق محدد, وهذا السياق لا سيتنفذ اتجاهات الكلمة التي يمكن أن تتخذ معنى مغايراً في سياق مغاير.

هكذا بشكل خاص الكلمات الكبرى, الفلسفية ـ الشعبية, من نوع شيء. عمل, واقعو فكر, وجود, مادة, قيمة, طبقة, شعب, ضرورة, جوهر, طبيعة, شكل, روح, عقل, حقيقة, الخ...

ثمة فرق وفروح بين لغة ولغة. هذا واضح, فيما يخص الكلمات الآنفة.

مع ذلك, فالقضية التي أكدنا ونؤكد عليها ليست قضية ألسنية (بين الألسن ـ اللغات) بل هي أولاً قضية لغوية ـ فلسفية: علاقة اللغة والفكر والواقع, اللغة كوسيط بين الفكر والواقع. مقولتي المعرفة الأوليين, واللغة بوصفها «مادة بناء matcriau الفكر» و«واقعه المباشر» أو حقيقته المباشرة والمحسوسة realiec immediate, كما يقول ماركس.

«لا فكر بدون لغة».

يمكن استناداً إلى هذه الأطروحة المادية أن أرفض دراسة الفكر كفكر وإقامة فكرة المنطق. هذا الرفض يمكن أن يتخذ ثلاثة أشكال:

الشكل الأول «ماركسي»: حقيقة أن «لا فكر بلا لغة» يمكن أن تعزز الاتجاه ضد الفكرية, ضد «المثالية», ضد التأمل النظري أو المضاربة النظرية speculation الهيغلية.

الشكل الثاني «عربي»: في التاريخ العربي, وقف صاحب النحو وردّ على صاحب المنطق: المنطق (أرسطو) هو علم نحو اللغة اليونانية ونحن لنا لغتنا وعلم نحوها! في هذا الكلام صواب صغير وباطل كبير, باطل جذري: رفض الفكر كفكر بذريعة ارتباطه باللغة.. العرب كان عندهم لغة أدبية قومية, أنشأوا علومها, ربما أعظم بناء من نوعه في تاريخ الحضارات الكبرى جميعاً. الغربيون كانوا في حالة مغايرة, بنوا فقهاً من نوع آخر, تقننوا في المنطق الشكلي, الارسطوطيلي السكولاستيكي, بنوا ما يمكن أن نسميه علم تفعيلات القياس الصحيح ضد القياس الفاسد. (قياس syllogism) قلنا «تفعيلات» على غرار تفعيلات العروض. مع فارق: ألفاظ تفعيلات القياس الصحيح أبعد أيضاً عن أي معنى, إنها الفاظ بربرية وعجمية تماماً, والمجموع بلا وزن أو موسيقى أو طرب. لكن يبقى فعل Erre ذو المعنى وهو الرابطة في الحكم الارسطوطيلي المبني على هذا الفعل العندو أوروبي مبدئياً. وقديماً قيل إن اللسان أحسن وأسوأ ما في الوجود. يمكن القول إن مذهب سحرية الكلام هو أقدم ضلال في سيرة بني آدم, وأثبت ضلاض. وهو يتخذ أشكالاً مختلفة في تاريخ الشعوب.

لا فكر بدون اللغة, ولا إنتاج ولا اجتماع بشري. إذن يعطى الكلام قيمة سحرية, تقدس اللغة, تؤقنم, تؤله: تُعزل وتضخم.

الشكل الثالث علمي حديث: إحلال علاقة الدال والمدلول محل علاقة الفكر والواقع, الاستغناء عن نظرية المعرفة باسم الألسنية.

هذه التضحية بالفلسفة لن تخدم عملية الخروج من «الرمزية والاشيائية» إلى «المفهومية والواقعية». هذا الخروج هو, في نظري, القضية الكبرى أمام الوعي العربي.

الوطن ليس العلَم و«أشياء». العلم رمز والأشياء يمكن أن تكون قبيحة.

الحزب ليس لافتة وثوابت ـ جمادات. في الوعي الزائف, «المعنى الحقيقي» ينحط إلى «جامد ذات» و«المعنى المجازي» خيال وعسف. ضد هذه الحالة , أقول:

إما الرمزية الشيئية وإما المفهومية الواقعية.

«عنصران» elements. بالمعنى الذي يقول فيه الفرنسيون أو غيرهم: الماء عنصر السمك, العنصر الذي يعيش فيه ومنه السمك. بالمعنى الذي يقول فيه هيغل: المطلق عنصر الفلسفة. بالمعنى الذي يقال فيه: في وقت من الأوقات, غير الاغريق عنصرهم, انتقلوا من البر إلى البحر.

علينا الآن مغادرة العنصر اليابس.

المفهومية الواقعية هي التي تعطي الرموز والأشياء حقها. هي التي تصل إلى «طبيعة الأشياء» وهي التي تنصر «الأشياء» ضد «الكلمات».

«شيء» من أصعب الكلمات. الفرنسيون يقولون chose, والإنكليز thing. العرب عندهم «شيء» و«أمر». الألمان عندهم Ding (معنى مادي أو صغير) و Sache (الشيء ـ القضية, الحالة): في الحرب, الوسائل ليست أشياء, والحرب كلها شيء, شيء ـ قضية, شيء عظيم. هكذا لغة كلاوسيفيتس مترجمة إلى العربية... إذا قلت «طبيعة الأشياء» مفضلاً إياها على طبيعة الأمور فإن هذا التفضيل يمكن أن يكون من قبلي تأكيداً على الموضوعية: الواقع كله خارج رأسي, «الأشياء» لها طبيعة ولها منطق ولها حياة. المنطق منطقها هي أولاً ! وهو صلابتها الحقيقية ! هنا تخطينا «الأغراض» (طاولة, كرسي) إلى المجتمع مثلاً!...

اللاتينية res (شيء) أعطت realite, reel das Reale الخ (= الواقع). وأعطت من جهة أخرى ses publica ← republique (الشيء العام, قضية الجمهور ← الجمهورية). يمكن أن يُكتب تاريخ الفكر كبسط لهذا اللحن ولهذه القضية: شيء؟ واقع؟ من بدايات الإنسان العاقل حتى نظرية النسبية: ذرات / فراغ؟ هذا خطر... مادة / شكل؟ هذا خط ثان.. فيزياء, تاريخ, علم اقتصاد...

«الواقع» كلمة, فكرة, مفهوم فلسفي. هذا المفهوم ضُيع في الماركسية السائدة. ستالين قسم الواقع سلفاً, في ذهنه, إلى «طبيعة» و«مجتمع», مقولتين ـ صنفين, بينهما علاقات واهية. نقل في الصفحة الأولى من كتابه نصاً مهماً لماركس (المعارضة ماركس / هيغل) برزت فيه الكلمة «واقع» وقوتها. ضيع الهوية «واقع» والتقابل واقع / فكر أو فكر / واقع. فالهوية «واقع» قائمة في هذا التقابل الذي ليس تقابل كرسي وطاولة في غرفة, بل تقابل مفهومين أوليين في المعرفة الواعية: الفكر المقصود هنا هو فكري أنا فيما إذا كنت قد حزمت أمري على عملية معرفة ومسار معرفة. وتجاهي, إن أفكار الناس وعواطفهم وأوهامهم تدخل جميعاً «الواقع» القائم بتمامه خارج الرأس العارف أو الفاكر. وإذا ما لجأت, في مسار المعرفة, إلى مخبر مادي كبير فهذا المحير المادي الكبير إن هو مبدئياً إلا امتداد للرأس ويقع تحت مقولة الفكر التي وردت في المبدأ: فكر / واقع.

يمكن القول إن الواقع والطبيعة والكينونة مضحى بهن, كمفاهيم إن ليس ككلمات, لصالح المادة, الرمز والعلم والعنوان, الأداة السحرية, المخدة التي يرتاح عليها الرأس. ضد أي «التباس» ودرءاً لأي تساؤل تعطى «إيضاحات»» أو تأكيدات من نوع: «الكينونة المادية, الواقع المادي». هذا النغم يسلطن في العقل الماركسي العام الذي لا يرى أن «الوقع» و«الطبيعة» و«الكينونة» لها, في المعرفة ونظيرتها, في الفلسفة الماركسية وفي اللسان الشعبي, وبصرف النظر عن أية تفاصيل, وظائف أخرى. ولا تستطيع «المادة» أن تنوب عنها بأي حال! وهذه الحال الماركسية العمة لا تساعد الفكر العربي والوعي العربي على الخروج من الرمزية الشيئية والانتقال إلى فكر الواقع.

المفهوم ليس الرمز في الوعي الصاحي, الرمز بديل يعي نفسه كبديل في الوعي الزائف, الرمز بديل حاذف.

كشرح للخيار: «شيئية ورمزية» أم «مفهومية وواقعية»؟, لا بأس من مثال افتراضي استوحيه من درس حساب في الصف الأول الابتدائي.

موضوع الدرس العدد أربعة (حسب البرامج القديمة). أنا معلم الصف. معي 4 بالونات, 4 برتقالات الخ, وأقلام. أعرض « وسائل الإيضاح». أشرح. أسأل... أخيراً, أكتب على السبورة 4, 4, صغيرة, كبيرة, بالأبيض, بالأصفر, بالأحمر.

يبدأ الخطأ حين أعتقد (وقد أقول!) إن 4 هذه هي المجرد وهي المفهوم. وأن التفاحات الأربع والبالونات الأربع هي المحسوس وهي الواقع...

التباسات, وفي الحاصل باطل أساسي في الوعي.

«4» محسوسة تماماً: نراها على السبورة, نستطيع إن نلمسها, إن نذوقها. باختصار إنها رمز, رمز للمفهوم أربعة, رمز واصطلاح, إشارة متفق عليها. وهذا الرمز الاصطلاحي, بل العسفي أو الاعتباطي, يمكن أن يكون 4, وهو كذلك في العالم بما فيه بلدان المغرب العربي (8),

وهو IV في الأرقام الرومانية. إنه 4 أو 4 بموجب نظام الكتابة الرياضية العشري المعتمد على المجموعات 10^3 ,10^2 ,10^1 ,10^0 الخ. وهو يختلف بموجب اختلاف الأنظمة, مثلاً في نظام الترقيم الاثني (المعتمد على المجموعات 2^3 ,2^2 ,2^1 ,2^0, الخ) يكون 100 (واحد وصفر وصفر) وهذه الـ 100 تكون هي المفهوم أربعة والحقيقة أربعة. وهذا النظام الأثيني هو المعتمد اليوم في كل المعلوماتية الحديثة (يمكن القول إنه يجد تبريره «الفلسفي» في الثنائية: صواب / خطأ). فهو نظام حديث جداً, لكنه أيضاً قديم وبدائي [5]!

المفهوم أربعة لا يمكن أن يكون على السبورة أين هو؟

إنه «في الرأس», وكيانه خارج الرأس ـ في الواقع ـ لا ينحصر بتاتاً في أربعات الأشياء. فهو أيضاً كل علاقة رباعية «ممكنة» في الكون. الثلاثة مثلاً بنت علم المثلثات irigonometrie. بفضلها وفضله نعرف المسافات بين الكواكب... و«كل ما هو واقعي فهو عقلي, وكل ما هو عقلي فهو واقعي» (هيغل).

إذا سألني التلاميذ (ربما في صف عال) أين المفهوم أربعة, أي الحقيقة والهوية أربعة؟ يجب كإجابة أن أؤشر اشارتين: الأولى إلى الرأس, والثانية إلى الخارج, لا على التعيين, في الهواء (اضافة إلى تأشيري على الأربع تفاحات).

كذلك الحرارة, المفهوم العملي, علم الفيزياء: أين الطاولة؟ أين النافذة؟ ـ اشارة معينة نحو الشيء المادي... ثم: بدُك حارة, كذلك يدي, ألمس البلاطة (أرض الغرفة): إنها باردة! هل لها حرارة؟ ـ نعم! ـ أين الحرارة؟ ـ اشارة إلى الخارج, «لا على التعيين» (في كل مكان, كل الأشياء). الحرارة حار وبارد. هكذا المفهوم العلمي. إنه يتخطى الفكرة «المباشرة». «الحرارة حار وبارد» كيف واحد, جوهر واحد, لا جوهر... إنه (ضد تفكير أوغست كونت) قابل للتقليص rductible, وهو يُقلص ويُقهر reduction, يحوّل إلى «شيء» آخر في المعرفة العلمية الفيزيائية (حركة, كتيلات, تكاتل...). مفهوم الحرارة غير فكرة أو مفهوم الطاولة.

الكلمة العربية «مفهوم» مشتقة من الفهم الذي هو فهم الإنسان.. هذا جيد شرط أن نؤكد قابلية الفهم: أنا أفهم لأن الواقع قابل لأن يُفهم. بتعبير آخر, يجب التحذير من الايحاء الذاتوي للكلمة, يجب الاعتراض على مثنوية لغوية فكرية شائعة تساوي بين المحسوس والموضوعي وتساوي بين المفهوم والذاتي.

هذا الباطل «متضمن» في اللغة المتداولة, في التعليم المدرسي, و... يمكن أن يبرز فلسفياً في كتاب «مبادئ الماركسية اللينية» بواسطة جمل ملتبسة.

مثلاً: «الفكر (idees المثُل), المفاهيم, ليس لها وجود إلا n'existent que في الفكر البشري». جملة ملتبسة («وجود»؟؟), أو في أحسن حال, كما سنرى, «كلمة حق أريد بها باطل», حاصلها العام باطل كبير, سقوط الجدل!

ونتابع القراءة: «المفاهيم concepis تعكس الخصائص والملامح العامة للعالم المادي». «المفاهيم»!, الكتاب استغنى الآن عن «idees», فكر, مُثل, أكتفي بكلمة «المفاهيم», فهو يجب «علمية المفهوم» ويجب المادية الفلسفية ويكره مثل أفلاطون. ونتابع القراءة: «هكذا مثلاً مفاهيم (هنا notion: مفاهيم, فكر, مصطلحات؟) الإنسان, المجتمع, الاشتراكية, الأمة, الخ». نسي الحصان, البيت, الطاولة!, لينين 1914-1916 محذوف.

«المفاهيم تعكس الملامح العامة للعالم المادي». «تعكس» relletent: ما معنى تعكس, انعكاس reflel؟ وأحد الأمثلة المذكورة هو «الاشتراكية»!! «الاشتراكية» تعكس؟ تعكس الخصائص أو الملامح العامة للواقع المادي, للمجتمع السوفياتي؟ ـ الاشتراكية مفهوم موجود في رأس ماركس وغيره وملايين من البشر قبل الواقع المادي الاشتراكي بكثير إذن: «تعكس» ملتبسة, وهي, في هذا العرض وفي كل هذا الكتاب, باطلة. الفكر الذي هو انعكاس ومحض انعكاس ليس الفكر.

الفكر انعكاس ـ استباق (anticipation). هكذا الفكر البشري كله, بدءاً من الصورة التي في رأس النجار والتي ترشد عمله وينفذها خارج رأسه فيجعلها واقعاً مادياً, وصولاً إلى الاشتراكية, النظرية الكبيرة جداً. فكرة الاستباق صريحة في مفهوم الشغل عند ماركس, وكلمة «استباق» واردة

مراراً في نصوص ماركي, والفكرة مؤكدة عليها عند لينين مع انماءات شتى. لكن الماركسية المكرسة تترك الفكرة والكلمة anticipation لـ... برغسون و«الطاقة الروحية» مثلاً. والمثقف العربي المحب للاستباق يركضض إليهما: برغسون والطاقة الروحية...

الكتاب هو كتاب «مبادئ الماركسية اللينية», كتاب ضخم. تأليف عشرة من المفكرين السوفييت, بإشراف عضو القيادة الرفيق كوزينن, الفصل الأول. الفقرة 6. خصوم المادية الفلسفية, المقطع: «المثالية الموضوعية», ص 30-31 (موسكو, طبعة فرنسية, 1964)... باختصار, «المثالية الموضوعية» حماقة كبيرة, تفاهة!

«المفاهيم تعكس الخصائص والسمات العامة للعالم المادي»: هذا «عقل سليم», وهو استدراك لما سبق. المثل ليس لها وجود إلا في الفكر البشري, لكن: الواقع نفسه له سمات عامة.

ـ هل له «شيء آخر» يفلت من أسر هذه «التلحيقة»؟ هل له خاص ليس عاماً؟ هل له مواد وجواهر؟

الماركسية السوفياتية تجيب: نعم, على سؤال لا تطرحه. هكذا «العقل السليم».

الجدل: عقل وحسب؛ وعند اللزوم وبشكل مبدئي, العقل ضد «العقل السليم».

المفهوم فكرة, مثال idee, من «الطاولة» وصولاً إلى «المادة», «القيمة», «الاشتراكية».

هل المفهوم صورة؟ المفهوم صورة من نوع خاص. في الوعي العربي تضافرت الماركسية والتراث والعقل السليم على البقاء عن «الصورة».

فكرة المفهوم تتلازم مع فكرة الشكل forme, المتقدمة تجريدياً على فكرة الصورة. وترتبط بفكرة الحد اليونانية (والعربية أيضاً): حد, تحديد, نهاية, ... وبفكرة القطع. فكرة الشكل الفلسفية تتضمن فكرة القطع والفطعية والفعلية. (بالفرنسية: ordre formel تعني «أمر قطعي» وليس «أمر شكلي»).

فكرة الشكل, في الاستعمال اللغوي, مزدوجة ازدواجاً جيداً إذا وعيناه: قضية شكلية, قضية لا شكل لها. وهذا الازدواج قائم مبدئياً في العربية والفرنسية الخ, رغم الاختلافات العديدة.

في الماركسية السائدة, الزوج أو الثنائي «مضمون وشكل» ألغى الثنائي «مادة / شكل». في الزوج الأول تخفيض للشكل لصالح المضمون أو المحتوى, ويصير هذا الزوج كأنه الجوهر والسطح, أو الجوهر والقشرة. نبقى إذن في الوجودية المحسوسية. بالضبط, ليس الزوج الارسطوي هكذا بتاتاً: لا موجود ولا واقع بلا مادة, لكن المادة بلا شكل سديم وخواء, المادة بلا الشكل عدم, العدم.

كلمة شكل مصطلح لم يضبط في واقعنا اللغوي, فكرة الشكل forme الخطيرة الأهمية متسببة في الاستعمال ومع الاستعمال: «فنون تشكيلية» plastiques, «تشكيل رياضي» composition الخ. هذا لا يساعد في الاتجاه الضروري: الشكل ـ المفهوم ـ الحد, نبقى في الشكل الحسي, الصورة.. بعض الماركسيين يترجمون forme «صورة» ويركبون على «التشكيل» أو «التشكيلة» formation الاقتصادية الاجتماعية بآن معاً!

كتاب الرياضيات المدرسي قد يُعرّف المستطيل بأنه «شكل هندسي الخ», ثم يقول «انظر الشكل رقم 2». هذا تضييع للمفهوم, لفلفة للمفهومية. الشكل رقم 2 هو بالأصح صورة أو رسمة figure. «الشكل الهندسي» موضوع التعريف مثال idee لا يُرى, كلية لا تقع تحت البصر, إنه مفهوم رياضي.

هذه قضية أرسطو؟ أرسطو, هيغل, ماركس, العقلانية كلها؟

القضية تبدأ من أفلاطون.

في مكان سابق من الكتاب السوفياتي المذكور آنفا, عرّف المؤلفون (في نصف سطر) مذهب أفلاطون بأنه مذهب الـ «idees ou forms», وعبّروا, مرّوا مرور الكرام الماديين «الفلسفيين»! أهملوا «الترادف»!

الكلمة اليونانية الشعبية ideos أو idos قريبة من قولنا الشعبي «كَسم»... والعبارة الفرنسية التي نقلناها عن الكتاب السوفياتي يمكن أن تترجم كما يلي: «فكر, مثُل ـ أو ـ صور, أشكال».

والمسألة الفكرية النظرية هي هنا! إنها بمصطلحاتنا العربية عند هوية وفرق هذه الكلمات: صورة؟ شكل؟؟ فكرة؟ مثال؟ معنى... وأيضاً مثل أعلى؟

فالمسألة هي أيضاً مسألة العمل الإنساني, عمل النجار مثلاً. النجار يعطي المادة (الخشب) صورة أو شكلاً. وهكذا يصنع شيئاً, يخلق واقعاً جيديداً له معقولية مع جملة الواقع.

الفكر انعكاس ـ استباق. لأن الإنسان بمجرد مفهومياً, أي يعمل (واعياً أو غير واع ذلك) بالمفاهيم, الفكر, المثُل, أي «بشيء ما» يتخطى المعنى المباشر لفكرة الصورة والانعكاس. واللغة, جهاز الإشارة الثاني والخاص بالإنسان حسب بافلوف, لها هذا التخطي كوظيفة.

العمل, الشغل, مقلاً عمل الحذاء, يتضمن الفكر (الصورة, التصور, التصميم) كتعين لازم في كل عمل. هذا هو فرقه عن عمل العنكبوت أو النحلة, حسب ماركس [15]. الإنسان, قبل التنفيذ, يتصور, يصمم coneeption تعي «تصور بالمفاهيم».

Forme: شكل [11]-؛ formation: تشكل, تشكيل (وتكوّن!)؛ information إعلام (إعطاء الشكل, غير المشكول هو المعجم, غير المعرب)؛ transfotmation: تحول (الانتقال من حال إلى حال, تغير الشكل أو تجاوز الشكل السابق). والتاريخ تغير الأشكال, بل ـ حسب قول لماركس ـ «تنويعة على الأشكال», variation sur les forms. إذا حللنا العالم إلى عناصر أخيرة, إلى مادة, يتساوى وينعدم. هذه ليست مسألة وجودية وأونطولوجية وجمالية, بل قضية معرفية.

إذا ميزنا, وراء إرنست بلوخ أو بوحي منه [12], خطين كبيرين في تاريخ الفكر والعلم والعلوم, أحدهما خط الشكل (أرسطو: المادة / الشكل) والآخر خط الذرة (ذرات / فراغ), أمكننا القول إن ماركس (رأس المال) على خط أرسطو.

الخطان بعيدان عن المعنى الحالي لكلمات عربية محببة: جوهر, ماهية, مادة, روح.

فكرة الصورة تقيم مادية نظرية المعرفة: وحدها فكرة الشكل تؤسس جدلية نظرية المعرفة.

-5-

الواقع ليس المادة

الواقع والمادة, عدا عن كونهما كلمتين تتخذان شتى المعاني في الاستعمال اليومي [13], مع اختلافات صغيرة أو كبيرة بين لغة وأخرى الخ, هما مفهومان نظريان مختلفان, بل وفي اعتقادي متعارضان, وأريد إقامة معارضتهما وتسويغ جدوى هذه المعارضة وضرورتها النظرية والعملية.

أترك تاريخ الفلسفة والمصطلحات: متى ظهرت هذه الكلمة وتلك, كيف تطورت هذه الفكرة وتلك.

مبدئياً, أترك أيضاً علم الفيزياء وإشكاليته العلمية والفلسفية في القرن العشرين. أكتفي هنا بالاشارة إلى أن غطس الفلسفة الماركسية «المادية» في هذا الموضوع كان باطلاً بالمعنيين: كغطس وكنتائج وأحكام. وبهذه المناسبة, لابد من نقل قول يستحق الشهرة: «المادة, كمادة, محض إبداع من الفكر وتجريد خالص».

ليس قائل هذا القول هو الأسقف بركلي بل الرفيق إنجلز, في جدل الطبيعة. بحذف المواد, الاختلافات, الكيفات, يبقي المادة ـ الكم. هكذا مادية الثرن الثامن عشر التي يمكن أن أدعوها «المادية الفيزيقية» والتي هي, حسب إنجلز, انتكاس إلى مذهب المثالية الكمية الفيثاغوري.

لنق: «المادة» مفهوم, وكل مفهوم هو مدحلة تسوية, والمفهوم الكبير ـ المادة ـ مدحلة تسوية تامة. كذلك, من جهة أخرى, مفهوم القيمة, مفتاح الاقتصاد السياسي. القيمة علاقة مساواة بين السلع الأشد اختلافاً. القيمة (القيمة التبادلية أو القيمة محضض) هي, مثلاً, إعلان أن «علب الدهان» وقصراً جميلاً في شارع أكسفورد ستربت هما واحد (المثال من ماركس, في مقدمة نقد الاقتصاد السياسي). مساوتان مختلفتان: الأولى ـ المادة ـ لا يمكن أن تكون, في وعي صاح, أكثر من إعلان أولي لحقيقة أن العالم قائم خارج رأسنا وأن أدراكي المباشر له هو ادراكي له كأشياء كائنة, بدون مصادرات (مسلمات) اضافية, ضمنية, لا تسويغ لها. في الماركسية كما انحدرت: مسلمة المادية (مادية العالم) أكلت مسلمة المعقولية (معقولية العالم)؛ العالم أشياء ثم بربط: «قوانين».

بعد هذا الاستطراد الطويل, الذي ليس محضض استطراد كما سيرى القارئ, أدخل القضية: الواقع ليس المادة, مفهوم المادة أياً كان محتواه لا يمكن أن ينوب عن مفهوم الواقع. وكل معرفة الواقع تسقط إذا ما سمح لفكرة «المادة» أو ما شابهها بأن تبسط نفسها على فكرة «الواقع».

الواقع كفكرة لا ينحل في الواقع الفيزيقي. المادة فكرة فيزيقية وفيزيائية. الواقع فكرة مجتمع وعالم وانتاج وطبيعة وتاريخ.

الإيضاح الذي أقدمه لا علاقة له بعلم الفيزياء, إنه مثال من التاريخ.

القرن السادس عشر يشهد انقلاباً كبيراً: النهضة, الطباعة, الاكتشافات الكبرى والاستعمار الأوروبي, الإصلاح البروتستانتي, كوبرنيك وفيزال, ايراسم وماكيافيلي, توماس مور وتوماس منتسر, جوردانو برونو وباكوب بوهم, الأمم ولغاتها وآدابها ومصائرها, و... ثورة الاسعار.

ثورة الأسعار, التضخم النقدي, تدفق المعدن الثمين (ذهب، فضة) على أوروبا والبحر المتوسط. «ناس» يثرون و«ناس» يفقرون... الامبراطورية العثمانية قائمة فوق ثلاث قارات, اهترفت أوروبا إلى ما وراء الدانوب وإلى شمال البحر الأسود وامبراطورية اسبانيا لا تغيب عنها الشمس.

المصائر التالية للدول والأمم معروفة, «نسبياً».

أريد النظر في جانب من آلية صعود البعض وانحدار البعض.

افترض, في سنة من سنوات ذلك العصر (ق16), رجلاً يعيش في مدريد أو لندن أو اسطمبول أو القاهرة, لا فرق, يملك ثلاثة كيلوغرامات من الذهب. وبعد ربع قرن أصبح يملك خمسة كيلوغرامات.

ماله, ملكه زاد. لكن القدرة الشرائية لهذا الملك أو المال انخفضت (بسبب تقدم انتاجية الذهب, بسبب وفرة الذهب المعدن, الخ). إنه «خسر». هل هو يدرك أنه خسر؟ ربما الجواب: نعم ولا. ربما هناك اليوم من يقول إنه ربح... لكن القضية ليست هنا. ليست القضية ما يقال, أو «الرأي» l'opinion. بل هي «الحقيقة» كما يقول الأقدمون! ما معنى «مال» و«ملك»؟

ما هذه «القدرة الشرائية»؟ هل هي قدرة سحرية موجودة في عمق مادة الذهب أو الفضة؟ يمكن أن نقول: إنها القيمة, قيمة الذهب المنتوج ـ السلعة (مصطلح ماركس وآدم سميث وربما أرسطو), أي القيمة التبادلية. لكن, سواء على جسر مفهوم القيمة العلمي ـ الاقتصادي أو بدون هذا الجسر, فإن «القدرة الشرائية» لمال يملكه رجل أو شركة أو دولة تحيلنا على فكرة العلاقة: علاقة هذا المنتوج بكل المنتوجات في العالم الاقتصادي, علاقة التساوي الكلية ـ الكونية.

المذهب المركانتيلي هو بالأصل والأساس (ق16) عبادة المعدن الثمين, العقيدة التي مفادها أن الثروة هي الذهب والفضة. الإسبان, الفرنسيون. الانكليز الخ هذه عقيدتهم. فيما بعد (قرن 17), يُطوّر هذا المذهب (إلى مذهب صناعة وتصدير, تجارة شركات مونوبول حكومي)... وأخيراً (ق18) يُنسف. تنسفه الفيزيوقراطية (حكم الطبيعة, العمل الزراعي, حرية العمل والتبادل), ثم ينسفه نهائياً آدم سميث (كلية العمل المجردة, العمل كمحض فاعلية ذاتية, العمل بدون موضوعاته المادية, إذن «العمل» من فوق أصناف العمل كموقع أول في الفكر العارف). ورغم أن المركانتيلية المطورة (صناعة وتصدير وسياسة) استمرت طويلاً, فقد كان وزير الملك هنري الرابع (حوالي سنة 1600) قد أطلق شعاراً حفظه وأبرزه التاريخ المدرس الفرنسي: «الفلح والرعي هما الثديان اللذان يُطعمان فرنسا, هما مناجم ذهب البيرو الحقيقية».. وقبل آدم سميث والفيزيوقراطيين, صدرت مئات الكتب من نوع «فوائد زراعة القمح» (وماركس قرأها, بدأ بقراءتها في شبابه بعد دراسته الفلسفة, قبل التفكير بالثورة البروليتارية).

العثمانيون (وكذلك الاسبان) كانوا بعيدين عن هكذا موقف. ولست في مقاضاة العثمانيين وتاريخنا والأجيال الماضية. بل المهم مقاضاة فهمتها الحاضر لتاريخنا الماضي. فهذا الفهم حاضضر وراهن وفاعل, ولعله فلسفة عميقة في ضلالها.

ما يجب أن يُدان أولاً ودائماً, من فوق الحكام والشعوب وأحقاب التاريخ, هو: ولنية الروح, شيئية المعرفة, مركانتيلية الاجتماع.

تجارة؟ commcrce؟ الكلمة لها معنيان اثنان ممكنان في الواقع والفكر والروح: أ ـ معنى عادي ركيك mercanti, بيع وشراء ونهب تجاري, «ربا». ب ـ معنى كبير: الـ commerce بين البشر هو التبادل بين البشر, التعامل, الاجتماع, الكينونة الاجتماعية. المجتمع عمل وتعامل. كذلك الأخلاق: ضمير (وجدان) عمل وتعامل, ميدان «العقل العملي» حسب الفيلسوف كنط.

العثمانيون لم يكونوا ضد التجارة بالمعنى أ. كانوا بعيدين عنها بالمعنى ب. هذا المعنى الكبير يبرز في القرن الثامن عشر الأوروبي (مع مفهوم «المجتمع المدني», مع الفصل مجتمع / دولة = كينونة البشر / الولاية على البشر), ولكن بذرته موجودة في أحقاب سابقة, في أصقاع شتى وتحت سماوات شتى.

بعد ذلك, أقول بمفردات «علم الاقتصاد»: العثمانيون كانوا مع التجارة لكنهم كانوا ضد «اقتصاد السوق» ضد سلطان «القيمة».

فكرة «المال» مزدوجة [14], فكرة الملك أو الملكية كذلك. هذا الازدواج الثنائي ليس قائماً في رأسي ورأسك فقط (حين نعيه!) بل في رأس العالم, في منطق الواقع نهود إلى صاحبنا كانز ومني الذهب في الفرن السادس عشر.

ثمة جهتان في ماله أو ملكه.

الأولى مادة, كتلة, وزن, كمّ, صلابة, ثبات, عزل. مادة مادية جداً: يمكن بسبيكة ذهبية قتل رجل بضربة واحدة.

القانية «شيء آخر»: علاقة, معقولية, موصولية مع العالم, مع الانتاج, مع جملة العمل والتعامل, كينونة حرة, صيرورة, واختفاء الذهب ـ المادة.

في الأول + (زيادة).

في الثانية – (نقصان).

أيهما الواقع؟ أين الفعلي؟ الواقعي, الحقيقي.

إن «المعنى الحقيقي» في مثالنا الآنف ليس الـ «جامد ذات» ولا هو «المعنى المجازي».

مذهب وجود الأشياء أو المادة, ومذهب وجودها والملائكة والشياطين, كلاهما يضيعان الواقع بتضيعها المنطق.

هذه قصة من القرن السادس عشر... يمكن أن تكون قصة اليوم.

نمسك الطاولة ونقول «مادّة», نمسك البندقية ونقول «ثورة», نعبد الذهب ونبلع النفط: «ثورة».

في جهة المادة ـ الكتلة ـ الكمّ نحن شيء. وفي الجهة الثانية ـ شكل, عقل, روح ← واقع, راهن, ذاتية ـ نحن شيء آخر:

فكرة المادة هي أيضاً فكرة الذرة والذرات والتذرر!

_____ الشرح _____

1ـ موقع الشخصي: الماركسية, الفكر العربي, وعملي كمدرس

العتقن أن قضية التعليم بالغة الخطورة... وأعتبر نفس مديناً بالكثير الكثير (؟) في هذه المهنة؟ لا سيما كمدرس (؟؟؟) الابدائية باللاذقية.

2ـ من الأفغاني ومحمد عبده ان رشيد رضا إلى سيد قطب إلى الحاضر. رغم (؟) ورغم وجود خط معاكس قامس أمين علي عبد الرزاق, طه حسين... خالد محمد خالد.

3ـ الرأس (؟) مقولة عامة (ماركس. هيغل. فويرباخ). وليس المقصود الجمجمة ولا الدماغ أو المخ المادي.

بل المقصود الرأس / العالم (خارج الرأس). المقصود الفكر. أي الفكر الذي حزم أمره وقرر بدء مسيرة المعرفة «الرأس» في ملية المعرفة صفر حامل اللانهاية.

4ـ سيد قطب. في التصور الإسلام. لا يذكر الفلسفة والفلاسفة إلا سلبياً. ولا يستخدم الوصف (؟) عن التصور الإسالمي» حتى حين السباق يدفه تلقائياً إلى استخدام هذا الوصف.

5- بكره المجردات, أي بالحقيقة يرفض الكليات الكبرى, ولا يعي فعلياً إن كل «الكلمات» هي مجردات, ولا سيما مفاهيم العلوم والقوانين العلمية.

مثلاً. أوغست كونت يعلن «عدم» sulhte جميع نظريات الضوء, ولا سيما نظرية نيوتن, يؤمج أن كل «هذه التصورات المناهضة للمعرفة العلمية قديمة جدرياً»... «رغم كل الافتراضات (؟) إن الظاهرات الضوئية ستكون على الدوام صنفاً قائماً بذاته, مقولة من جنس ذاتها (؟), ولا يمكن تقليص أو تحويل هذه المقولة إلى أية مقولة أخرى أو صنف آخر: أي ضوءاً (unelumkre, أو: إن الضوء؟ عمل بالمفاهيم أم لا؟) سيكون إلى الابد (؟؟) لحركة «أو لصوت» (كونت «دروس الفلسفة الوضعية أو الايجابية, الدرس الثالث والثلاثون. ج2).

4- اين تقع الفلسفة العربية الاسلامية في اشكالية الصورة, الشكل, المفهوم؟ لعل هذا هو السؤال الأهم. السؤال المركزي هنا مسألة الجدل لا مسألة «النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية» (كتاب حسين مروة...).

في عصر النهضة (ق15 - 16). أوروبا تعود إلى أفلاطون. إلى بارمنيد الخ. من فوق الخلائط النقديمة.

7- لو كانت أوروبا (؟) (منذ القرن الثامن مثلاً) هل كان سيتغير المسار الأوروبي؟ أسرع؟ أبطأ؟ شكل آخر؟

لا يجوز تضخيم دور «الدين» في التاريخ تفسير التاريخ ب« المثالية الدينية». تحويل الدين إلى سحر الدين, كعامل في الدنيا وثانياً. إن الركائز اللاهوتية المسيحية التي أشرنا إليها في متن النص والتي انتقلت من الخلفية اللاهوتية إلى المصدراة الفلسفية. بجهد وصراع طويلين. موجودة في العقيدة الاسلامية. صريحة في الفرآن والحديث.

9- ولا يزال المشرق يتحرى مسألة عروبة الـ4. علماً بأنه وصل مراراً إلى: نعم, بدون أن (؟) الأرقام التي يسميها العالم «عربية» (والتي هي على الأرجح هندية, عربية , أوروبية, وربما أولاً فيتنامية..) ضرورية لمشرق. النقطة للصفر: غير معقول! وذلك لأسباب مشهورة - وأيضاً لهذا السبب: يجب فصل الرمز والمفهوم, فصل «الرقم» و«العدد». ابراز الصفر جيداً, جعله كتاباً بحجم الـ 1, 2, 3, ...9, فصل المصطلح الكتاب عن الحقيقة. علماً بأن هذه الحقيقة (الصفر) ليست صغيرة أبداً!

9- من المفيد, في سبيل فصل فكرتي المفهوم والرمز, وتعزيز فكرة المفهوم, إدخال دروس نظرية عن أنظمة الترقيم يجب أن يتعلم طلابنا أن الأربعة تكتب 4, 100, 11 بموجب نظام الكتابة المعتمد, أي أن الأربعة كمفهوم وكحقيقة ليست أياً من هذه «الصور».

15- رأس المال, الكتاب الأول, ج 1, الباب الثالث (انتاج فضل - القيمة المطلق), الفصل السابع, القفزة الأولى (إنتاج القيم الانتفاعية). ص180 - 181, في طبعة (؟) باريس 189.

إليكم هذا النص الذي يمكن اعتباره «تعريف» ماركس للعمل - الشغل - الكدح (؟)

«الشغل هو, من الواجهة الأولى, فعل يتم بين الإنسان والطبيعة, الإنسان يلعب فيه هو نفسه ازاء الطبيعة دوراستطاعة (قوة ؟) طبيعة. القوى (؟) التي يتمتع بها جسمه - ذراعان ورجلان, رأس ويدان - يحركها الشغيل بغية تملك مواد معطيا اياها شكلاً (؟) لحياته. وهو في الوقت نفسه مع فعله بهذه الحركة على الطبيعة الخارجية وتغيره لها. بغير (يعدل) طبيعته ذاتها ويبسط الملكات (القدرات) الراقدة فيها. لن نتوقف عند هذه الحالة الأولى للشغل حيث لم يقلع بعد (؟؟؟) نقطة انطلاقنا هي الشغل في شكل ينتمي للإنسان حصراً. فالعنكبوت يقوم بعمليات تشبه عمليات الحائك. والنحلة (؟) خلاياها الشمعية العديد من المعماريين الماهرين. لكن ما يميز, ومن النظرة الأولى, أسوأ معماري غن أمهر نحلة هو (؟؟؟) الخلية في رأسه أولاً قبل أن يبنيها في المنحلة. النتيجة التي إليها ينتهي الشغل موجودة - مسبقاً (؟) مثالياً ((؟) , فكرياً وفكرتياً) في مخيلة (؟ خيال, تصور) الشغيل. فهو ليس فقط يحقق تغيير شكل في المواد التطبيعية, بل إنه بالضربة عينها يحقق (يوقع, يوقعن ؟) هدفه الخاص الذي هو يعيه. الهدف الذي يحدد (بعين ؟) نمط فعله (طريقة عمله ؟) قانوناً, والذي يجب أن يخضع له ارادته. وهذا الاخضاع ليس مؤلقتاً. فالعمل يشترط, طيلة ؟ عدا

عن جهد الأعضاء التي تفعل. انتباها معززاً, وهذا الانتباه لا يمكن أن ينجم إلا عن توتر دائم للارادة..».

هذا «العريف» للشغل, هذا المنظر على الشغل, بذرة أو نواة أكاد أقول أنها نضم كل مقولات الفلسفة الماركسية معملاً بها كمفاهيم لا ككلمات تعتقد أنا تعبر عن لطمات مادية في عالم الامتداد. مثلا: العلاقة إنسان / طبيعة ليست علاقة طاولة أمامها كرسي في غرفة. المفهوم ليس جزءاً ـ مادة, المفهوم قطع ـ شكل.

11- يجب التخلي عن ترجمتها صورة. ويجب الانتقال من فكرة الصورة إلى فكرة الشكلي. وإلا فإن كل الحب العربي لـ «المفهوم» يذهب.

12- أرنست بلوخ. ؟ عصر النهضة, دار الحقيقة.

13- أحد استعمالات كلمة «مادة» المادة بمعنى المال, العملة, النقد, الفلوس. هذا استعمال جيد, شرط أن يرعى. كلاهما ـ «المادة» و«المال» ـ تجريد, «تسوية» كبيرة, عادمة للفروق, لا مبالية. كلاهما كم... وكلهما يبين ؟ من جهة ثانية. لنلاحظ إن القرابة كبيرة بين مادة ؟؟

14- لا ننسى في العربية: ؟؟؟؟؟

المال كعدد, كم /و/ المال كمفهوم وخلافه, كيف, كائنية. هل زاد ماله, هل نقص؟ الاجابة ليست ؟.

العقل والعقلانية
ثلاثة معان ممكنة

مجلة الوحدة العدد 28 - 1986

1- «العقل»

في لغتنا المتداولة, كلمة «عقل» متواترة, ولا بوجه عام إيجابية. في القاموس السائد, وهو بطبيعة الحال وثني ومانوي إلى حد لا بأس به, تمثل كلمة «عقل» في باب آلهة الخير والنور والحق. وإن كانت تنطلق, بين حين وآخر, أصوات بالعكس: شبعنا عقلاً وعقلانية, نريد العاطفة والشعور والخيال والحل. أو أيضاً: العقل منقود في الغرب, الغرب نفسه بات يعترف بأن العقل انتهى... مع ذلك, ورغم هذه الأصوات, فالعقل كلمة إيجابية في مفردتنا اليومية والسياسية والفكرية, وإيجابية جداً في لغة المثقف التقدمي.

هذا بجانب الأمور الأكثر أساسية.

2- معقولية العالم

بادئ بدء, ثمة نوع من إجماع على أن العقل قائم في الإنسان ورأسه. وهذا صحيح ومعم, شرط أن يعني أن الإنسان هو الحيوان العاقل. و- كما تضيف الماركسية وآخرون كثيرون - هذا الههقل يرتبط بالعمل أو الشغل في الإنسان: الإنسان بد و«رأس», هذا ما قاله قديمون ووسطوين وحديثون.

غير أن هذا الموقف ناقص, من جهة أخرى, فـ« العقل» كلمة يجب أن تحيل مباشرة إلى الواقع, العالم, إلى هذا «المجموع» الذي خارج الرأس. ثمة للعالم عقل, معقولية, عقالة, ولذلك فثمة للإنسان عقل.

المسلمة الآنفة ضمنية؟ - يجب التصريح بها, وإلا فإن فكرة «العقل» تجنح سلفاً نحو الذاتوية (الذاتوية البشرية لفرد أو جماعة..). ضد هذه الذاتوية, من الأفضل أن نقول لأنفسنا: ما في رأسنا ليس العقل, بل الذهن, وهذا الذهن يصير عقلاً بقدر ما يقترب من عقل الواقع... وأن نضيف: صحيح أيضاً أنه يمكن أن يصير عقلاً مبيناً جداً, وضالاً, بابتعاده عن عقل الواقع و«محاكاته» للواقع واغترافه منه ما «يناسب» من قوانين ومفاهيم ومناهج وآليات الخ. وهذا يقودني فوراً إلى ما يأتي:

من, في نظره على الواقع, يمتنع عن العقل «بالجملة» أو في المبدأ وبريد استرجاعه «بالمفرق» أو «بالتجزئة», مهدد بأن يجعل الأجزاء التي اقتطعها تبريراً وأداة لعقل الذات الذاتوي.

الجدل - مذهب العقل - قائم على مسلمة أولية: للعالم عقل, للواقع منطق (ولذلك يوجد تاريخ). هذا المبدأ منبوذ في الماركسية المعروضة بوصفه مثالية, ومستعاض عنه, في مختلف المواقع التالية ومع إلحاح مشدد, بالمبادئ والسمات العامة والقوانين (ولكها صيغ جمع لغوي) وما شابه. يعتبر أن لهذا المبدأ (عقل العالم, منطق الواقع) أو لهذا النوع من الكلام رنة مثالية (لوغوس, لاهوت, «الفكرة المطلقة» الهيغلية) ومن الأفضل اجتنابه[1].

3- «الفهم»

بيد أن كلمة «عقل» أو ما «يوازيها» في لغات مختلفة لها في الجدل, عند هيغل وماركس وآخرين كثيرين, معنى غير المعنى المألوف. وهي, في اللغة واللغات وعند الفلاسفة, تتخذ معاني مختلفة. وهي تتخذ اليوم عند المفكرين العرب معاني مختلفة. معضهم يقلصها. بعضهم يوسعها, يشملها الحلم, الخيال الخ, وبلا تمييز, لا تفريق بين حلم وحلم, خيال وخيال الخ. في هذه الحال, العقل - الذي هو «عقل الإنسان» - يصير مرادفاً لمقولة الروح أو الفكر بالمعنى الواسع أو الوعي - الوجدان أو لمقولة النفيس le psychique. ويتخلى أصحاب هذا الموقف الأخير عن مواجهة المسائل الأكثر أساسية والأكثر حسماً, وقد ينتهون إلى من حيث بدؤوا: موقف وجودي - وجداني, العقل هو كل ما يحلو للنفس البشرية. النذويت ينتعي السيكلجة.

إن قيمة تعليم هيغل, ذروة الفلسفة الأوروبية, أنه يذهب ضد هذا الاتجاه. هيغل ليس في رد فعل ضد «عقلانية» قاصرة, مع أنه هو نافضها وداحضها وتجاوزها: إتع يقيم «عقلاً أغلى» عو عقل (وليس حلماً... مثلاً!).

ثمة للعقل مستويان, وللكلمة معنيان.

الأول ـ الأسهل والأكثر شيوعاً كمعنى ـ هو ما يسميه هيغل Veratand, وترجمتها الفلسفية الفرنسية cntendement, والعربية «فهم».

فاعليات الفهم هي التحليل والتركيب, الاستنتاج والاستقراء, وطبعاً التجريد اذن الفهم هو أيضاً الحكم والمحاكمة, الاستدلال, raisonncment, الفكر الخطابي أو المحاكم peasee discursive, تعاقب أحكام مترابطة وصولاً إلى نتيجة خاتمة conclusion (إغلاق). هذا الفهم أو العقل يفهم, يعلل, يُفسر, إنه في خدمة الحياة والعمل والمعرفة بما فيها أعلى معرفة نظرية (فلسفية, علمية), في خدمة المجتمع والتسريع. هذه الفكرة يمكن أن تحيلنا إلى فكرة الراسيو rario اللاتينية, التي يمكن أن نسميها العقل الحساب والعقل المعقلن الخ والتي هي أصل الكلمة الفرنسية والإنجليزية season. raison (العقل. وأيضاً: العلة) التي أعطت raisonnement (محاكمة, استدلال)..

لنذكر أن إنجلز يقول (في جدل الطبيعة) إن فاعليات الفهم المذكورة آنفاً (تحليل, تركيب, تجريد بالمعنى العادي, استقراه, استنتاج) موجودة أيضاً عند الحيوانات العليا, وان الذي هو ملك للإنسان حصراً هو المستوى الآخر, الأعلى.

4ـ «العقل السليم»

لنذكر أيضاً, بصدد الفهم Versiand, أن الألمان بتكلمون, وبشكل إيجابي مبدئياً, عن «الفهم البشري المشترك» أو «الفهم البشري العام». حيث يتكلم الانكليز والأميركين عن «الحس المشترك» أو «الأدراك المشترك», الـ «common sense»[2],

والفرنسيون عن الـ «bon sens» والـ «sens commun», والعرب عن «الإدراك السليم» و«العقل السليم» و«الحس السليم» الخ. هذه مصطلحات متقاربة, يمكن القول إنها تنتسب إلى الـ Verstand, الفهم, entendement. هذا اللحن ـ «الفهم البشري المشترك», الخ ـ لحن ديمقراطي, انشدته أزمنة ثورية, وهو يرتفع إلى مستوى عالٍ عند مفكري القرن الثامن عشر وغيرهم. لكنه يمكن أن يتخذ في التاريخ منحى آخر.

«العقل السليم» فكرة تسلطن حالياً عند بعض الاسلاميين, مثلاً في كتاب الاستاذ محمد سعيد رمضان البوطي, «نقض أوهام المادية الجدلية». بالحقيقة, إنها مسلطنة في الطرفين: «المادية الجدلية» وناقض أوهامها. كلهما يلتقيان على «وجود الأشياء» و«وجود المادة» خارج المفهومية.

لنقل إن الجدل هو, بشكل حاد وعلى نحو ضارب, اعتراض علة هذا التسلطن, الجدل,بحصر المعنى, هو العقل مقيماً الحد على «العقل السليم» ومتهماً دوغمائية الحس السليم والإدراك الحسي وملحقاته. في وجهه السلبي, إن «العقل السليم» هو مجموع «الأحكام المسبقة» لعصر من العصور. والعقل حسب, أي العقل بلا «سليم», ينقضه وطوعه, فيحوله إلى «عقل سليم» جديد متقدم على «العقل السليم» السابق.

«العقل السليم» كان يقول: الشمس والسماء تدوران حول الأرض, وهو الآن يقول: الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس. كان يقول وما زال يقول عند البعض: الأنواع الحية هي هي منذ الخليقة...

إن نسبية آينشتاين لم تدخل بعد في «العقل السليم»: هذا أمر طبيعي. ما ليس طبيعياً أن لا تكون قد دخلت في مبادئ الفلسفة الماركسية» مثلاً...

ثمة هوة, في ما يأتينا من الاتحاد السوفياتي, بين سلسلة «العلم للجميع» وكتب تعليم «الفلسفة الماركسية», «المادية الجدلية» الخ. بعض كتب سلسلة «العلم للجميع» لا تُراعي بتاتاً «العقل السليم» بل تنقضه, تكشف حدوده, تكشف, قصوره وباطله المبدئي.

لكل «عقله السليم» وباطله المبدلي. الحزب الديني, الحزب الماركسي, الحزب القومي, الحزب الليبرالي, لا أحد خارج القاعدة البشرية. ليس فقط دوغمائية الأشياء هي أساس لهذه القاعدة

العامة, بل العلوم نفسها تخلق هي أيضاً «عقلها السليم» الوثني. لا أحد منّا بمعصوم عن هذه الضلال التابع من ضرورات المعرفة والعمل والحياة. لكن, لئن كان التصوف جهاد النفس, فالجدل جهاد المعرفة, أو هو المعرفة كجهاد, بالمبدأ الفكر العربي ما زال ـ في أحسن حال ـ مع «الاجتهاد».

5- العقل والخيال

كل الفتوحات نقض للعقل السليم بالعق. سواء أكان الناقض والمنقوض استعملا المصطلحات الآنفة أم لا.

العمليات الصغيرة التي كانت قوام الانتقال الطويل الشاق من القطف والصيد إلى الزرع والتربية, إقامة الحضارات النهرية الكبرى, اختراع الكتابة, اختراع الدولاب (العجلة), اختراع الأبجدية,... تجريدة فيثاغور (إلغاء المادة وتأسيس العلم الرياضي المحض), علم الهندسة («في كل مثلث...») وعلم الميكانيك («كل جسم مغطس في الماء...») عملية الخوارزمي... كوبرنيك... لافوز به (الاحتراق, الأوكسجين, لا المادة الاشتعالية), آدم سميث (الشغل المجرد) الخ, الخ. كلهم نقضوا «العقل السليم». ولم ينقضوه بالعاطفة ولا بالبصر ولا بالخيال والحلم والسحر ولا بتركيبة في «جامد ذات» و«معنى مجازي». بل نقضوه بالعقل, بهذا الذي هو يستحق أن يسمى العقل بتمامه, أي بالعقل الذي هو أيضاً خيال (تصور, imagination).

فالخيال كلمة لها, في الإمكان اللغوي والفكري والواقعي, معنيان: الخيال الخرافي العجائبي «الاختراعي» والخيال العقلي الموضوعي المكتشف لعلاقات الدنيا ومعقولية الواقع. الأول غني جداً والثاني فقر عند الطفل, ثم في سن معينة, تنحل أشكال وتنشأ أشكال, يتشكل العقل, يتكون العقل ـ الخيال, أو التخيل العقلي الموضوعي اللا أنوي كجزء من عقل الطفل, ويتراجع الخيال الخرافي العجائبي. هذا حسب جان بياجيه piaget, وهو فيلسوف كبير حقاً وأكبر سيكولوجيي الطفولة في القرن العشري... أين نحن في هذه الحيقية؟ عقل في المستوى الأدنى, «عقل سليم» + خيال خرافي؟

لا تضمن على العقل والمعرفة بالخيال! إذ ليس الفيزياء المعاصرة فقط بل أيضاً كل تجربة البشرية ومآسيها في عصرنا المتقدم: تصرخ: «الواقع أكبر من الخيال». لكن ثمة خيال وخيال, تصور وتصور.

6- مستويان

هناك اذن مستوى آخر فكرة العقل. شيء أعلى أو أعمق في مستوى «الفهم» Verstand. وهذا المعنى الآخر يخصه هيغل بكلمة vernunft, وهو ليس سحراً ولا عطفة... بل, ببساطة. عقل, عقل بشري يدرك التناقض في جوهر العالم ومبدئه.

حتى أن إنجلز, كما ذكرنا, يقول إن فاعليات الفهم مشترك للإنسان والحيوانات العليا, والخاص بالإنسان هو العقل ـ التصور ـ الجدل, وهذا الخاص بالإنسان ـ حسب إنجلز ـ برز بشكل خاص عند الإغريق وعند ... البوذيين (مما يوحي ربما بشكلين للجدل).

العقل «أكثر» من الفاعليات الفكرية التي نعلمها لطلابنا في الثانوي تحت اسم طرائق الفكر وطرائق العلوم. وطرائق العلوم كما نعلمها ما هي إلا جزء. مهم وضروري أجل, لكنه ليس «سرّ» الفتوحات العلمية مثلاً وهو لا يحيط بالعمل العلمي بتاتاً. عدا عن أن طرائق العلوم في الوقت الحاضر تتوحد! أما أن نقول لطلابنا في صفوف عليا إن عالم الطبيعيات يستقرئ وعالم الرياضيات يستنتج فهذا كلام قاصر. كل محاكمة هي استنتاج, محكوم بمبدأ العقل. والتجريب العلمي تابع لهذا المبدأ الفاتح. والواقع قائم بتمامه خارج الرأس, منطقاً ومادة وتاريخاً.

7- $\sqrt{2}$

ذكرنا بعض الفتوحات العلمية, بعض فتوحات العمل الإنساني. وقلنا إن وراءها دائماً مفارقة على فكرة العقل: الفتح العلمي انعتاق وخرق... أريد الآن أن أذكر واقعة شخصية في تاريخ الفلسفة: هيغل و$\sqrt{2}$.

يبدو أن هيغل الشاب اكتشف «المفارقة» أول ما اكتشفها على قضية $\sqrt{2}$. القضية صفعته, أو الذي صفعه هو المصطلح العلمي الرياضي: «عدد غير معقول» أو «لا عقلي» irrational

الأوروبيون يسمّون العدد الذي لا «يقايس» أو لا يُقاس (مثلاً $\sqrt{2}$, الأعداد الجذرية) «عدداً غير معقول», نحن نسميه العدد الأصم.

المفروض في العدد التقايس, القياس. هذا الفلم الأحمر أطول من القلم الأصفر ثلاث مرات, النسبة بين الطولين 3 على 1, أي 3: هذه هي فكرة القياس meture. النسبة بين الطولين آ و ب هي مثلاص 733 على 547. إنها نسبة, علاقة, وكس. 547/733 «عدد كسري». لا شك إن هناك بين طولين محددين علاقة كسر. هذه مسلمة العقل أو... العقل السليم. لكن!!

المربع شكل هندسي بسيط جداً, مثالي جداً: أربعة أضلاع متساوي الطول وأربع زوايا قائمة. إن مربعاً معيناً بتعين بطول ضلعه لا غير. وليكن هذا الطول 1. أستطيع أن أصل بين رأسين متقابلين, أحصل على بعد جديد هو القطر. ما طوله؟ بتعبير آخر, ما هي نسبة طول الضلع على طول القطر في مربع من المربعات, أياً كان؟ هذه النسبة مفهوم ينبع من مفهوم المربع. هذه النسبة ثابتة, هذه العلاقة كلية, ضرورية, مطلقة الخ. فما هي؟ كم؟

بموجب دستور فيثاغور عن المثلث القائم (ونصه: مربع طول القاعدة = مجموع مربعي طولي الضلعين), إذا كان طول كل ضلع 1, يكون مربع طول القاعدة (قطر المربع) 2, ويكون طول القطر $\sqrt{2}$. إن النسبة «طول القطر على طول الضلع» في المربع هي $\sqrt{2}$. كم تساوي $\sqrt{2}$؟ نحاول تحويل $\sqrt{2}$ الكسر, أي الحصول على كسر يساوي $\sqrt{2}$... عبثاً!

محاولتنا «مبررة»: أمامي طولان «محسوسان» هما ضلع المرع وقطره. ثمة بينهما علاقة ثابتة, أثبت من جبال هيمالايا, واحدة في وعلى جميع المربعات الممكنة... أمامي طولان محددان. أليس لهما «قياس»؟ بالأصح: أليس بينمها قياس؟... أحاول إذن اكتشاف هذه النسبة كقيمة كسرية, أي جعل العلاقة ـ النسبة كسراً بين عددين طويلين جداً... مستحيل!

أنتقل من «المحاولات» ومن الكلام الآنف والملتبس إلى العلم الرياضي البسيط, الذي ـ بوصفه علماً ـ ليس «محاولات».

هناك في العلم الرياضي برهان على هذه الاستحالة, استحالة تحويل $\sqrt{2}$ إلى كسر. والبرهان المذكور اسمه البرهان بالمُحال (par l'absurde) وهو أهم أسلحة الرياضيات:

لنفترض $\sqrt{2} = \frac{هـ}{ر}$, كسراً غير قابل للاختصار.

$\sqrt{2} = \frac{هـ}{ر}$ إذن $2 = \frac{هـ^2}{ر^2}$

إذن $2 ر^2 = هـ^2$.

الطرف الأول عدد زوجي, اذن كذلك الطرف الثاني $هـ^2$ عدد زوجي, اذن هـ عدد زوجي (فكل عدد زوجي مربعه عدد زوجي وكل عدد فردي مربعه عدد فردي, حتماً...). إذن $هـ^2$ زوجي مرتين. إذن $2ر^2$ زوجي مرتين. إذن $ر^2$ عدد زوجي, إذن ر عدد زوجي. بما أن هـ و ر عددان زوجيان, إذن فالكسر $\frac{هـ}{ر}$ قابل للاختصار بـ 2. وهذا عكس فرضية الانطلاق.

إذن $\sqrt{2}$ (نسبة طول قطر المربع على طول ضلعه) لا يمكن أن تتعادل مع أي كسر (مهما طال حداً الكسر, حتى لو أوصلناها إلى طوكيو).

$\sqrt{2}$ عدد غير قابل للقياس, عدد, و, غير قابل للقياس؟ «غير معقول» ؟صفحة 43 ! (أليس العقل قياساً؟ ـ لكن ما معنى قياس؟!) [3].

تسمية غريبة؟ ـ أولاً إنها تسمية جيدة وضاربة. ما دامت تطرح مسألة العقل والمعقول والعقلي, ما دامت تدفعنا إلى عدم استسهال الكلمة والفكرة.

$\sqrt{2}$ معقول وغير معقول, حسب المعنى, معنى «عقل» و«معقول» و«عقلي». إنها تنطوي على تناقض, على مفارقة, وعلة نفي عقلي لموقف سابق. «فضيحة»! حلقة في سلسلة «فضائح» تاريخ علم الرياضيات, بدءاً من اكتشاف أو اختراع العدد المجرّد, مفهوم العدد, وصولاً إلى رياضيات القرن العشرين.

8- عقل أعلى

لم نتكلم عن $\sqrt{2}$ (الحرف اليوناني «بي»: نسبة طول الدائرة على طول قطرها) وهي «العدد المتعالي» transcndant حسب المصطلح الرياضي (أي أكثر أيضاً من «غير معقول»): هنا أيضاً لسنا أمام حلم شبحي بل أمام فتح مفهومي للعالم والصناعة.

ولم نتكلم عن الصفر واللانهاية والمسية اللامتناهية نحو الصفر, عن علم تحليل اللامتناهيات, حساب التفاضل والتكامل.

ولم نتكلم عن فعلية ذلك وواقعيته وكونيته, ولا أقول عن «وجوده»[4].

هذا كله بعيد عن المعنى المألوف لكلمة «عقل», المعنى المتآخي مع لغة «موجود» و«غير موجود»: الأشياء موجودة, وهي تُعَد, وبينها روابط. يمكن أيضاً «تطوير» هذا الموقف ـ «علمية» ـ, ويمكن إضافة الحلم, الخيال, الشعر الخ: «انفتاح»! الفلسفة اعتراض. ذروته هيغل (فكرة الشيء, الصحيحة الواعية, تفترض فكرة العزل, علم التحليل اللامتناهي ينقل من «العالم أشياء» إلى «العالم سيرورات أو عمليات pioressus»).

هيغل الشاب يعلق على $\sqrt{2}$, «الأعداد اللاعقلية», فيقول: سمّوها «لا عقلية» وكان الأجدر أن يتخذوها مدخلاً إلى عقل أعلى[5].

هكذا الترجمة الفرنسية Raison superieure في السياق المحدد, والمعنى: أعلى من المألوف, كان يمكن أن نقول: العقل الأحمق, العقل الأبدأ. الكلمة الألمانية هي Vernunft.

لو طبقنا مصطلحات ومعاني هيغل على عنواني كتابي كنط الأشهرين, لصار العنوانان: «نقد الفهم المحض», «نقد الفهم العملي» (بدلاً من «العقل»).

كنط دشّن عملية كشف تناقضات «الفهم», وهيغل أعادها, وسّعها وجذّرها, أتمها. تاريخ «الفلسفة الكلاسيكية الألمانية» هو تاريخ الجدل الحديق, وهو جوهرياً: كنط, فيشته, شيلنغ, هيغل (1770-1830). شيلنغ, عدا عن هذا الموقع, حمل بذرة اللاعقلانية الحديثة: «الحدس» وأيضاً «الشرقية» و«الصوفية». موقعه في المسلسل الرباعي موقع حاسم (التحول من المثالية الذاتية إلى المثالية الموضوعية...). وجانبه الآخر أن يضبط وأن يطوّع: ليس الجدل رفضاً لفكرة الحدس, أو للشرق الخ. بوجه عام, إن الجدل لا يتعامل مع الأمور بـ«الرفض». وهيغل هو الذي «حل» مسألة «الحدس» أو الرؤية.

9- لوغوس وراسيو

فكرة الـ Vernunft الهيغلية يمكن أن تحيلنا إلى اللوغوس (Logos) اليوناني = الكلمة (و«الكلمة ـ الفعل» Verbe), العقل, الربط, وأيضاً الروح أي ـ في تاريخ الفلسفة ـ الروح بمناحيها المتنوعة وصولاً إلى الروح الهلينستية, المشرقنة. بالمقابل, الروح عند الألمان (هيغل وماركس) هي Geist: إنها ليست مادة خاصة, وهي «لا تنفصل» عن فكرة العقل والمعقولية.

كلمة Verstand يمكن أن نربطها بفكرة الراسيو Ratio اللاتينية: العقل الحسابي والمعقلين والمقايس, العقل كتنظيم وتشريع, كإيجابية بالمقابل. اللوغوس والـ Vernunft يُضمنان فكرة نفي, سلب, Negation الجدل هو, «بحكم التعريف», جدل النفي أو النفيية. إذن بالتالي وكناتج: بسط, تقدم ونمو, تحول وتعاقب, تجاوز.

10- التقدم كعقل

أوروبا الحديقة (1620 ـ 1770) تبسط العقل ـ الراسيو, تؤسس العقلانية والتجربية, تقيم فكرة الطبيعة وفكرة التقنية, تبني «العلم الطبيعي الرياضي», علم الميكانيك... هذا تقدم كبير. بل يجب القول, في حيثية معينة, أن الصناعة الميكانيكية ذات أساس جدلي بارز: دوران وتقدم, «وحدة الدائرة والخص المستقيم», المبدأ الذي حققه واقعياً المخترع السومري للدولاب والذي أكده نظرياً وفلسفياً بعض رجالات عصر النهضة (ق, 15, 16).

أوروبا الحديقة (ق 17, 18) ارتكزت على عصر النهضة وتقدمت. بسطت وأتمت الممكن التاريخي.

غير أن التقدم. كل تقدم, هو توقيع لممكنان على حساب ممكنات أخرى هي ممكنات من وجهة نظر أكثر تجريداً وأقل تاريخية. بتعبير آخر: التقدم. كل تقدم, هو تقدم وتقليص. كشرح أو إيضاح: إن الطفل في السنة الأولى من عمره يملك من ممكنات النطق أكثر من هذا الذي سوف يتحقق ويتوقعن ويتفعلن. فالأم, المحيط, المجتمع, اللغة القومية الخ يلعبون دور غربال يسمح لبعض الممكنات بالمرور ويمنع الممكنات الأخرى. (إن لفظ الغين هو أو لفظ وهو «موجود ـ ممكن» عند جميع أطفال العالم في وقت معين من السنة الأولى, لكنه يُلغي في معظم اللغات). هذا المنع والإلغاء شرط للنمو, هذا النمو الذي هو في مثالنا تكون الطفل ـ الإنسان الناطق. نشوء اللغة عتد الطفل.

إن فلسفة الفرنين 17, 18 تضيع بذوراً وقضايا كانت قائمة في فلسفة العصر السابق, عصر النهضة أو الميلاد الجديد.

والتقدم المحرز في الفرنين المذكورين (1620 ـ 1770) هو نفسه يقوض الموقف الفلسفي الذي كان إطاره اللازم وقاعدته المقلصة.

فالرياضيات مثلاً (تحليل اللامتناهيات, بل لنقل «رياضيات المقادير المتغيرة» التي يدشنها ديكارت) تحمل موقفاً جدلياً يتعارض مع العقلانية الديكارتية, ومع العقلانية بمعنى يشمل ديكارت والتجربية المقابلة, ويتعارض مع النظرة الهندسية ـ الميكانية للكون, ومع الشيئية... أخيراً, بوجه كنط ـ بنظريته الفلكية عن أصل المنظومة الشمسية ـ ضربة نجلاء للتصور «الميتافيزي والميكانيكي» للطبيعة, لافوازيع بعدم المادة الاشتعالية (الجوهر ـ النار), تبرز النظرة السيرورية أو «العمليتية» Processus, ضد النظرة الشيئية... قبل ذلك, بركلي أكل المادة والأشياء, هيوم أكل السببية والمادة ـ الماهية Substance (ق18).

كنط ينقد المثولات الكبرى (الفلسفية, بل الفلسفية والشعبية), يعيد طرح مسألة المعرفة من أساسها, يعينها مسألة في المبدأ, ويدشن مسلسل الجدل الحديق, الألماني آدم سميث يؤسس علم الاقتصاد السياسي على الشغل المجرد, «الشغل كمحض فاعلية ذاتية بدون موضوعاته الخارجية» (حسب قول ماركس). وتنتهي الأمور. أمور الفلسفة والعلوم والمجتمع والسياسة, أمور الأزمة العامة.

وجملة تناقضات العصر الاجتماعي والفكرية, تنتهي إلى هيغل (أوائل ق19).

11ـ اللاعقلانية والوضعوية

الأزمة (ووجوب الانقلاب) التي برزت في أواسط القرن الثامن عشر وخصوصاً في أواخر القرن, انتهيت, عدا عن هيغل, إلى مسارين بارزين للفكر الأوروبي في القرني 19, 20:

1ـ تيار مناهضة العقل:

من «شيلنغ الأخير» إلى التصور النازي للعالم وإلى ما بعد الحرب العالمية الثانية (حسب عرض لوكاكش في «تحطيم العقل», 4أجزاء). الرايات التي تُرفع هي: الحدس, الصوفية, الحياة, الوجود, النخبة, البطولة, الدورة الأبدية, الخ وأخيراً: العِرق.

2ـ العقلانية السابقة (عقلانية العصر الكلاسيكي, ديكارت وخلافاته) تنحط إلى وضعوية وعلموية:

التدخلتن كبيرة بين الخطين. ثمة تكامل بينهما في بعض المذاهب, «توزيع أدوار وصلاحيات». بحيث يعترف «المذهب الحيوي» مثلاً بـ «العقل» ضضمن حدوده وبطلق «الحدس» و«الاندفاعية الحيوية» خارج هذه الحدود. هنا, فكرة «العقل» مأخوذة بمعناها الأدنى والذي يحط أكثر: فالعقل مع المادة وميكانيكا المادة, أما الحياة فهي تعارض مع هذه الوحدة. «الحيا» ضد «العقل». الزمان يقلص إلى مفهوم سيكولوجي مبهم, إلى ديمومة نفسية ذاتية. الفلسفة تسيكلج, أي تُلغي. الأدب الفلسفي ينشر هذا المناخ في القرن العشري: الفيلسوف برغسون والطبيب أليكس كاريل وآخرون لا حصر لهم. من المعروف إن كتباً كـ «الطاقة الروحية» و«الإنسان ذلك المجهول» ساهمت جذرياً في تكون عقول فلان وفلان من قادة جيل أو جيلين من الشباب العربي.

12ـ انتكاس الماركسية إلى ما قبل النقد

ماذا عن مصائر الماركسية في السياق المذكور؟

إن ماركسية العالم ردت على تيار اللاعقلانية وسقطت في رد فعل. ألغت مقولة «الحياة» الفلسفية: الحياة مقولة لعلم البيولوجيا. أما إذا ترددت الكلمة موضوفاً أو صفة عن لينين, خارج العلم المذكور, فهذا مجاز... الماركسية العامة ـ فيما عدا بعض الاستثناءات ـ خفضت العقل إلى الفهم أو المحاكمة, استغنت عن النفي فكرة وكلمة, لم تع وحدة المنطق والجدل, تصورت هذه الوحدة في صيغة «المنطق الجدلي» الملتبسة, ألغت نظرية المعرفة, و, تحت سلطات «المادية» و«المسألة الفلسفية العليا», انتكست إلى ما قبل النقد (إلى ما قبل كنط), شطبت على أفلاطون وهيغل والفلسفة, تصرفت بمقولات المادة والسببية والماهية والجوهر وكأنه لم يكن هنالك بركلي وهيوم وكنط ولافوازيه وآدم سميث. من القتال الإيديولوجي, الضروري والحيوي, ضد الخصم والخصوم, تحولت هي وبتماها إلى ايديولوجيا, إلى آلة حرب. هذه الآلة أدت خدمات جلى تحت ألوية العقل والتقدم والإنسان والطبقات الكادحة وحق الشعوب, لكنها فقدت أكثر فأكثر صفتها كمعرفة كمرشد للعمل.

تحولت إلى وضعوية, اقتصادية, آلية جدلية تقدمية وثورية.. أكثرت من كلمة عقلانية بدون أن ترى أن العقل يمكن أن يُفهم بثلاثة معان من المبدأ: ديكارت, هيغل, أوغست كونت.

اختارت ديكارت المصير «مادياً» أو المنقود «مادياً» ـ لا فرق في ذلك! فما يلغي في الحالتين هو لحظة الصفر الديكارتية [6]..؟ بل اختارت فعلياً مناخ أوغست كونت وخلافته, هذا المناخ الذي ودّع الفلسفة و«تقدم» من العقل إلى «العلم», أي كل هذا الذي يخلط العلم الحقيقي و«العلموية», كل هذا الذي يرفض وحدة أو هوية المعرفة النظرية المفهومية وأساسها الفلسفة. تصورت أن «العملية» هي العقلانية المتقدمة, وأن الماركسية بل الايديولوجيا الماركسية الطبقية الثورية هي هي المعرفة العلمية, تبنت قاموساً ينفخ بعض الكلمات, فرضت على نفسها وعلى غيرها قاموساً يشحن الكلمات بلا حذر, إيجاباً وسلباً.

13ـ تعارض بين موقفين: الوضعوية والجدل

رغم أن إنجلز يوجه كتابه الأكبر, آنتي دوهرنغ, ضد دوهرنغ الوضعوي, ويرفع ضده لواء الفلسفة ويدافع عن الفلاسفة الكلاسيكيين... فإن الماركسية لم تع إن ثمة تعارضاً أولياً بين مناخين ومذهبين وموقفين هما الجدل (الديالكتيك) والوضعوية أو الوضغانية Positivissme.

هذا التعارض خيار واجب أضعه أمام المثقف العربي (أمام مختلف المدارس الفكرية العربية) وألخصه في ثلاث نقاط:

1ـ المذهب الوضعي هو المذهب الإيجابي, الجدل هو بحكم التعريف جدل النفي (هيغل, سبينوزا, بوهم الخ والأقدمون).

«الإيجابية وتر محبب في قسم من الفكر الإسلامي. في قسم آخر (أو جانب آخر؟), النفي يتحول إلى نفي بمعنى مغاري, هو حسب الحالات نفي إلى الخارج أو طرد Esclusion, «نفي» لتاريخ طويل جداً أو «نفي» للتاريخ الذي هو ضلال. هذه الحالة الفكرية تختلف جذرياً عن الموقف الذي وصلت إليه أوروبا بعد جهد وعناء (أو لنقل عن أفضل ما في أوروبا هذه): الأرض ليست السماء, التحسن ممكن (وواجب), التقدم ممكن (وواجب), تحويل الأرض إلى جنة مستحيل. العقل الوضعي الإيجابي يأخذ مكانه في إطار وعلى أساس فكرة النفي الأولي... العالم جوهر واحد ومتعدد ولا جوهر. العالم ينال الاعتراف كعالم... بالمقابل, الفكر الإسلامي مازال يناقش العلمانية (العَلمانية مع مفتح العين) أو هو يرفضها بلا نقاش.

توجد مفارقة كبيرة بين العقيدة الدينية الأساسية وأدلجة العصور... بل وأكاد أقول: يزداد «تديين» الدنيا كلما ابتعدنا عن الأوائل... والأوائل في الأدلجة الحاضرة لا يلهمون هذا العصر في الاتجاه الطبيعي الوحيد: نفي وإيجابية وتقدم.

النفي. ستالين أسقط هذه الكلمة من الفلسفة الماركسية, مكتفياً بفكرة «التناقض». وماركسيون فرنسيون أيدوا هذا الاستغناء: حسب رأيهم, إن فكرة النفي فكرة ألمانية مبهمة, والماركسية الفرنسية ترفع, فضلاً عن راية الماركسية العلمية, راية الوضوح الديكارتي المثلثة الألوان. غير أن ديكارت هو أيضاً يستطيع أن يقول ما قاله ماركس: «زرعت تنينات وحصدت براغيث»... لوي ألتوسير

دفع القضية إلى حدها الأقصى: لا لنفي ولا للنفي, نعم للتناقض أو بالأصح لـ «التناقض الشديد التبنين والفائق التحدد».

وهذا البديل ، «التناقض» ـ, في غياب فكرة المفهوم Concept, ينخفض بسرعة في الوعي الماركسي العام إلى فكرة «الصراع» أو لنقل إلى فكرة «المكاونة» أو «التكاؤن». هذا الجدل قديم وعالمي: الكون تكاؤن, وهو يعبر عن حقيقة هامة. لكن الجديد (أرسطو ـ هيغل ـ ماركس) هو: الكون تكوّن.

هذا خيار راهن: فكرة «التكاون» (السجال, الحرب, الخ) لا يجوز إن تحجب فكرة التكون (التشكل). لا جدوى في «تكاون» غير مؤسس على «التكون».

2ـ التاريخية الكونتية والسينسيرية والستالينية هي فكرة التقدم الخطي: من الحالة اللاهوتية إلى الحالة الميتافيزية إلى الحالة الوضعية الإيجابية (منذهب كونت), أو تعاقب الأنظمة أقنوماً, إلهاً, وليس التقدم خطاً مستقيماً ولا حتى متعرجاً, ولا حتى مع بعض الانتكاسات.

عند ماركس, لا يوجد تاريخ إلا لأنه يوجد منطق لواقع. ماركس, بخلاف ستالين والذين نسجوا على منواله, يثمن فكرة الدائرة وفكرة الدوران. هذا جزء من فكرة المنطق ذاتها. كذلك إنجلز, وكذلك لينين الذي يتكلم عن «دائرة» و«دائرة من دوائر» (بخصوص تاريخ الفلسفة مثلاً) والذي أكد نظرية التطور الجدلية, بخلاف سواها, تتضمن بين جملة تعيناتها فكرة العودة إلى بدء ومبدأ. هذا هو نفي النفي, اللحظة الثالثة في الثلاثية (التأكيد, النفي, نفي, النفي). ونفي النفي هو تركيب Synthese. وهنا فكرة التقدم الحقيقية التي ليست فكرة الحركة وكثرة الحركة وليست فكرة صراع ينتهي إلى عدم. بدون نفي النفي أو التركيب لا تقدم بل «نواس» أو صيرورة عدمية.

أما الخط الحلزوني Spirale, الذي يرفع لواءه بعض الماركسيين ضد فكرة الدائرة (رغم أنف ماركس ولينين وإنجلز) فيهو, بالأحرى والأصح, صورة تريد توحيد مفهومي الدائرة والخط المستقيم, وليس إلقاء فكرة الدائرة. وهذه الصورة أقرب كتمثيل حسي إلى الدائرة منها إلى الخط المستقيم. لها مركز Center, نقطة ـ مبدأ هي في الوسط.

باختصار يمكن القول إن فكرة ماركس هي فكرة «تقدم دائري». فكرة متناقضة؟ ـ أجل وبالضبط. وهي ليست لـ «العقل السليم» ولا لـ «التمثيل الحسي», شأنها في ذلك شأن «سرعة الضوء», حسب قول هيغل, أو شأن «الفراغات داخل الذرة» (لو حذفنا هذه «الفراغات» لتقلص جبل إلى حجم بناية).

3ـ إن أوغست كونت, وقبله إدموند برك Burke , وحوله وبعده كثيرون. وباختصار إن المناخ الوضعوي والعلموي يتصف بموقف صميمي يمكن أن ندعوه: «كره المجرد». هذا الكرخ يُسلطن اليوم في عقل ولغة الفكر العربي من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار: «المجرد» هو اللاواقعي واللاعلمي... لنقل إن الواقعي والعلمي عو إذن رفض الكلي وإلغاء المنطق.

إدموند برك يمثل أول ارتداد برجوازي (1790, كتابه: تأملات في ثورة فرنسا وبرابان) على الثورة البرجوازية وعلى إيديولوجيا البرجوازية الصاعدة والمكافحة. سلط هذا الليبرالي الانكلوـإيرلندي نقده على فلسفة الأنوار, ألقى نظراً ثاقباً على المستقبل القريب, تنبأ بعهد الإرهاب, حذر وأنذر... كان لسان حاله ضد خط فلسفة الأنوار: لا توجد حرية , توجد حريات مختلفة أو عنفات مختلفة لأقاليم ومدن مختلفة الخ؛ إن مجرداتكم تتنافى مع الحقيقة والواقع ومع التاريخ, بل ومع العقل والطبيعة (برك يحول أسلحة الخصم ضد الخضم: عقل, طبيعة), وهي ماسحة, خطرة, مدمرة... برك مدرك إن التجريد أو المجرد مبدأ مساواة, «تسوية». خلاصة موقفه: المجرد؟ يا للهول!

كذلك أوغست كونت في معرفة الواقع الفيزيقي: الضوء, الصوت, الخ حقائق من جنس ذاتها, مقولات ـ أصناف لا تقلص أو لا تُقهر lrteductibples. إنه ضد المجردات أي فعلياً ضد المجردات الأكبر. إنه ضد الكليات الكبرى: مادة, حركة, سببية الخ. في علم البيولوجيا, الخلية «تجريد ميتافيزيقي».

كذلك المنطق الضمني الذي مفاده: الرجل موجود, المرأة موجودة, الأمة موجودة, أو الطبقة, أو الجماعة الدينية, الخ, أما الإنسان فغير موجود, العالم غير موجود,... إلا في اللغة أو الكلام, حيث يستحسن الإكثار من هذه الكلمات: إنسان, عالم الخ. الإنسان كلمة, العالم سطوح, إنه جمع لأقسام, الواحد جمع لكسور حولت إلى واحدات.

هذه الواحدات تختلف بين مدرسة وأخرى, بين مفكر وآخر. لكنها دائماً جواهر. هكذا مثلاً الحضارات موجودة, الحضارة لا. الإنسان الصانع والعاقل منفي. في هذه الحال, يجب إلغاء صيغة الفرد من القاموس. وإذا كان الفكر العربي السائد لا يطالب بهذا الإلغاء, فلانه يتصور أن صيغة المفرد اللغوية ترتبط بالذرّات, أي بتصوره الذرّي (المادة ـ الكمي) للواقع أو بالأصح لجواهر الفكر المذكور.

كذلك ـ في مستوى «علمي» رفيع ـ منطق لوي ألتوسير: لا وجود للعمل كعام, ولا وجود لمفهوم التناقض, الوجود هو للممارسات النوعية الأربع أو الخمس, والوجود هو لـ «التناقض المبنين المعقد الفائق التحدد».

هذا بالضبط عكس موقف هيغل وماركس والفلسفة. الطبيعية, التاريخ, العمل, الشغل, القيمة, المادة الخ مجردات كبيرة.

الطاولة والكرسي والحصان الخ أيضاً مجردات. مجردات «مادية» (إن جاز المصطلح!) «صغيرة».

إن عالم أوغست كونت وإدموند برك ومدارس الفكر العربي الراهن عالم أصناف ـ جواهر: المقولات أصناف, بدون أن تكون مفاهيم وحدات, العالم عالم مادة وامتداد وخريطة, بدون عمودية, منطق الحدود ينحط إلى منطق شمول اتساعي Extcnsion بلا تضمن Comprehension حاكم, يصير منطقي أرسطوطاليس السكولاستيكا الوسطوية ضد منطق أرسطو الحقيقي؛ الهوية Identite خاص بلا عام, خصوصي ضد الكلي والمفرد معاً بالتلازم... لنذكر ضد هذا المنحى في المعرفة إن كلمة Comprehension الفرنسية تعني التضمن (تعينات المفهوم) وتعني الفهم أو التفهم: التفهم هو فك التضمن. إن تضمن المفهوم (بأبسط معنى) هو الذي يحدد وقرر شموله أو «اتساعه».

العقل؟ إن المدأ العقلي يذهب بالضبط ضد المذهب الجوهري والجوهري. الجواهر نسبية دوماً. فكرة الجوهر مفيدة وضرورية حين تعي حقيقتها وحدودها. بدون ذلك, إنها تشوه مبدئياً ونهائياً المعرفة, ولا سيما المعرفة التي تريد إرشاد العمل, والتي إذن تستهدف (بوصفها المعرفة وكفاية أخيرة للمعرفة) العياني, الكل, الحالة المفردة (الحالة العربية اليوم, حالة هذا البيت الصغير أو هذا العالم الكبير, الخ). مذهب الجوهر يُلغي هذه المعرفة.

فكرة «الجوهر» وفكرة «الوجود» شريكتان. أيهما أسبق: الوجود أم الجوهر؟ هذه المسألة, التي أذاعتها الوجودية الأدبية المعاصرة, تغطية للشراكة. المبدأ العقلي موجه ضد هذا الزوج المذهبي الذي يلغي الصيرورة والتاريخ, التكون والتقدم.

وحدة العقل, بمعنى الفلسفة الكبير, يستطيع أن يعطي الفهم والمحاكمة والعقل السليم الخ حقهم. وحدة الموقف الجدلي, الذي يدين المذهب الوضعوي من المبدأ, يعطي الموقف الوضعي الإيجابي مجاله الصحيح. وحدة العقل ـ الروح يُنصف العقل ـ الحساب.

14- خيار لا بدّ منه

الخيار جدل أم وضعوية؟ لابد من مواجهته حين نتكلم عن العقل والعقلانية, أو عن «تحديث الفكر العربي» أو عن «التقدم». يخطئ الماركسيون في تضييع هذه القضية وضم الوضعوية إلى المثالية أو إلى «المعسكر الثالث المزعوم» في «المسألة الفلسفية العليا» (ماجية أم مثالية؟). هذا القاموس باطل لأنه يجهل حدوده. ويلغي قضية الجدل. لينين في مقاله «حول الجدل» (1916) يقول: «إن الجدل هو نظرية المعرفة لهيغل وللماركسية».

كثراً ما يقال إن كونت هو هيغل فرنسا (كلاهما عقل موسوعي إلخ). في هذه الحال, لنقل: إذن كونت هو كاركاتور هيغل. الفلسفة (آنذاك) ألمانية, هيغل فيلسوف, كونت خريج البوليتكنيك, محب للمعرفة العلمية والعلوم الدقيقة. وهذا المحب الإيجابي يصدر نواهي وتحريمات على المعرفة

العلمية: فالسعي إلى معرفة بنية المادة ميتافيزيقا, ومحاولة معرفة العناصر (بمعنى علم الكيمياء) التي تتألف منها الكواكب والنجوم ميتافيزيقا, وكذلك حساب الاحتمالات, وتطبيق الرياضيات في البيولوجيا الخ... ميتافيزيقا أي رجم في الغيب ومُحال وعبث... إذ من أين لنا مثلاً إن نكتشف عناصر الأجسام (الأجرام) الفلكية؟ هذا يناقض العقل السليم العلمي... بعد سنوات قليلة من إعلان كونت, اكتشفت العناصر, وبدون مغادرة الأرض, بفضل الموشور الطبقي أي بالعقل المسلح بأداة [7].

لا هيغل ولا ماركس ولا أحد معصوم عن الخطأ والغلط والضلال. غير أن الاخطاء المعينة تفصح عن موقف. وجملة أخطاء كونت تفصح عن حقيقة الموقف الوضعوي. هذا الوضعوي والعلموي يؤمن أنه متقدم على العقلانية الديكارتية والتجربية الكلاسيكية والفلسفة الحديقة بأنه القديمة! دوهرنغ يسخر من أرسطو بصدد السلعة. ماركس يثمن أرسطو ويَسخر من دوهرنغ. ولا بأس من التذكير بأن ماركس خريج فلسفة ودكتور فلسفة وليس دكتوراً في شيء آخر.

ثمة التباس أساسي في مذهب هيغل الذي هو المثالية المطلقة المتساوية مع الجدل وهذا التساوي أو التلازم ليس من قبيل الصدفة. وليس من قبيل الصدفة إن الماركسية ترتكز على هيغل. لا على ديدرو, ولا على ديموقريط, ولا على فويرباخ (مهما تكن أهميته كجسر محدد تاريخياً؛ وأدوم ما فيه صلتُه بهيغل وبالفلسفة الكبرى!), بل على هيغل فويرباخ لا حضور له في رأس المال, في جدل الطبيعة وآنتي دوهرنغ, في المدخل (1857) والمقدمة (1859) الخ, أما هيغل فله «كل الحضور»! إن ما ينقله ستالين من شواهد عن إنجلز بصدد «الطريقة الجدلية المادية» مقول عن إنجلز نفسه عن هيغل. حتى الأطورحة القائلة: «لا مادة لا حركة ولا حركة بلا مادة», والتي يتصورها الوعي الماركسي الشعبي خلاصة للمذهب «المادي الديالكتيكي» هي عند هيغل.

ثمة خطأ, ثمة باطل عند هيغل؟ ـ وثمة إساءة فهم, موقف غير إيجابي, امتناع, قبلية مناوئة من جانب الماركسية ولينين بدءاً من سنة 1914 يسير صعوداً ضد هذا المناخ «الماركسي» ... ميرة تلازمه حتى النهاية في سنة 1923 وتطويها الماركسية التالية.

15- سقاطات وضعوية: إنجلز, لينين

لقد تأثرت الماركسية كلها, بما فيها ماركسية الأعلام الثلاثة, إلى هذا الحد أو ذاك, بالمناخ العام الذي أحاط بها... وما أريد أن أذكر به (وقد قلت بعضه أو معظمه قبل نيف وعشر سنوات, في كتابات سابقة) هو إن لإنجلز ولينين أخطاء من نموذج وضعوي.

مثلاً, إنجلز, في معرض حديثه عن «العلاقات الخارجية للثورة الألمانية» الديمقراطية (1848 - 1851), توقع اندثار الثومية التشيكية واندماجها في القومية الألمانية المتقدمة, تحت سلطة التاريخ الاجتماعي والحضاري. فيما بعد, كافح إنجلز بشكل ممتاز ضد التشوه الاقتصادي للمادية التاريخية, أكد على القومية والأمة.

مثلاً, إنجلز, في جدل الطبيعة (نهاية مقاله ضد «علماء الطبيعة في عالم الأرواح»), قال إن العدد الخيالي (OI) ليس له وجود إلا في رأس أو مخيلة بعض علماء الرياضيات.

التعليق الذي نلته من رياضي عربي هو منظور إلى الواقع كأشياء Choses, هذا صحيح, منظوراً إليه كبنى Struciures هذا خطأ هذه لغة الرياضيات.

لغة الفلسفة: إن سقطة إنجلز ضد «كرامة $\sqrt{-1}^2$» سقطة مناهضة لأطروحة واقعية لعقل ومعقولية الواقع, التي.. أعطانا عنها إنجلز نفسه بسطاً رائعاً, فلسفياً وسياسياً في الصفحات التي افتتح بها كتابه عن لودفيغ فويرباخ والتي ذكر فيها, بين أمور أخرى إن هناك فرقاً في قاموس هيغل بين «موجود» و«واقع».

لنذكر أيضاً أن الفلسفة الماركسية لم تُنصف الرياضيات, أقصد: لم تنقصف نفسها في هذه الحيقية. ستالين, في عرضه الأشهر والمقتضب, تجاهل الرياضيات. هذا التجاهل جزء من تفويته للطريقة.

المثل الثالث هو لينين ونسبية آينشتاين.

في اعتقادي, إن كتاب لينين المادية والتجربية النقدية (1908) يجب أن تعاد قراءته نقدياً في ضوء كتابات لينين الفلسفية في 1913 و1914 - 1916 وحتى 1923, وفي ضوء الفلسفة بوجه عام... هذا الكتاب ساهم في إضفاء الصفة «الفيزيقية» على المذهب المادي الماركسي: ضد «المثالية الفيزيائية» تصير الماركسية كأنها مذهب «مادية فيزيقية وفيزيائية», ويكون علم الفيزياء في أواسط القرن العشرين مسرح حرب بين ايديولوجيتين مناظرة بين حزبين في علم الفيزياء, أحدهما مادي جدلي يضم ماكس بلانك ولوي دوبرويل (وتلميذه الماركسي الفرنسي فيجييه) والفيزيائيين السوفييت والآخر مثالي وميتافيزيائي يضم نيلس بوهر وهايزنبرع وربما آينشتاين. هكذا المرآة الماركسية حتى أواسط الخمسينات (مجلة الفكر La Pensee شاهد بين شواهد)... هذه المرآة تحطمت (كشاهد, أذكر كتاب كيدروف عن «وحدة المنطق والجدل ونظرية المعرفة المادية»).

لكنني أترك هذه القضية وأمسك بموضوع لينين وآينشتاين. هذا الموضوع لمس مراراً على يد ماركسيين فرنسيين وسوفييت. في الجانب السوفياتي, لا «نقد» على حد اطلاعي. في الجانب الفرنسي, يختلف الأمر بطبيعة الحال.

قيل أن لينين ليس عالم فيزياء ولا يدّعي ذلك وأن العمل السياسي منعه من متابعة موضوع النسبية أو الاطلاع عليه رغم بروزه ثانية وتعممه في الدوائر العلمية حوالس سنة 1920 (بعد انتقال آينشتاين من «النسبية الضيقة» إلى النسبية المعممة»). ونقل سوفياتيون عبارة تثمين من لينين تقول إن الرجعية أو المثالية تحاول استثمار أفكار آينشتاين, عالم الطبيعيات الكبير.

ثمة شيء مفقود في هذا الملف. ليس المهم, في الحاصل, إن لا يكون لينين عالم فيزياء, فهو قائد ثوري وفيلسوف حقيقي يؤمد فكرة المنطق, بل يؤكدها مباشرة من أجل قضية مصائر العالم والثورة العالمية (ولا سيما الثورة في «الشرق القومي والثوري»). وربما لا حادة له ولنا إلى علم الفيزياء, من أجل ذلك. بل الذي يهمني هو أن هيغل, قبل لينين بقرن وقبل تطور الفيزياء ومختلف العلوم, ذهب, في مناظرته الفلسفية (أي بالمضاربة النظرية, Speculation) ضد كنط, حول مقولتي الزمان والمكان, إلى القول بما معناه إن هذين الاثنين لابدّ أنهما أيضاً واحد. أي إنه تجاوز ثنائية الزمان والمكان (أو الفضاء, المجال, الفراغ, حسب الحالات, في الترجمة العربية لـ Espace)[4].

القصد؟... رد الاعتبار لفكرة الـ Speculation (المضاربة النظرية, النظر أس2. إن من يرفض النظر أس2 يخذل النظر!) والاعتراض على... مانوية وثنية القواميس البشرية.

بدون ذلك تبقى فكرة العقل مخصية.

من آينشتاين إلى... الهند. تقول الرواية:

في أواخر القرن 19, دخل عام فيزيائي انكليزي شاب على شيخ هندي فيلسوف. وسأله: إذا كان في يدي حجر وإذا قذفته نحو اللانهاية فوصل إليها, إلى أين يكون قد وصل؟ أجابه الشيخ: يكون قد عاد إلى يدك: فابتسم العالم الأوروبي واستأذن وانصرف. وابتسم مضيفة. بعد قليل, ثبتت المعرفة العلمية كلام الفيلسوف الشرق... الأزمة: آنذاك ذهب بعض العلماء إلى حد التصريح بأن المعرفة العلمية الفيزيائية أكملت الشوط, أكتشفت الحقائق الجوهرية, ولم يبقى شيء ذو أهمية للبحث والاكتشاف. الأزمة (أزمة المعرفة العلمية, الانقلاب, الثورة الدائمة) بدأت بعد قليل. ثم... الفلسفة الماركسية شردت. ودُعي هذا الشرود «المادة الجدلية».

الشرح

1- بخصوص «الفكرة المطلقة» الهيغلية:

1- يعتقد الرأي العام الماركسي أن موقف أعلام الماركسية «الفكرة المطلقة» الهيغلية هو الرفض المطلق والنبالي.

2- فعلاً هذا ما توحي به معظم أقوال الأعلام المعنيين.

3- لكن هناك أقوال لهم بالعكس وهي ذات دلالة ضاربة.

4- بالأساس. هيغل هو المعني.

5- لا يمكن أن «تستقيم» ؟ ماركسية بدون مواجهة هذا «الإشكال» بدون طرح هذه المسألة وحلها. فهذه المسألة يمكن اعتبارها النقطة ـ البؤرة في ابتعاد الماركسية عن الجدل.

هذا ما آمل العودة إليه وعرضه منهجياً خارج هذا المقال.

2- وكتاب الـ ؟. تأليف توماس بين payne, عبر من ايديولجية الثورة الأمريكية وإلى حد كبير عن ؟ عصر الأنوار عموماً (ق18) بما فيها حقوق الإنسان.

ددیکارت أيضاً رفع هذا اللواء (والحس السليم هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس) ضد الارستقراطية والعصور الوسطى, لصالح فكرة الطريقة أو المهج. ولصالح أو العامة أو لنقل: لصالح «الأمين», «الناس», «التقويم», ضد «شعب الله المختار» أياً كان (رجال دين, رجال علم, فلاسفة, سلف صالح).

3- فكرة القياس ؟ هي أولاً فكرة نسبية, تناسب, وثانياً (أو عاشراً) هي القياس بالمتر والسينتمتر أو الغرام والكيلوغرام أو الدرجات.

كلمة «قياس», في التاريخ العربي والفكر العربي المعاصر, تستحق دراسة نقدية متأنية.

1- فهي تستعمل للمشابهة أو المضارعة ؟ : قياس حالة على حالة, محاكم متسببة إلى حد لا بأس به, قياس خاص على خاص بدون عودة رعاية واحدة إلى عام.

2- وتستعمل للاستنتاج الأرسطوي ؟ (استنتاج خاص من عام).

3- وتستعمل لفكرة القياس الرياضية (والفلسفة) ؟ التي كثيراً ما تنحط في التعليم إلى قياس بالمتر والمسنتيمتر بعيداً عن فكرة التناسب والنسبة التي يمكن بدورها أن تغرق في الكم الاصطلاحي ضد المنطق والحقيقة.

على سبيل المثال, يمكن أن تسأل رجلاً مثقفاً: هذا الماء (ا) حرارته 30 درجة وذاك الماء (ب) حرارته 10 درجات, كم مرة حرارة الأول أكبر؟ ـ ثالث مرات!!! يمكن أن نتابع المداعبة: وإذا كانت حرارته الأول 10 درجات وحرارة الثاني خمسة تحت الصفر؟

العام قياس. هذا القول يمكن أن يُعطي معنى صحيحاً وعميقاً ويمكن أن يعطي معنى متشابهاً... وزائفاً.

كذلك العمل الإنساني. أنه, حسب هيغل, قياس ؟ هدفه ؟.

4- هل الصفر موجود؟ عل اللانهاية موجودة؟

إذا طرحت هذا السؤال وهذين السؤالين على «العقل السليم» الماركسي يمكن أن تنال الجواب التالي: الصفر خير موجود (بديهة!), اللانهاية موجودة (بديهية أخرى): فالعالم لا نهاية له في المكان والزمان وفي العمق الفيزيقي للمادة (تجزئة الذرة وتجزئة الالكترون أو الكهروب أو الغسوءون إلى ما لانهاية).

هذه «الفيزيقية» المناطحة إلى ما لا نهاية فكرة اللانهاية وفكرة الصفر وفكرة الرافع.

1- الجدل اعتراض على «موجود» وعلى التالي موجود / غير موجود. النابع للإدراك الحسي (هذه الطاولة موجودة أمامي والطاولات موجودة في أماكن كثيرة, بخلاف العفاريت).

2- الصفر «أكثر» من موجود: أنه فعلي واقعي. وثمة فرق كبير «موجود» و«واقع».

3- أما عن اللانهاية, ؟ به هو «اللانهاية في المنتهي» الفكرة التي امسكت بها فلسفة عصر النهضة (ق10) ؟

ولتردد وراء ماركس (بصدد علم الاقتصاد) وراء إنجلز (في جدل الطبيعة) قول الابطال غالياني: «تلك اللانهاية التي لا تبلغها الأشياء في التقدم, تيقضها في الدوران, ...(الصفر واللانهاية فعلان لأن العالم سيرورة).

5- انظر جورج لوكاكش, عظيم العقل الجزء الأول, الفصل المخصص لـ «الجذور الغنوزيولوجية للاعقلانية الحديثة» الحقيقة, بيروت.

6- أنا أشك, أنا أفكر. إذن أنا كائن, أي أنا كائن كنفس مفكرة. أولاً.

هذا هو منطوق الـ «أنا أفكر أنا موجود, الديكارتية.

الوعي الماركسي العام يستغني عن هذه «المثالية». يأخذ على هذا المنطق صلته بالعقيدة المسيحية. ؟ ـ ضده وكبديل عنه! ـ المنطق التجربي المادي (أنا أحس, أدرك, أرى ← الأشياء, العالم الخارجي). مع أن المستغنى عنه هو منطلق كل الفلسفة الحقيقية منها تغيرت الأشكال. الصلة بالعقيدة المسيحية ليست مأخذاً. الزوج المفهومي الماركسي مادة / فكر. طبيعة / روح. ذو صلة بالتالي الديني التوحيدي (مادة / روح. جسد / نفس).

ولا ريب أن هناك علاقة بين منطلق ديكارت وثلاثية أوغسطين (أنا أشك. أنا أؤمن, لكي أفهم, أو موقف أوغسطين, (إذا كنت أخطئ فأنا كائن)... يمكن مناقشة هذه العلاقة (يمكن إعطاؤها تأويلات مختلفة). لا يمكن «نفيها» أو إنكارها.

رجوعاً إلى مستوى «الفعم» و«العقل». المصطلحين الهيغليين:

إذا قلت «جان هو إنسان» فهذا الحكم فهم. إذا أضفت: ما هو خاص هو عام, أذن وحدة أو هوية الضدين (فالخاص والعام ضدان) فأن هذه الاضافة تنقلني إلى مستوى «العقل».

أذا قلتُ «هذه طاولة», فإن هذا الحكم هو إدراك صحيح وزؤية حقيقية إذا اضفت: فكر «لحالة» هي كلي (عام) و«لا يوجد في اللغة سوى الكلي», أكون تجاوزت إلى العقل أو الجدل في أس المعرفة التي هي معرفة الواقع.

7ـ عن أوغست كونت, أفكاره ونفوذه, انظر جان وال Wahl: لوحة الفلسفة الفرنسية (ص. 90-97, من الطبعة الفرنسية, ؟, ؟, 1962) ـ توجد ترجمة عربية.

الوضعي (الإيجابي) هو الحقيقي (الواقعي, الفعلي), المفيد (النافع), الأكيد (اليقيني), الواضح (الدقيق, المضبوط) مونت يربط أيضاً الإيجابي بفكرتين أخرين هامتين: العضوي والنسبي ـ هذا يعيطينا لائحة الكلمات العزيزة في قاموس كونت (وبالتالي وبالمقابل لائحة الكلمات الكريمة الممكنة والتي يمكن تنويعها...).

الحالة الوضعية تهيمن عليها فكرة الارتباط, فكرة القانون, طاردة فكرة السببية.

علم البيولوجيا يجب أن لا يتعدى الأنسجة والأعضاء, الخلية تجريد ميتافيزيقي. ـ عالم أوغست كونت «العلمي» عالم الخصوصي ضد الكلي والمفرد بآن معاً وبالتلازم.

علم السوسيولوجيا يجب أن لا يتعدى العائلة.

لا فائدة من دراسة النجوم البعيدة, كونت يطرد علم الاسقروفيزياء (الفيزياء الفلكية).

يطرد كذلك دراسة أصل أو منشأ المجتمعات.

حسب رأيه, الحالة الوضعية لم تنتصر بعد تماماً. ما زال هناك حزب تقهقري تسيطر عليه التصورات اللاهوتية وحزب ثوري تسيطر عليه التصورات الميتافيزيقية. علموية كونت وخلفائه المنوعين دخلت في البناء الفكري لأقصى اليمين, مثلاً شارك موراس. هذا الزعم العلموي ولده في التصور النازي, إلى جانب الأسطورة. كونت (1788 ـ 1857) جاد مباشرة بعد عصر هيغل وعمالقة الذروة الأوروبية. ألقى «دروس الفلسفة الوضعية, في السنوات 1830-1842.

أثر تأثيراً كبيراً, متنوعاً ومديداً, في فرنسا, أنكلترة, الولايات المتحدة, أمريكا الجنوبية, البلاد العربي, تركيا الخ, على الإيديولوجيا العامة, على طريقة المعرفة, العلوم, وعلى الفكر السياسي في اليمين واليسار. دولة البرازيل الناشئة تبنت شعاره «النظام ؟ والتقدم».

يمكن اليوم أن نرصد تأثيره في ندوات المفكرين العرب, في «لغة» المثقفين. إنه «صاح».

8ـ قصدت عبارات: «الزمان ـ المكان» (آينشتاين), «غزو الفضاء», «المجال الحيوي» للألمان (هتلر), «الهندسة الغراغية» كلمة «مكان» تعني أيضاً ؟ (محل): مكان, أماكن.

كلمة «يحال» يمكن أن تجمع المكان والزمان, المجال المكاني والمجال الزماني. ـ في لغة البديري الخلافي وعصره (ق18). العامية, ترد «محل» («محل آنذاك العشاء») بمعنى «وقت». كذلك اليوم بصيغة الفعل: «حل» بمعنى «آن الآوان».

لا لغة (لغات!) الأوروبيين ولا لغة العرب. الفصحى, ولا غيرها, يجوز أن تكون نموذجاً و«مثلاً أعلى» ومعياراً. الفكر يجب أن يستخدم اللغة واللغات. الغربيون يجب أن يخرجوا من دائرة فقه اللغة, حتى لا يفتلوا الفكر واللغة والعروبة, يجب أن يفعلوا عن اعتقادهم المضني أو الصريح

بأن واجبهم هو «متابعة, عمل الأوائل, «مواصلة» الخط. يجب أن يدركوا أن الأوائل أسسوا وبنوا علماً. أي علماً محدداً. أي أنهم ؟ من / في واقع ؟ ينخطاه حكماً. يجب أن يمرا ان المتابعة الحقيقية تقتضي العودة إلى الأساس وما تحت الأساس وما حوله, إلى الواقع ومعقوليته, إلى الإنسان والعصر: عندنا.

هذا من الجهة العربية.

في جهة ثانية. الجهة الماركسية العالمية. لا بأس من أن أنقل ما يقوله عالم الرياضيات الفرنسي الكبير (الماركسي) لوان شفارنس ؟ في محاضرة بعنوان الماركسية والفكر العلمي (دفاتر مركز الدراسات الاشتراكية, العدد 11-11 مكرر. 1-1961/11/15). شفارنس يتكلم عن مسائل في تاريخ العلوم. عن الفيزياء ونظريات الضوء. ثم الرياضيات والواقع, عن الرياضيات والمنطق, فيقول (ص25):

«بالحقيقة. لم يكن الماركسية تأثير حقيقي على هذا التطور. بل أعتقد أن معظم الماركسيين, بوجه الإجمال. أساؤوا فهم معنى هذا التطور. إنجلز سخر من الأعداد المعقدة ومن الهندسات غير الاقليدية بوصفها خيالات ؟ رياضيين. ولنذكر أن الأعداد المعقدة والعندسات التي فيعا للمكان يُعد مختلف من ثلاثة, يعمل بها جميع الفيزيائيين اليوم».

الجدل
مجلة الوحدة العدد (18) - 1986

1- جدلان: شرقي, يوناني - أوروبي

ثمة جدلان ممكنان كلاهما موجودان وعالميان.

مع ذلك, وبعد تأكيد عالمية الجدلين, وبعد الاعتراف بما للمصطلح من صفة الحقيقة وما له من صفة الاصطلاح والتجاوز على الحقيقة (فكل مفهوم هو «قطع»), سأدعو الأول «جدلاً شرقياً», والثاني «جدلاً يونانياً - أوروبياً».

الاثنان أطيا نتاجات عظيمة. الاثنان يعملان بالمفاهيم, الاثنان فكر, وفكر فوق المألوف.

«شرقي» كمصطلح ذي حقيقة ويحيل, جوهرياً, على ما وراء العرب شرقاص, كما يحيل أيضاً على ما قبلهم في الزمن التاريخي. هذا الشرق الكبير عالم متنوع وعوالم مختلفة. حضارات عريقة, شعوب كبيرة جداً, أديان وفلسفات وكوسموغونيات, فنون وتقنيات وعلوم: فالصين مثلاً متفوقة, في التكنولوجيا كمجموع مجرد, على أوروبا حتى الفرن السابع عشر. ولو حذفنا - في الذهن - الشرق الأدنى القديم, العرب المسلمين, الصين والشرق الخ, لانعدمت «أوروبا». اليونان, الرومان, أوروبا الوسطوية والحيدثة, أخذوا مادتهم الحضارية والثقافية من الشرق, لا سيما من الشرق القريب, «الشرق الأدنى», ومن العالم غير الأوروبي عموماً. العقيدة الدينية نفسها جاءتهم من عالم العرب, من «آسيا الصغرى» و«أفريقيا الصغرى».

العالم صراع. العالم صيرورة: هذا قوام التصور الجدلي. إنه الفباء الجدل. يمكن أن ننوع الألفاظ:

1- صراع, تناقض, حرب, سجال, «تكاون», تضاد, تعارض, تناف...

2- صيرورة, حركة, تغيير, تحول, تطور... تبقى الفكرة «الأساسية» واضحة عبر اختلاف الألفاظ واختلاف دلالاتها الفكرية (الممكنة والفعلية, الواعية وغير الواعية). وهي كما قلنا, قوام كل تصور جدلي للطبيعة أو الكون أو العالم.

أن فكرة قديمة جداً. حسب فلسفة الطاو الصينية Tsoisme, «الحياة يوم». هذه الأطروحة «الوجودية» واردة, بأشكال شتى, في جميع الحضارات والثقافات. بدون مبدأ «قناة الأشياء», كل فكرة الجدل تسقط منأساسها. لكن الجدل, لا سيما الحديث, لا ينحل في هذا الأساس, بل له أساسات أخرى, وهو يريد معرفة الأشياء, ويتساءل عن «الشيء» و«الواقع».

يمكن القول أن النقيض الجدلي الكار يكاتوري للجدل كفلسفة وكمعرفة هو كراتيل Cratyle, الذي شهره أفلاطون, والذي هو أحد تلامذة هيراكليت, أي أحد متابعي خط الحركة والصيرورة. كان كراتيل يمتنع عن إعطاء أية إجابة على أي سؤال مكتفياً كإجابة عامة بتحريك إصبعه الصغير قاصداً: كل شيء يتحرك, يتغير, لا شيء ثابت. هذا وجه للأمور. كما قلنا: أن المفهوم مدحلة تسوية, هوية عادمة أو ماسحة, والمطلوب أن تفعل فعلها المِدحلي في البداية (لا النهاية). مفهوم كراتيل هو الحركة, التغير... لو أن الخط العريق انتهى عند مبدأ أن «الحياة يوم» أو إلى عملية كراتيل الفلسفية لما كان يكون ثمة فلسفة أو ثمة معرفة...

في قسم كبير من الذهن الشرقي (ومن ذهننا الحاضر), ليس الأزلي والعابر ضدين نقيضضين متباعدين بل يمثلان كواحد لا انفكاك فيه, كوجهين لعدمية واحدة! يمكن التعبير عن هذا الواحد العدمي - في مستوى التاريخ - بصيغة ثوران السرمدية وسمدية الثوران. هذا السرمدي بديل «الثابت» وهذا العابر بديل «المتحول», بديلين ساقطين.

إذا قالت الماركسية «الأمة مقولة تاريخية», يفهم قوميون ماعدون وماركسيون موالون أن الأمة مقولة تاريخية», يفهم قوميون معادون وماركسيون موالون أن الأمة مقولة «عابرة», بدلاً من أن يفهموا تكوناً وتشكلاً وثباتاً وتجاوزاً وانتهاء, وأن يتركوا الأزلية السرمدية لله وحده. في الماركسية الصريحة (مثلاً عند ستالين): الأمة مقولة تاريخية ثابتة, مستقرة. لا أزلية ولا عابرة...

و«التاريخية» ـ هذه تعني فكرة التشكل أو التكون ضد فكرة العرق والأصلية والانتفاخ الوجودي لمعين أصلي في الزمن الفارغ المجرد والأرض ـ الصحراء..

العالم صراع. هذه الحقيقة لفتت الأنظار منذ زمن قديم (مثلاً صراع حيوانين من أجل البقاء أو رجلين في العصر البدائي). العالم صراع بين اثنين ـ والتصارع بين متصارعين في حلبة المصارعة صورة ضاربة و«نموذج» مثمر جداً في كتاب كلاوسيفيتس عن الحرب الكتاب الذي يعمل, واعياً بالمفاهيم ـ العالم صراع بين اثنين..., بين مبدأين وجوديين, اليين واليانغ في الصين, بين إلهين (خير وشر, نور وظلام) في المزدائية. كل من الجدلين الصيني والفارسي بناء روحي وفكري كبير. التأبير الصيني (الوخز بالإبر) ذو صلة باليين واليانغ: صراع وتوازم, المزدائية تربي الإرادة: واجب الإنسان أن يساعد أهورا مازدا (إله الخير) ضد أهريمان (إله الشر).

بالمقابل, في الدين التوحيدي (أي دين الإله الواحد والخالق) الطرف الثاني مخفض: إبليس ليس إلهاً. هذا فرق كبير إلى جانب فروق أخرى...

فكرة الصراع فكرة عالمية, شرقية, ثمة يونانية, وغربية. وهي تتخذ أشكالاً مختلفة.

بين مشهد صراع حيوانين مفترسين في الغابة (أو مشهد ذئب يفترس غزالاً بعد مطاردة طويلة, أمامنا على شاشة التلفزيون) و«الصراع من أجل الحياة» عند داروين, «المسافة» كبيرة. ثمة في الموضوعة الداروينية, بالمقارنة مع المشهد الآنف, توسط. يمكن بصدد الفكرة الداروينية أن نقول: «مفهوم», «كلية مفهومية», وجملة صراع الأنواع من أجل البقاء ليس متنفذاً في صراع مباشر بين حيوانين ولا حرب نتخيلها بين جيشين بيولوجيين. في الموضوعة الداروينية عرض وضرورة. بيئة, وتحولات صغيرة متدرجة, تكون أنواع وفصائل وانقراض أنواع على امتداد ملايين من السنين... ثمة هذا عالم معقد يُقبض عليه بتوسط الفكر والمفهوم, أي بوساطة وشفاعة العقل, في مسية نقدية ومسألية على الدوام. الذهاب في العمق ذهاب في المعقولية. هذه المعقولية تكشف صيرورة هي تطور وتقدم وتاريخ.

2- هيراكليت, أفلاطون, أرسطو: الفلسفة

يمكن أن نفترض أن الجدل انتقل من فارس إلى اليونان ـ كذلك, من جهة أخرى, مذهب الذرة / الفراغ الفينيقي, واليونانيون, بعكس الفينيقين, أكدوا الحد والنهاية: ذرات أخيرة لا تتجزأ Atomes ـ الجدل الفارسي انتقل إلى هيراكليت: فكرة الثنائية فارسية, فكرة النار فارسية, فكرة الصراع فارسية. ما الجديد؟ ما التحوّل الذي يحدثه هيراكليت والذي سيأتي بعد هيراكليت, على يد... «الفلسفة» (بارمنيد, أفلاطون, الخ)؟

لعله يجب أن نلاحظ أولاً بأول أن الصراع عند هيراكليت يُرفع, يصير إلهاً ـ هو الإله Polemos (= حرب, سجال... ومنها مساجلة, مناظرة Polemique) كأنه إله ومفهوم قائم فوق المادّات والماهيات. والوجه الآخر هو الضرورة أو القدر أو القدر ـ الحظ (eimarmene باليونانية), وهو أيضاً ظهور أو بروز فكرة اللوغوس (الكلمة, كلام, و, عقل, ربط, بل ورياضة, حساب). لوغوس Logos سوف تعطي logique (منطق) و loi (قانون). اللوغوس شرع متعالٍ, سنة فوق البشر, «كتاب» أعلى, فاعل في العالم ومعيمن: على هذا الخط سوف تعمل فلسفة وفلسفات.

والذي يلفت الانتباه هو أن هيراكليت (أو الخط الذي دشنه هيراكليت) يعمل بثنائيات حسية بسيطة وشعبية, ويتعامل معها فلسفياً, ونظرياً, إذن يتعامل معها كفكر ومثل ومفاهيم: البارد والساخن, الفوق والتحت, المليء والفراغ أو النادر (فارغ؟ نادر؟ ـ مادية العالم؟ وجود وعدم؟). هكذا الفلسفة اليونانية: محسوسيات ـ مفهوميات. ـ حسب المعرفة المفهومية: البارد والساخن الفيزياء المعاصرة. المفهومية تلغي «اثنائية الجوهرية», و«المثنوية» ـ. هكذا بارونيد وزينون الإيلي, السوفسطائيون, الريبيون, الخ. هكذا أمثلة السهم الذي لا يتحرك, أخيلس الذي لا يلحق السلحفاة, وهكذا صلع الأصلع: متى تقول عن الرجل الذي يفقد يومياً شعرتين من رأسه إنه أصلع؟ («تحوّل الكم إلى كيف», تدرج وقفزة)... الإغريق فلسفوا أبسط الأشياء أو العمليات الحسية. كانوا في الفلسفية والشعبية بعيداً عن العلموية, أو عن «العلمية» و«الدينية»...

التراث الماركسي يضم هيراكليت إلى «المادية الفلسفية», يجعله جدّ «المادية الجدلية». أليس هو القائل «العالم لم يختلقه أي إنسان ولا أي إله, إنه نار تشتعل وتنطفئ أزلياً»؟ كلن من أقواله أيضاً: «منزل الإنسان, هو الله»... ربما يجب أن يُضم أولاً إلى هذا الذي يُرجم تحت اسم مذهب «المثالية الموضوعية», مذهب واقعية المثل الذي يكون «نقيضه» الواعي والإيجابي مذهب مثلية الواقع. لعل هيراكليت يمهد بطريقته الخاصة. في الفلسفة ـ متابعاً خطاً شرقياً قديماً ـ لإله من نوع آخر, ضد الآلهة, ضد الإحيائية ـ الأرواحية Animisme. هذا الإله النافي لا يأتي إلى العالم من اليونان ولا من «الشرق» بل من العرب أو «الساميين».

كم خيراكليت (سجال, لوغوس, قدر ـ قضاء, صيرورة) تنتقل عبر فيثاغور (الكمّ) وبارمنيد (الكينونة أو الوجود Etre, «الواحد والكل») الخ إلى أفلاطون: المثل.

أفلاطون يقضل المثل, التي هي في حقيقتها كليات الواقع ومفاهيم المعرفة, وبالتالي يؤسس المعرفة بهذا المعنى وفي هذا المستوى (المعرفة واعية نفسها, الفكر الواعي ذاته يؤسس المعرفة بهذا المعنى وفي هذا المستوى (المعرفة واعية نفسها, الفكر الواعي ذاته كفكر) ويؤسس ضلاض المعرفة الذي هو نسيان الجانب الآخر: الكليات اسماء المفردات اللغوية ليست كائنات مفدة, لا فوق ولا تحت, أمامنا... إنها كليات الكينونة, بالأصح, أن الذي يتصور أن المفردات اللغوية (مثلاً «الحصان» أو «الطبقة العاملة» أو «الشعب») هي جواهر مفردة موجودة تخت وليس فوق, لا يتبع الضلال الذي أسسه أفلاطون (المثالية الفلسفية), بل هو غارق في ما ـ قبل أفلاطون, في اللافكرية, في عالم الأشباح, في الفكر الرمزي ـ الشيئي والخليط المدرحي (مادة ـ روح), إنه دون الفهم ودون الرؤية: فهو يرى مثله مباشرة في الواقع, إذن هو لا يرى هذا وارد في نقد (مجحف بمعنى ما) بوجهه هيغل وفويرباخ للشرق الأدنى القديم و«الفن الرمزي» و«الرؤية المنامية».

من أفلاطون إلى أرسطو, من مذهب المثل إلى منطق الشكل والمفهوم (منطق الهوية, تلاحم الخطاب, العقل والفهم والرؤية)... من أرسطو وأفلاطون إلى هيغل, وأوغسطين, ديكارت, الخ, الخ. الكائن مادة وشكل. الواقع واقع وممكن, التحول تغير الشكل, الكون تكون, التاريخ تنويعة على الأشكال الخ و... فكرة التقدم. هذا مسار كبير في مضامينه, متنوع في «مواصلاته», غنى في إشكالاته وإشكالياته. في صراعاته وتناقضاته. حقيقته تتخطى الكروتولوجيا الخطية. وهو تاريخ الفكر, «عنصراً» في جملة دنيوية تتخطاه بوصفها واقعاً وتاريخاً.

3- الهندسة, المنطق, الحقيقة.

اليونان نقلت الشرق الأدنى القديم. أخذت منه جميع المواد وصنعت شكلاً جديداً. وهي تعي ذلك وتعترف به... الأساطير اليونانية شاهدة على هذا الاعتراف المزدوج مع اعتزاز مزدوج: تتلمذاً واستذة. وأخذاً وعطاء. الفروق بين السابق واللاحق عديدة. يهمنا الفرق التالي:

الهندسة علم «قياس الأرض» Gemoetifie. هكذا الأصل, والهندسة المصرية أعطت نتاجات عملية لا مثيل لها. لكن لنلتفت إلى وجه نظري أكثر. الهندسة المصرية «وصلت» إلى «دستور فيثاغور» محصوراً في المثلث القائم الذي تتحقق فيه العلاقة 3, 4, 5: إذا كان التناسب بين طولي الضلعين 3, 4, كان طول القاعدة 5. اليونانيون جردوا, حذفوا النسبة 3, 4, ألغوا هذا التعيين. قالوا: «في كل مثلث قائم...», لا فرق (=سواسية, لا مبالاة) في أن يكون طولا الضلعين 3, و4, أو ! و7, تحرروا من «الجمالية» الحسية, دفعوا فكرة الصورة ـ الشكل في هذا الاتجاه الغريب.

ورياء تلك الهندسة الاقليدية نعلم تلاميذنا: سواء كانت الرسمة صحيحة أو لا , البرهان يجب أن يكون صحيحاً, لا يهم صواب ودقة الرسمة, المهم صواب البرهان الذي له بداية ونهاية وطريق هو تسلسل, والأفضل, إذا طلب منكم البرهنة على وجود ثلاث نقاط في استقامة واحدة, أن ترسموا الرسمة بما يخالف ذلك قليلاً, دفعاً للاختلاط بين البداية والنهاية, بين المعطى والطلب, بين المقدمة والنتيجة.

والشعب اليوناني كان «يفتح فاه» مندهشاً أمام كلمة «كل» في «كل مثلث...». كذلك «كل جسم مغطس في الماء...», مبدأ ارخميدس.

لا أحد يستطيع أن يرى كل جسم, جميع الأجسام, ولا ربع الجميع. بل لنقل: ثمة فرق بين «كل» و«جميع»!... استقراء؟ - لا. بل عقل ومعقولية..., مسلمة المنطق: الإنجاز الكبير... و, الحقيقية كقيمة علينا, الاستقراء تابع لهذه المسلمة المنطق, الحقيقة, تلازمها. يجب أن يُفهم «الاستقراء» بالمعنى اللغوي العربي. قراءة الواقع البالغة الصعوبة, استنطاق الواقع, السعي إلى الحقيقة. المنطق علم الحق le Vrai.

الحقيقة! يُروى أن العالم الفرنسي الكبير هنري يوانكاريه Poincare كاد أن يكتشف نظرية النسبية قبل آينشتاين. وقف أمام الباب, لم يدخل... الفرق بين الرجلين؟ لعله في ما يلي مثلاً:

بوانكاريه «مواضعاتي» يؤمن أن الحقيقة العلمية هي «مواضعة» أي اتفاق بين العلماء, اصطلاح بسهل العمل العلمي الخ. آينشتاين الذي كان شاباً مغموراً يؤمن أن الحقيقة هي الحقيقة. وكل الفلسفة الحقيقية, بما فيها الريبية الفلسفية, خلال نيف وألفين من السنين, تؤمن بالحقيقة, كمبدأ وكغاية, كمسعى (حتى مع الطعن: الريبة الفلسفية). أي هي تؤمن بالحقيقة ضد «المصلحة» و«العملي» و«المنفعة», ضد «الرأي» والأهواء. ضد «الاتفاق» و«الإجماع» وما شابه. كوبرنيك أو نيوتن أو آينشتاين على حق رغم أنف الإجماع السائد. وهم على حق بالضبط ضد خذا الإجماع, أي هم على حق في المعارضة بين موقفين محددين أحدهما «الإجمالع» المعني. بواناكريه عالم رياضيات كبير جداً, عالم في الهندسة والهندسات (الاقليدية وغير الاقليدية), في الفيزياءء الخ, آينشتاين, التلميذ على مقاعد التعليم الثانوي, غرق في مسائل الهندسة الاقليدية. افترض أنه لا يعتقد أن هذه «اللعبة» التي تستهويه هي «لعبة منطقية» بلا واقعية أو حقيقة. شاباً, نشأ فلسفياً على قراءة هيوم وسبينوزا وأرسطوا وبركلي الخ..

عمليات الهندسة الاقليدية في صف الكفاءة تدريب ممتاز من أجل تكوني العقل, الموضوعية. الضرورة. «كل من هذه المسائل هي إذن بمثابة نظرية أو دستور؟», هذا ما يسأله التلميذ الذكي, والمعلم الذكي يجيبه بلا تردد ولا حنبلية ألفاظ: «نعم, بالتأكيد»... هنا, لا مجال لـ«الحرية» بين مزدوجين. العالم. ليس على كيفي وكيفك وكيف فلان ولا حتى 4 مليارات فلان. وهنا الحرية بلا مزدوجين! إنها وعي الضرورة الحرية انضباط. و«المصادفة صرامة وتعفف» (أرسطو).

إن إحدى مزايا الماركسية وآثرها أنها لم تلغ المطلق, لم تحل الحقيقة في قول شهير ومبتذل من نوع «كل شيء نسبي», وأنها ميزت مستويات وجوانب, ميزت مثلاً «الحقيقة من وجهة النظر الاقتصادية الشكلية - القطعية والحقيقة من وجهة النظر التاريخية, الكلية» (إنجلز ولينين بصدد الثورة الفلاحية, ولنقل: بصدد الثورة القومية أيضاً).

إذا قسمنا المذاهب الفلسفية, وراء كتاب مدرسي فرنسي جيد, إلى «دوغماطيين» (=أنصار الحقيقة: ديموقريط وأفلاطون, ألخ, وغالبية الفلاسفة) في جهة وريبيين ولا أدريين وبراغمائيين في جهة مقابلة, يصح أن نضع الماركسية الواعية في الصفين. لكن يصحح أيضاً أن نجمع كل المدارس الفلسفية في جهة والبراغماتية و«ما حولها» في جهة, وفي هذه الحال تكون الماركسية في الصف الأول, مع أفلاطون وديموقريط وديكارت وهيغل وكنط وهيوم والريبية الفلسفية والسوفسطائية الفلسفية الخ. ضضد وليم جيمس وبعض الآخرين. الماركسية الواعي «دوغماطية» (و«رياضية») و«ريبية», دائماً.

4- الكلي

الذي حققه الفكر اليوناني هو الانتقال الوعي إلى الفكر والفكرية. بمبدأ الكلمة (اللوغوس) والحد والمفهوم. هذا الانتقال متابعة لسابق وتطوير وارتقاء إلى حالة جديدة. الجدل اليوناني - الأوروبي جدل مفهومي. المفهوم لا يتطابق مع «شيء». وهو يرتبط بعلاقة». «المنطق البرهاني» تابع لهذا المبدأ وجزء من هذا الجدل. العلم الرياضي المحض جانب ملازم وتابع. وهذا الجدل المفهومي كان (صار فيما بعد) أساساً لفكرة التاريخ وفكرة التقدم اللتين ارتكزتا من جهة أخرى على دين الإله الواحد <Monotheisme

اذا اتخذنا هيراكليت مرجعاً لفكرة الجدل (الديالكتيك). أمكننا القول

من هيراكليت يستطيع الفكر أن يذهب في أحد اتجاهين:

1- شرقاً, تحت ألوية الوجود, الجوهر والجواهر, المادات والماهية. و, الكون «تكاون» هذا الذهاب رجوع.

2- غرباً, تحت ألوية الفكر, والشكل, المفهوم, الحد. و, الكون تكون. هذا الذهاب تقدم.

المفهومية, المعقولية نفي للجوهرية الماهوية, «الشيء (مثلاً هذا الكرسي) جملة تعينات كلية, ليس جوهراً», في هذه العبارة يمكن أن نختزل القضية.

«اللغة العربية لغة الضاد». هذا كلام جيد. أما إذا تصورت بعد ذلك أن الضاد (هذا الحرف, هذا الصوت) خاص بالعربية دون سواها, عندئذٍ أكون انتقلت من الكلم الجيد إلى الخصوصية - النوعية, إلى الوجودية - الجوهرية وإلى اللاعقل, بموجب مصادرة ضمنية.

مصادرتي الصريحة بالعكس: إذا كانت الضاد موجودة في النطق العربي, أي عند جماعة من البشر, في لغة من لغات بني آدم, فلا بد أنها موجودة في بضع لغات أخرى, في كثير من اللغات (في ما لا حصر له من اللغات لو كان عدد اللغات في العالم لا حصر له). وإلا فإن العالم بلا عقل أو عقالة أو معقولية... بعد هذا «التخمين», أذهب واسأل عالماً باللغات, عرفاً مختصاً, فيقول لي: الضاد موجودة في لغة شعب كذا ولغة فبيلة كيت الخ.

إذن لا يوجد للغة العربية أية «خصوصية»؟؟

-1) لا يوجد للغة العربية أية خصوصية إذا كنتم تقصدون بالخصوصية خصوصية عنصر أو جانب أو شيء يكون «ملك يمين» العربية 2) يوجد للغة العربية خصوصية أو بالأصح مفردية أو تفرد أو فرادة, شأنها في ذلك شأن كل لغة حية (أو ميتة: أي حية في الماضي). وفرادة لغة من اللغات هي فرادات (ككل أو جملة Totalite). هذا «الجمع» غير ذلك وغير ذلك. وهو حي لأنه «جمع», كل. وإذا حل العالم إلى «عناصره الأخيرة» فإنه عندئذٍ يتساوى وينعدم.

5- «الميتافيزيائية» والتجربية - الدوغمائية

الجدل كطريق فكر وطريقة معرفة يتعارض مع التجربية - الدوغمائية.

الماركسية السائدة أذاعت المعارضة بين الجدلية والميتافيزية واعتبرتها معارضة بين «طريقتين». هذا كلام ملتبس وباطل. المعارضة الآنفة هي, أساساً وبالأصح, بين تصورين للطبيعة أو العالم, وقد اشتملت في عرض ستالين ومقلديه على باطل لا بأس به. ستالين يلغي الدائرية ويلغي نفي النفي بل ويستغني عن النفي. بدون فكرة الدائرة والدائرية, التصور المادي والجدلي للطبيعة مُحال...

من جهة أخرى. إن المعارضة بين التصورين الميتافيزي الميكانيكي والجدلي للطبيعة, المعارضة التي شهدها إنجلز, هي, عند إنجلز, معارضة بين «عالم أشياء» و«عالم عمليات أو سبرورات Processus». مع ذلك, فقد ظلت الماركسية في علم الفيزياء متمسكة بالنظرية الجسيمية. أخيراً, أن بول لانجفان (وهو من أكبر فيزيائي القرن العشرين ومن أهم شيوعيي فرنسا), الذي كان قد دافع طويلاً عن النظرية المادي - الجسمية - الميكانية, انتهى إلى الطعن بهذه الفكرة - الجسيم Corpuscule - المستمدة من الإدراك الحسي للأجسام بالتوسيع المتجاوز («جسيم» تصغير «جسم») والتي يمكن أن تكون قد أصبحت عقبة أمام تقدم علم الفيزياء, هذا ما ينقله عنه ابنه جان لانجفان, في محاضرة صدرت قبل نيف وعشرين سنة.

بول لانجفان يؤكد التمسك بالـ Delerminisme (التعينية, مذهب التعين أو التحدد), لا بالميكانية أو الجسيمية.

لنقل أن هذه الكلمة Delerminisme - التي يترجمها البعضض بـ «الحتمية», والتي توحي لـ «العقل السليم» بهذا المعنى (محتوم, حتمي) عند الفرنسيين أيضاً - يجب أن تعاد إلى أصلها اللغوي الذي هو Terme, Delermination أي: حد, تحديد, تعيين, عندئذٍ يكون معنا: حين تكتمل التعينات تقع الواقعة. طالما لم تكتمل التعينات, الواقعة لم تقع بعد, الحاصل لم يحصل. إذن, وحده الواقع (الذي وقع) محتوم. ما لم يقع فهو ليس محتوماً, يمكن أن يكون مرجحاً بنسبة تزيد كثيراً عن 99,99%, احتمال عدم وقوعه لا يزيد مقلاً عن 1 من 10 % (واحد وخمسيين صفراً), لكن ليس ثمة «حتمية» مطلقة, تامة, 100& قبل الوقوع. هذا ما تشرحه فيزياء الأجسام («دروس الأشياء»!) اليوم بأمثلة

مؤسسة جيداً ندعوها ـ استفزازياً ـ «معجزات» مثلاً معجزة فلان من العلماء, وسأسميها هنا «معجزة الطاولة».

هذه الطاولة قاعدة على الأرض. لا يمكن أن تتحرك, أن ترتفع فوق الأرض, بسبب الجاذبية, جاذبية الكرة الأرضية. الطاولة هامدة... هذا صحيح, شرط أن لا يتخطى حدوده. فالقضية لها وجه آخر: في المنطق الآنف, حذفنا حركة كتيلات Molecules الطاولة, ومعنا حق: ملايين الكتيلات تتحرك دائماً, وحركتها عشوائية. وبالتالي يحيد أي يبطل بعضها بعضضاً في مستوى الجسم ـ الطاولة. «الطاولة هامدة».. لكن حقنا غير مطلق, ماذا لو اتجهت نسبة معينة من كتيالت الطاولة في نفس الاتجاه (مثلاً إلى فوق) في لحظة معينة؟ عندئذ, تكون هناك قوة مقابلة لقوة الجاذبية الأرضية. وبعد عقبة محددة (معلومة, يحسبها الفيزيائيون) تغلب تلك القوة قوة الجاذبية فترتفع الطاولة, هذا الاحتمال صغير جداً جداً (ويحسبه الفيزيائيون في كل حالة), والأرجح ترجيحاً كبيراً أننا سوف نموت جميعاً قبل أن نشاهد طاولة ترتفع. لكن من لا يعرف هذه «المعجزة». من يرفض هذا المنظر, إنما يضع نفسه «خارج علم الفيزياء». هذا ما يشرحه كتاب من كتب سلسلة «العلم للجميع» السوفياتية... إن المعرفة العلمية لا «تنفي» العشوائية, بل تعترف بها, لسان حالها: قوننة العشوائية. الماركسية السوفياتية في زمن ستالين كانت تنبذ الاحتمالية. والذهن العربي مازال في معظمه بعيداً عنها, غارقاً في «الآلية» + «الإعجاز».

«الآلية» هذه جزء من الطريقة التجريبية ـ الدوغمائية التي لها مرتكزات شعبية وطبيعية في الحياة, في العمل الإنساني, في المعرفة العلمية, لكنها تتمذهب, تستطلق, وتتصور أنها هي العقلانية والعلمية الخ. إنها المألوف والسائد في الفكر العربي لاسيما السياسي.

التجريبية ـ الدوغمائية تبدأ بـ «الواقع» وتنتهي إلى «تبخيره» (تبديده) في مجردة أثيرية تسميها «القانون» أو «الجواهر» الخ. هذا الجوهر يمكن أن يكون حسب الحالات:

1- «صراع الطبقات» (مثلاً في دراسة التاريخ العربي أو الحاضر العربي أو الحاضر, العالمي, تنتهي إلى «صراع الطبقات»).

2- «الرأسمالية» (مثلاً في دراسة بلد من بلداننا تنتهي إلى «الخلاصة»: بلدنا مجتمع رأسمالي أو برجوازي, ويا للقبح!).

3- «الأمة», «الصراع القومي», «الصراع الثقافي»...

4- الجاذبية (الكون جاذبية), المادة والحركة (العالم مادة وحركة وربما التاريخ كذلك!).

الجدل عكس هذا الطريق المألوف... إنه يؤكد على التباس فكرة «البدء بالواقع». لا أحد يبدأ بالواقع, كل يبدأ مسلحاً بكلماته (واحداهن «الواقع»). الواقع الذي ندعي البدء منه هو اختلاط ذاتي ـ موضوعي. الجدل يتخذ الواقع غاية أخيرة لعملية المعرفة, يعي في المبدأ الفرق بين الواقع والمحسوس, بين الواقع والمباشر, بين الواقع والظاهر ويستهدف الواقع كجملة لها منطق وذاتية وحياة.

بما أنه يبدأ من الصفر ليتقدم بالحد والحدود في عملية إنشاء الجملة فهو لا يستجد لأي حد, بما أنه يصل إلى الواقع كجملة, إلى الحالة المفردة (مثلاً الوطن العربي اليوم, هذه المدينة أو القرية أو الحارة, العالم في عصر معين) فإنه يستطيع أن يؤشرو في اللوحة ـ الجملة, على «حلقة حاسمة» أو «فرق دقيق» أو بؤرة التقاء تكون هي «الرافعة» للعمل.

الطريق الأول ـ المألوف ـ عاجز عن إرشاد العمل بشكل صحيح. وهو بالحقيقة لا يرشده في الحاصل الفعلي, العمل يُسلم للتجريبة (والبراغماتية) والنظر ينحط إلى كلام ودعاية.

هذا ما يفرض قوله هيغل وماركس, وهذا ما تفرضه الترجبة العربية والعالمية في عصرنا. لكنه يرتكز على شيء قديم هو: «الفلسفة», فكرة «المفهوم» الواعية, فكرة المعرفة ـ الطريقة. كل مرحلة في «البسط» تتابع وتنمي وتبلور وتحقق اتجاها أو بذرة أو جانباً «موجوداً» في مرحلة سابقة.

6- نظرة على نموذج

في أية «مرحلة» يعيش الوعي العربي المعاصر الإجابة صعبة, الحالات متنوعة, كلمة «مرحلة» (ذات الحظوة الكبيرة في قاموسنا الحالي) غير مناسبة.

التجربية ـ الدوغمائية, الوضعوية, العلموية, الخ قائمة عندنا ومدهرة فوق أساس من الوجودية واللاعقل, هذا يعطي نتائج مختلفة في الفكر العربي اليوم. الذهن مشدود نحو اليقين, يبحث عن يقين, فوق قاع من أشباح الصيرورة والتحول والزوال, التي يمكن أن تستمد تعزيزاً إضافياً من تطور العلوم في عصرنا. «المتحول» يأكل «الثابت», لكن الثابت الحقيقي في الذات المعادية لعالم وعنه كأشباح هو «الشعور» الذي قد يكون «ثورياً» وقد يكون محافظاً, قد يسمى عقلاً, وقد يوضع كضد للعقل, وقد يكون مع المادة أو ضدها, في تشكيلات مختلفة حسب الحالات.

ولئن كان أفلاطون والفلسفة ينشدون بينهم ويجدون ثابتهم في الفكر والعقل والمنطق مقابل الأحاسيس والشعور, فالأمر بالعكس عند شوقي ضيف مثلاً. هنا: «المادة لا تفنى» إذن «الأجسام كذلك», لكن هذا يعني أن «الثابت» هو «عالم الشعور والأحاسيس». «الحقائق النفسية الكلية» والتي «هي حقائق دائمة», «حقائق الشعور المطلقة الثابتة», بعكس «عالم الفكر والعقل», الذي «هو كل يوم في شأن», «قوانينه قابلة لأن تصبح باطلة و«غير ذات موضوع», و«حقائقه».

بما أن القارئ قد لا يصدق وقد لا أصدق معه, بما أن القارئ يعتقد, وهو مبرر في اعتقاده, أن في هذا الكلام مبالغة وتحاملاً, وبما أننا أمام موقف أنموذجي, وبما أن كل نظرية في الشعر والأدب والفن, وكل نظرية في الجمالية أو الاجمالية, تفترض ضمنياً أو بشكل صريح غنوزيولوجية أو أونطولوجية, نظرية معرفة ورؤية للوجود, وبما أن هذه النظرية أو الرؤية يصرح بها على نحو حاد في هذه الصفحات من كتاب الدكتور شوفي ضيف, دراسات في الشعر العربي المعاصر (دار المعارف بمصر 1969, ص 28 ـ 29, ص 85..), بمناسبة شعر الزهاوي, «العلم في شعر الزهاوي», لذلك يجدر بنا أن نتوقف عند هذه الصفحات.

باختصار, العلم هو العلم Seience, الشعر هو الشعور, لا شيء آخر. في العلم, شوقي ضيف يكتشف تناقضاً منطقياً عند الزهاوي: «لا أدري كيف قال «لا جسم إلا وغني بعد أزمنة» فمن «القواعد المعروفة في الطبيعة أن المادة لا تفي»!! (ص78). ضيف يعرف العلم Science, لا يعرف الفلسفة, لا يعرف العلم Savoir. إنه «يعرف» علم الكيمياء, يجهل علم المنطق, ويجهل جهله. بما أن المادة لا تفنى, إذن هناك أجسام لا تفني, أو ـ من يدري؟ «ليت شعري»! ـ الأجسام عموماً ومبدئياً لا تفنى!

ولعل الشعور جسم, لعل «عالم الشعور والأحاسيس» هو الأجسام والمادة. أو العكس (قلب «المبدأ» والخبر), في هوية لا تنفك. فهو الثابت والكلي والمعلق الذي ينشده الشاعر الحقيقي.

«وهذا هو الذي يجعل موقف الشاعر دقيقاً حين يترك عالم الشعور والأحاسيس إلى عالم الفكر والعقل, لأنه يترك الشيء الثابت فينا إلى الذهن وعالمه. وهو كل يوم في شأن. وليس ذلك فحسب. فأنه مسائل وقوانين قابلة لأن تصبح باطلة وتحل محلها قوانين أخرى, وحينئذ تزول كل قيمة لشعره, لأن قوانينه التي بشر بها انتهت, ولم تعد لها موضوع قائم, أو بعبارة أخرى أصبحت غير ذات موضوع» (ص79).

«أليس يتجدد العلم دائماً؟ أو ليس يطلع علينا العقل كل يوم بجديد قد يلغي إلغاء حكماً أو نظرية ضخمة سابقة» (ص85) ـ من يدري؟ لعل آينشتاين ألغى نيوتن إلغاء! ولعل الالكترون ألغى الذرة والأشياء إلغاء!... ما لا يُلغى هو الشعور والأحاسيس لا إلغاء ولا نصف ـ إلغاء!

وشوفي ضيف يتساهل مع فن الشعر, فيقبل المزج بين المملكتين, وينصح «الشاعر حين يتعلق بالعلم أن يمزجه بالحقائق النفيسة الكلية, لأنها حقائق دائمة, ولا تتغير على شاكلة ما نرى في حقائق العلم من تغير وتحول دائب مستمر. والشاعر الممتاز هو الذي يستطيع أن يقوم بهذا الصنيع, بل هو الذي يستطيع أن يحول العلم نهائياً من حقائقه الزائلة إلى حقائق الشعور المطلقة الثابتة» (ص85)!!

المنبوذ في هذه القسمة العادلة هو كلية الأساس: الروح Esprit, الوجدان Conscience (وعي, ضمير) الخ, إذن التملك... العمل... في هذه الحال, لا مكان للشعر, للفن. لا مكان لغوته, شيكسبير,

المتنبي, المعري الخ, ولا لشعراء اليونان الذين ذكر ضيف بعضهم بطريقة وأحكام لا مجال لتناولها هنا.

وضعوية حديثة + «شرقية» قديمة = عالم بلا حقيقة. الحقيقة الوحيدة هي الشعور والمادة.

شوقي ضيف يلغي فلسفة الطبيعة باسم العلم., يلغي القديم باسم الحديث, والحديث باسم الأحدث المتسارع الحداثة. بالمقابل, هناك نظريات ومواقف في الفيزياء الفلكية المعاصرة تُعيد إلى نظريات أو أفكار وردت في الكوسموغونيا الهندية قبل ألفين من السنين أو أكثر. لا أعتقد أن هناك عالماً واحداً في العالم يشارك منظر الأدب العربي تصوره عن العلم وتطور العلم...

هنا, أن رفض الجدل (ورفض فكرة التناقض والصيرورة كباطل) يبرز مباشرة كرفض للمنطق الشكلي أو الصوري بالمعنى الأبسط والأكثر ابتدائية, هذا المنطق الذي ينكشف هنا بقوة عن أنه هو منطق الهوية, منطق المفهوم والفهم. آ هي آ, المادة هي المادة, الأجسام هي الأجسام, آ ليست غير آ, بين آ وغير آ يجب الخيار, لا ثالث, لا خلط, ثمة ـ مثلاً ـ فرق بين المادة والأجسام. لأن «كل الأشياء مختلفة» لذك مبدأ الهوية. هذا هو المعنى حسب هيغل وأرسطو.

وليس فقط «المادة» و«الجسم» مختلفان, بل المادة (المفهوم الواحد) و«الجسم» ـ «الأجسام» متقابلان, متعارضان, ضدان... مع هوية الضدين.

المادة لا تفنى = الأجسام تفنى. البشر ـ الأجسام والجبال والأقمار والشموس الخ فانيات = المادة تفنى. «المادة باقية, الشكل يتغير», الأشكال تتغير = المادة باقية, الفناء تغير الأشكال: هكذا فلسفة الطبيعة, هكذا مادية الأقدمين وسبينوزا ولافوازيه وفويرباخ. هذه الوحدة أو الهوية ـ التحول, الصيرورة.

والذي يتناقض. الذي يخالف منطق الهوية وتلاحم الخطاب, هو الدكتور شوقي ضيف. بالأصح أنه يبقى دونه دون منطق الفهم والمعرفة, قبل المحاكمة والفهم Vcrstand, قبل هذا الذي أسسه الفكر اليوناني قول هيغل. شوقي ضيف يبقى في الاختلاط, اللافصل, أشباح الرؤية المنامية. وليس من الإنصاف أن نضم هذه الرؤية إلى الجدل الشرقي, أو لعلع يجب القول أنها حد أخير ممكن: عملية كراتيل أو مبدأ «الحياة يوم», الوجه الآخر للأزلية السرمدية الصائرة هنا عالم الشعور والأحاسيس, الثابت والكلي والمطلق وهلمجرا, المرتبط ارتباطاً بالمادة والأجسام. واقع شوقي ضيف هو «عالم الشعور والأحاسيس», «الشيء الثابت فينا», و«حقائق العلم الزائفة» = «التحول الدائب المستمر» الهوائي...

إن الذي ينتفي هنا هو العالم كعقل والصيرورة كعقل.

بمعنى ما كل الفكر البشري جدلي, ديالكتيكي لكن ثمة فرق بين ديالكتيك المفاهيم وديالكتيك الأشباح. أو لنقل: هناك حدان ـ طرفان ممكنان في حياة الذهن الجدلي هما ديالكتيك المفاهيم وديالكتيك الأشباح. الديالكتيك بالمعنى الحصري, هو منطق.

اليونانيون اخترعوا المنطق, حققوا هذا الخرق, متابعين في ذلك خطأً عريقاً في تاريخ الإنسان العاقل, خطأً متنوعاً في تاريخ الشرق والحضارات والثقافات وفي تاريخ ما قبل «الشرق». وأن كل شيء عظيم إنما يُخترع أكثر من مرة على هذا السلم الصاعد: العقل, الجبر, مقولة العمل, المجتمع المدني, فكرة الإنسان... مثلاً الجبر اخترعه الخوارزمي والعرب, واختراعه من جديد بعدهم بقرون فييت مؤسساً علم الجبر الحديث «نهائياً» (مع المزدوجين), واخترعه البابليون ثم يونانيو الحقبة الأخيرة. لكن اخترعه أيضاً وأولاً الإنسان صاحب اللغة, الكائن الجابر.

أن يضع أحد منا ثابت الشعور والأحاسيس مقابل زوالية الفكرة والعقل هذا انتكاس كبير عن الفكرة العربي والعقل العربي كما برزا وطفوا في فترة ماضية من تاريخ الإنسان, هامة ومديدة وحاسمة.

وقد يفكر القارئ, وأفكر معه أن هذه السقطة من شوفي ضيف سقطة استثنائية وقعت خارج ميدانه الحقيقي, بمناسبة «العلم في شغر الزهاوي»..

غير أنني أعتقد أننا ازاء حالة ذهنية وفكرية وروحية تتخطى شوقي ضيف وميدانه ـ وميدانه يخدمها ـ حالة لها صفة العمومية والتفشي, تكمن وتنام تارة, تظهر وتبرق تارة أخرى, ومن الممكن

والواجب معاينة أشكالها واتجاهاتها. غني عن القول أن اشارتي في الحاشية الأولى إلى كتاب أدونيس «الثابت والمتحول» ليست معاينة نقدية أو دراسة منهجية لهذا الكتاب.

ولا اشارتي إلى سعيد عقل وإلى الأشكال الأخرى (غير اللبنانية) للعروبة الشبحية الحاضرة, أو إشارتي في مقال سابق إلى صاحب «نقض أوهام المادية الجدلية», الخ الخ. ثمة قواسم مشتركة وقاع مشترك لهذه المواقف المتنوعة والمتكاونة في «ساحة الشعور» و«أعماق اللاشعور», عدا عن ساحة الفكر والنشر. وليست «المادية الجدلية والتاريخية» «المعروضة» أي المنقودة هنا, منهجياً إلى حد كبير, ببعيدة عن القواسم المشتركة والقاع المشترك. أرادت شيئاً حديثاً بدون جذره, نتيجة وذروة بلا أساس, جدلاً وصيرورة وتناقضاً وتقدماً وثورة الخ بلا المنطق, أو لنقل باختصار: أرادت جدلاً ليس المنطق.

وإن «العلاج» ـ فكر المفكرين ووعي شعب وثقافة عامة ـ ليس بتاتاً في الركض وراء آخر منجزات العلم والعلوم. المطلوب هو التأسيس الذي يحمل معه «التحديث الصحيح». هكذا القضية.

المطلوب بعث روحي وفكري شامل فعلاً, أي له أساس.

العلوم كيان داخل كيان أكبر منه هو الفكر النظري المفهومي, فلسفة ـ علم ـ علوم.

هذا الكيان الأكبر جزء بل, وبمعنى ما وإلى حد ما, أساس مموقع في كيان أكبر منه هو الروح.

لكن من العبث واللاعقل أن نتصور أن هذا الكيان الأكبر ـ الروح ـ يمكن ويجب أن يكون أساسه العلم Science, من الحماقة أن نتصور أن «المعرفة العلمية» هي الأساس للروح والفكر والمعرفة. بالعكس, إن المعرفة العلمية جزء من الفكر الناظر والنظري, وإن هذا المستوى ـ الفكري أو الذهني ـ يرتكز على مستوى أعمق أدعوه المستوى الروحي ـ الفكري. هكذا كان طفو اليونان, وهكذا كان طفو «أوروبا الحديقة». وهكذا كان طفوُ العرب: هكذا تكوّن وبرز هذا الذي هو, في الواقع والتاريخ, العرب, الحضارة العربية ـ الإسلامية, الثقافة العربية, علم المسلمين, المد العربي, المعجزة العربية. هكذا حق وحقيقة العرب ـ هم ـ بخلاف باطلنا (نحن). نحن لم نخترع الجبر ولا الكيمياء. وننتكس عن الزراعة والتعامل. مستوانا الأعمق هو «بيت الداء».

كثيراً ما يبدو لي الشعر العربي الجيد كأنه ملاذ الروح والجدل في عالم فكري مغلق عنهما. لكن الشعر العربي ونظريته مخطئان حين يعتقدان أ، البعد الوجودي, والوجودي ـ الثائر, هو البعد الوحيد للشعر والفن.

ولقد أذاعت الماركسية أن الفرق بين الفن والعلم هو الفرق بين لغة الصور Images ولغة المفاهيم. هذه الحقيقة تسقط إذا لم ندرك أن الصور عنا هي الصور الحسية وأن المفهوم شكل Forme, وأن «التشكيل» (مثلاً «التشكيل الاقتصادي الاجتماعي») هي Formarion من Forme, وأن هذا يُدخل الحركة والتقدم والتاريخ. والحقيقة المذكورة تتحول إلى ضياع كبير إذا ما فُهم منها أن الفن, ولا سيما الشعر, في غنى عن المفاهيم والعمل بالمفاهيم. الصور مرحلتُه الأخيرة, لغة تعبيره.

لا شعر ولا فن بدون البعد الوجودي. الحب, الموت, الخ مواضيع خالدة. لكن كبار شعراء العرب, فضلاً عن شعراء اليونان أو عن غوته وشيكسبير, شواهد على أن للشعر بعداً آخر أيضاً أدعوه البعد المفهومي والتاريخي.

7ـ ثلاثة مستويات

كخاتمة, ورجوعاً إلى الجدل كموقف وكتصور عام, لابد من ملاحظة أخيرة تتصل بـ «تاريخ الجدل».

لقد حدد ستالين أربع سمات أو مبادئ أساسية لما أسماه «الطريقة الجدلية الماركسية»: 1) الترابط الكلي أو الكوني. 2) الحركة والتغير والصيرورة. 3) التقدم بقفزات أو «تحول الكم إلى كيف». 4) التناقض أو صراع الضدين.

هذه السمات الأربع ليست خاصة بالماركسية ولا بالجدل الحديث. المبدأ الأول بديل ضعيف وملتبس عن فكرة المنطق, وهو ـ عند ستالين ـ يطرد مُعارضه المفهومي (الاستقلال, الانفصال), والتناقض وُضع بعيداً عنه, في الموقع الرابع. المبادئ 2. 3, 4 تؤلف ـ في عرض ستالين ـ مجموعاً

منفصلاً عن المبدأ الأول الذي يبدو كياناً مستقلاً. المبادئ 2 و3 و4 موضوعها الصيرورة ـ التقدم بلا تمييز حقيقي بينهما. ستالين خلط المستويات, أثام عقيدة بين ـ بين, تصوراً ليس هو جدل ماركس وهيغل ولا هو الجدل القديم والعالمي, وسماه «الطريقة الجدلية الماركسية».

حسب المنطق والتاريخ, هناك ثلاثة مستويات:

1ـ التصور الجدلي المعالم قوامه الصيرورة والصراع. الوحدة والكثرة متضمنان في فكرة «العالم» (أو ما ينوب عنها: الكون, الكوسموس, الطبيعة, الخ حسب الحالات). الحركة جانب في الصيرورة. هذا التصور الجدلي فتح شرقي (الصين, الهند, فارس, الخ) ويتضمن فكرة الدائرة وفكرة اللانهاية.

2ـ اليونان «تضيف» المفهوم (الشكل, الحد, المفهوم. إذن أيضاً هوية الضدين, منطق الشكل أو المفهوم) هذه «الإضافة» ركيزة للتطور التالي.

3ـ أوروبا «تضيف» التقدم (التاريخ والتقدم): هذه «الإضافة», الحديثة في معظمها, «محكومة» بالدين التوحيدي, عقيدة الخلق, فرز الإنسان. التصور الشرقي للتاريخ تصور دائري. كذلك التصور اليوناني. فكرة التقدم خرق يستند على عقيدة دينية جديدة, مغايرة جذرياً لما سبقها من أديان كبيرة مهمة (مزدائية, هندوكية, بوذية, وأيضاً بابلية وشرقية قريبة) عدا, بطبيعة الحال. عن الأديان الإحيائية والعبادات الطبيعية الأكثر ابتدائية الخ.

هذا ما يجب نظره.

أولاً, ما هي فكرة التقدم, ما هو «التاريخ والتقدم»؟

ثانياً, «المرتكزات اللاهوتية لفكرة التقدم».

—————— شرح ——————

1ـ قصدت, بطبيعة الحال, كتاب أدونيس الثابت والمتحول, الجزء الأول.

«من حد المملوكية إلى حد الحرية» شعار عظيم, مبدأ ينال تأييدي وحماسي هكذا يجب أن ننظر إلى التاريخ بعد هذا التأييد (أي بعد الصفحة الأولة, صفحة الغلاف) يبدأ خلافي مع أدونيس.

من حد المملوكية إلى حد الحرية, كيف؟ تاريخياً واجتماعياً / أم / فردياً وشعرياً ووجودياً؟ جدوى / أو / لا جدوى؟ وأنني في هذا التاريخ أو في هذه المرآة للتاريخ لا أرى ثابتاً ومتحولاً, بل أرى سرمدية وثوراناً, أرى سرمدية ثوران وفوران سرمدية. هذا ما يجب أن نخرج منه, فكرياً وواقعياً.

لعل أفضل ما عندنا هو الشعراء الحقيقيون. لكن المؤلم أن الشعراء الحقيقين استغنوا عن «الفلسفة» عن الثقافة النظرية الأساسية.

2ـ هنا أيضاً دعوة الظهر أو مطلب الطهارة والفضيلة.

هذه الدعوى التي كان كهنة أهورا مازدا يرفعونها ضد السلطة المدنية والسياسية حيناً تلو حين هل كانت تحبط لك تقدم وكل بناء وضعي في تاريخ إيران القديم, كما يقول بعض المؤرخون؟ هذا ما لا أستطيع البت فيه. لكن من المفيد أن نذكر أن التعارض بين ملك مصلح وكنيسة محافظة أو رجال دين رجعيين, باسم الدين والشرع والطريق القويم. عرفته أوروبا الحديقة (مثلاً روسيا بطرس, امبراطورية النمسا..) والدولة العثمانية وغيرها من الدول الإسلامية.. يمكن أن نفترض أن المشكلة كانت أكبر في إيران. ولا ريب أن «التخرج» كان مختلفاً حسب الحالات المذكورة وغيرها, أن المسارات والنتائج كانت مختلفة.

3ـ سعيد عقل, الشكل «اللبناني» لـ «العروبية» العامة, يركب على هذه القضية.. بحق جزئي, متطوع ؟ لنقل من جهتنا:

1- لا شك أن مذهب الذرة فينيقي (كنعاني) بالأصل, خرج من مدينة صور إلى اليونان. هذه الحقيقة المهمة ـ حقيقة الأصل الفينيقي والهندي ـ معترف بها اليوم, ذكرها مثلاً كبدروف في كتابع عن «وحدة المنطق والجدل والغنوزيولوجيا المادية, في ضوء أفكار لينين, موسكو, بالفرنسية, ص 260.

2- لا شك أن فيزياء القرن العشرين (من الذرة إلى الجزيئات الابتدائية: الكترونات الخ الخ) هي بمعنى من المعاني عودة إلى «الأصل» من فوق تراث بنائي كبير: الذرة تجزأ نظرياً وعملياً (بيست حداً أخيراً(يوجد, «أخير». علماً بأننا في هذه الحال ـ في الانتقال في الكتيلة الذرة إلى ما دونها ـ ننتقل من مستوى إلى آخر, من شيء إلى «شيء آخر». ثمة فرق بين مفهوم «الذرة» الفيزيائي اليوم وفكرة «الدورة» العامة والعالمية.

3- هذا مثال مهم في التاريخ عن فكرة التطور الجدلية التي تتضمن فكرة «عودة» والتي هي فكرة التقدم. إنها مفهوم « تقدم دائري», يمثل حسياً في الشكل الحلزوني, الحركة اللولبية.

4- إن التقدم الجدي (بناء معرفة الواقع الفيوزيقي بما في ذلك وعلم الفيزياء العلمي) لتحقق هلال نيف وألفي سنة على ركيزة المذهب الذري الديموقريطي الأبيقوري الخ (؟ ذرات أخيرة لا تجرأ). وما كان يمكن أن تجري الأمور على نحو آخر: معرفة الأشياء, علم الحركة (الميكانيك).

بدون فكرة المد والنهاية لا تقدم. لا بناء, نبقى في الاتساع اللامتناهي...

«الشكل اللبناني» شكل من أشكال «العروبية» العامة. هناك أشكال أخرى معلومة: «العروبي ـ الإسلامي» و«العروبي ـ الإسلامي ـ اللاإسلامي» و«العروبي ـ السوري» وربما الآن أو غداً, «العروبي المغربي»: غرق استغراق في القديم وفي اللانهاية, محو وامحاء في ذات أصلية مبهمة و«رحبة». ومتشنجة, في هوية جوهرية مدرحية الخ, رفع للأجداد ضد «التالي» في التاريخ.

لكن ألا يحق لنا أن نقول: لو بعث الأجداد لرفضوا هذا «التكريم» الملتبس. لرفضوا هذا الشرف أو هذا العار, لرفضوا مع «التالي» بلا تردد. فهم ذهبوا نحوه مهدوا له, تقدموا ولم يدهوا ختم التقدم, تكلموا عن البشرية, عن مصائر الإنسان, كانوا فاتحين فعلاً, كانوا صادقين, وكونوا وطناً...

4- هنا, لابد من إشارة إلى جورج بولينزر, فيلسوف الحزب الشيوعي الفرنسي وبالتحديد إلى مقاله «الفلسفة والأسطير» المنشور في العدد الأول من مجلة ؟ نيسان ـ حزيران 1939 (وأعيد نشره في 1955, عدد خاص). بوليتزر (وهو نفسه صاحب الكتاب التعليمي المؤسف: مبادئ الفلسفة الماركسية) يناضل ضد النازية وضد المناخ الوجودي المتتنوع المتعم بمساعدتها.

وفي هذا النضال. يرفع بوليتزر لواء «أفلاطون ضد الشعراء»: لقد طرد أفلاطون الشعراء من الجمهورية مكللين بالزهور. ومعنى هذا الرمز أن «الفلاسفة أو العلم» أي المعرفة المفهومية تطرد الصور الزائفة, أشباح الأزمنة البدائية ووجوديات الحس والخيال... إن النازية تريد «إرجاع أوروبا غلى ما قبل المسيحية والعقلانية والليبرالية والديمقراطية», تريد تنكيس أوروبا إلى الأزمنة البدائية المؤسطرة في خدمة مشروع بالغ التقدم في همجيته... وبوليتزر حارب ضد هذا المشروع وضد المناخ الإيديولوجي للعصر الامبريالي. مدافعاً عن الإنجاز الإنساني العظيم...

جورج بوليتزر يذكر, بين أخرين, جان وال Jean wahl وهو من أهم فلاسفة فرنسا في زمننا. فقد تكلم هذا الأخير في الدراسات الكيركغاردية, عن الـ «أنا موجود» ضد الـ «أنا أفكر». الـ «الرسوم» sum ضد الـ «كوجينو», باعتبار أن الكوجينو «فكر مجرد». على حد قوله (المتعاطف مع موضضوعه): هناك حرب بين الاثنين, الفكر عندنا قتل الوجود... هذا لحن نعرفه اليوم, عندنا, وسنعود إليه في حينه.

5- مصادرة أرسطو: «الإنسان والحصان والكانون من هذا النوع الذين يؤكدون كافراد خاصين والذين هم كذلك كلياً ـ كونياً ؟ ليسو جوهراً ؟ , بل مؤلف من شكل محدد ومادة محددة مأخوذة كلياً ـ كونياً». «المادة لا تعرف في ذاتها. فهي من جهة محسوس ومن جهة أخرة مذهون: محسوس, مثلاً الحديد, الخشب وكل نوع مادة قادر على التحرك, مذهون, التي هي موجودة في الموضوعات الحسية لكن ليس بوصفها حسية, على سبيل المثال الكائنات الرياضية, (ما وراء الطبيعة 3035 ب25, 1036 آ10). ـ مذهون (؟, مفهوم): يقبض عليه بالذهن أو الفهم أو العقل ؟.

في ترجمة شفيفلر التي نقل لينين عنها, وردت «كلمة مفهوم» ؟ بدلاً من «شكل» ؟, وسقطت عبارة «مأخوذة كلياً ـ كونياً».. وأضيفت كلمة «معزول» بعد «جوهر»... انظر الترجمتين في

الصحفة الأولة من خلاصة لينين لكتاب أرسطو, في الدفاتر الفلسفية, باريس 1955, ترجمة بونيجيلي, أو ترجمتنا العربية, دار الحقيقة, بيروت.

الثنائي الأرسطوي «مادة ـ شكل و / أو مفهوم» موجه ضد الجوهر, الماهية, الجوهر الماهي...

«المادة لا تعرف في ذاتها». «لا علم إلا بالكلي» (أرسطو) ـ «الكلي, هو ؟ الفكر, (هيغل, لينين).

لكن بعض الذين عندنا يحبون «الكلية» و«الشمول» يجهلون معنى الكلمة: كلي ؟ . يريدون «شمول» الأجزاء (أجزاء المادة ـ الامتداد) ونبذوا الكلي.

الملق يشمل أرسطو وأفلاطون, انجلز وماركس وفويرباخ وهيغل, الخ الخ, «المادة المحدودة ؟ كلياً» (عبارة ارسطو» تدفعها المعرفة المفهومية إلى النهاية ـ اللانهاية. لا مادة أخيرة. ما يبقى من الذهب المادي هو «مادية العالم»

العالم خارج رأسي. «الفكر = قراءة انجيل الحواس في ترابط أو تواصله ؟ (فويرباخ), والجدل يعترض هنا على كلمة «إنجيل», أي على تحول فويرباخ ضد هيغل. حربه ضد النظر الضارب. انتكاسه «المادي» عن الجدل الأعلى.

6ـ لينين, في الدفاتر الفلسفية, خلاصة كتاب هيغل «دروس تاريخ الفلسفة», ينقل كلام سقراط أفلاطون «ما بالنسبة لي يجب أن يكون الحقيقة, العدالة, هو روح روحي. لكن ما ؟ الروح على هذا النحو بنفسه, ما يحمل بالنسبة له هذه القيمة يجب أن يأتي منه بوصفه أتياً من الكلي, لا من أهوائه, مصالح, ؟ , ؟ , أهدافه, ميوله, الخ. أجل, هذا كله أيضاص شيء ما داخلي, «وضعته الطبيعة فينا», لكنه ليس ملكناً الخاص إلا على نحو طبيعي...

بروتاغوراس يقول: «الإنسان مقياس كل الأشياء», سقراط يقول «الإنسان بوصفه كائناً مفكراً, مقياس كل الأشياء», لا يوصفه صاحب «أهواءء ونزوات ومصالح وأهداف وميول الخ». ديكارت يكرر العملية وآخرون, بأشكال مختلفة ـ لينين يؤيد سقراط الارستقراطي واليميني والمثالي ضد السوفسطائي بروناعوراس. المادي والتعسفي واليساري, يرفع لواء علم المنطق أي «الجدل كعلم فلسفي», ثم يطعن بليخانوف: في اللغة لا يوجد سوى الكلي «بليجانوف كتب عن الفلسفة (الجدل) كتباً كثيرة, ربما ألف صفحة, لكنه لم يكتب سطراً واحداً عن المنطق الكبير أي بالجوهر والأساس عن الجدل كعلم فلسفي.

رجوعاً إلى بداية الشاهد في أعلى هذه الحاشية: في «الحقيقة, العدالة» ترادف. تحد موازيه في وحدة وازدواج كلمة الحق في العربية, الحق هو الحقيقة ؟ وهو الحق ؟ (وجمعها حقوق). يقال أن الألمانية واليونانية لفتان فلسفيتان (أفضل وانسب للفلسفة أو العلم الفلسفي, من الفرنسية والانكليزية الخ) كذلك اللغة العربية وإن كان يقتلها محبوها وممجدوها, كارهو الفلسفة والعقل, وكارهو اللغات الأجنبية.

مرة أخرى: «لا علم ألا بالكلي» (أرسطو). و«الكلي, إنه الفكر» (هيغل لينين)

7ـ في كتابي «الماركسية في عصرنا» (دار الطليعة, 1965, ط2, 1968), أخذت بمقولة النفي, لكنني أيدت الاستغناء عن نفي النفي, على الأقل كمقولة فلسفية أساسية في الجدل. هذا موقف خاطئ. بحدود الفلسفة كتاريخ, يكون ؟ عند سبينوزا («كل تعيين هو نفي», «كل تحديد هو نفي», ؟؟) بدلاً من المتابعة إلى هيغل.

8ـ جان لانجفان ؟: «شروط البحث العلمي والماركسية» في العدد 11 من دفاتر مركز الدراسات الاشتراكية, نوفمبر 1961.

يقول العالم الكبير بول لا نجفان:

«إن فكرة الـ ؟ (شيء, موضوع, غرض؟) المجردة في الأصل, المقتطعة اعتسافياً من / في الكون, أصبحت مألوفة لنا إلى درجة تجعل بعضنا يفكرون أنه ليس بإمكاننا أن نستخدم شيئاً آخر من أجل بناء تمثيلنا (صورتنا) عن العالم. إنهم يعتقدون أن الجسيم ؟, الذي هو توسيع خارج القطبين

؟ دُفع إلى حده الأخير لفكرة الـ ؟ (الشيء أو الموضوع) هو وسيكون على الدوام ضرورة لا غنى لذهننا عنها من أجل تفسير الواقع, أن من جهتي أكثر ثقة في إمكانات تطورنا الذهني أو الفكري».

جان لانجفان, الذي نقل هذا الكلام عن والده, يضيف:

«هكذا فقد كان والدي يفضل الاختفاظ فكرة كون معرف (محدد), قابل تماماً لمعرفتنا, بدقة متزايدة, أي الذي كان تصور الماديين حتى القرن العشرين, والذي كان والدي قد درسه إلى هذا الحد العظيم ودافع عنه وحسنه كثيراً»..

بول لانجفان يتمسك بالتعينية: أصبحنا الآن نعرف الواقع الفيزيقي الفيزيائي أكثر وعلى نحو أفضل مما كنا في أمس قريب. المعرفة فتح لمعقولية الواقع.

لنلاحظ أخيراً أن بولي لانجفان لا ينقل بتاتاً «مفهوم المادة الفلسفي» اللينيني إلى علم الفيزياء ـ لا يستخدمه ـ . بل هو يتكلم بلا تردد أو نحرج عن «تحول الضوء إلى مادة وبالعكس»... ـ إنظر مقاله في العدد الأول من مجلة الفكر ؟ 1939, المكرر في العدد الخاص من المجلة نفسها, نيسان 1955: «الفيزياء الحديثة ومذهب التعين», تحديداً ص7.

9- يريد بعض المفكرين واقعية في الأدب والفن بدون جدل الواقع والظاهر. «الواقعية الاشتراكية» كانت انتكاساً جذرياً عن اسنيطيقا عصر غوته وهلدرلين وشيلر.

سوفوكلس وأوريبيد, راسين وشيكسبير وغونه الخ أبطالهم ملك وأمراء ونبلا وأحياناً عوام.

«الواقعية الاشتراكية» كانت في أحد جوانبها تخفيضاً أو إلغاء للكلي. بالتالي, فهي تتعارض مع روح الاشتراكية ذاتها. هذا يطرح مبدئياً, في الماركسية, وبالنسبة للمجتمع الاشتراكي والمشروع التاريخي الكبير, قضية المثل الثلاثة وعلومها المعيارية.

الحق والخير والجمال, المنطق والإثيقا والاستيطيقا, ثلاثة معيارية ؟ , إذن مثلية ومثالية. تفاعلية العلوم الوضعية أو الايجابية ؟ , مثلاً علم النفس, علم الفلك, علم الاجتماع والاقتصاد والسياسة, علم الفيزياء, علم التاريخ, الخ.

هل هذه العلوم الأخيرة ـ العلوم الوضعية ـ هي علوم الواقع. معرفة ما هو كائن, لا ما يجب أن يكون؟ نعم, شرط وعي أن الكائن يتضمن على نحو ما أو يقتضي تعارضياً, الواجب الوجوب, والممكن, الخ, أن الواقع ليس المباشر وأن العلم علم, أن الواقع له صفة النزوع والمثلية, مثلاً في اتجاهين, صاعد وهابط, نحو الأفضل ونحو الأسوأ. إذا لم يتجه نحو الأفضل فقد يذهب نحو الأسوأ. أن المعارضة بين نوعين من العلوم تستمد قيمتها وجدواها من تأكيد النوعين, هذا هو المطلوب ولي التضحية بالعلوم المعيارية حباً «بالواقع» و«الواقعية».

منطق شعب من الشعوب وإثيفاء واستيطيقاه يمكن أن ينحردوا من على. الاستيطيقا الأدبية مثالاً يمكن أن تصبح استساغة أذن, رد صدر على عجز وصوراً بلاغية أخرى. الفن يمكن أن ينحط إلى لهو وتسلية, إلى «نظال» سياسي, إلى «مصلحة» من النوع الأول أو الثاني.

لابد من أضافة مزدوجة

أولاً ـ عقدت عدة أمسيات حول أودونيس, في «بيت الشعر» في باريس, نوفمبر 1984. الحاضرون عرب (إلا فيما ندر) ومعظمهم بعيدون عن الثقافة . الأمسيات بلا نقاش.

أنقل من أمسية 84/11/13 ما يلي:

رينه ؟: الصحراء... لا جديد.. أدونيس يتجاوز: عنده بعد المستقبل... قول هياكليت: الزمن طفل يلعب بالزهر (زهر لعبة الطاولة).

إندره ميكل: ... «مجنون», تصوف... المطلق.. المجنون الصوفي... أحمد شوقي... مجنون أراغون الثوري... الكلية... الشعر والبحث عن الكلمات: الغرب مالارميه (الشاعر الفرنسي) وأبو تمام.

بشكل خاص, روجيه مونييه: أدونيس يحمل كلية هي عكس كلية الفكر ؟. نداء أدونيس هو التغلب على الفكرة... كلية الصورة image. كلية رغبة ؟ . أوروبا = الفكرة ← التاريخ. لقد تعبنا من الفكرة, من المفهوم, من تقلبات الفكرة وخلفائها: المفهوم... التكنولوجيا, السياسة.. روجيه مونييه يعلن حربه على «ألفي سنة» من التاريخ... لا أدري ما إذا كان أدونيس فهم القضية ؟

ثانياً ـ «الأساطير الأوروبية». «اليمين الجديد» في فرنسا يعلن العودة إلى «الأساطير», إرجاع فرنسا إلى ما قبل المسيحية والعقلانية والليبرالية والديمقراطية, إلى ما قبل اليونان والفلسفة.

إنقل هذه الورقة ـ الدعوة: «الأساطير الأوروبية» يوم الاربعاء 84/12/5... «الأسطورة تمزج التاريخ بالمقدس. إنها تهرب من الكلمة ؟ , الفكرة الخالصة, لكي تكتب نفسها مجدداً وبلا انقطاع في هياج الصورة image وانفعال الرسومات.

الأسطورة هي بالحقيقة هذا «العين» ؟, الحاضر دوماً وغير المدرك أبداً, الذي يشحن تاريخ شعب يسعى لا يكل وراء المعنى.

إعادة اكتشاف النسيج «البوبيتيقي» (الشعري أو الفني) لأساطيرنا الأوروبية, إعطاؤها من جديد قدراتها العليا في عصر التقنية, هذا هو التحدي الذي نرفعه...

... من أحل إعادة سحر العالم... حرفياً وبالتمام.

لنذكر بأن العصر الحديث, حسب قول مأثور لماكس ؟ نزع سحر العالم, أسس ؟, وأسسها ارتكازاً على المبدأ المنطلق في دين الإله الواحد, المتعالي.

لنذكر أخيراص بالنازية والوجودية ومعركة جورج بوليتزر سنة 1939 (انظر الشرح رقم 4).

التاريخ والتقدم

مجلة الوحدة العدد (23/22) - 1986

هذا المقال ينتمي إلى بحث طويل, أكتبه بالارتباط مع مسائل ومحاور مجلة «الوحدة», وتسلسل على النحو التالي: 1) تحديث أم تأسيس؟ 2) اشكالية العمل الثوري. 3) العقل والعقلانية, ثلاثة معان ممكنة. 4) الجدل. 5) التاريخ والتقدم. 6) المرتكزات اللاهوتية لمفهوم التقدم.

انتهي في البند الرابع إلى اختزال تاريخ الجدل في ثلاث مستويات:

1- التصور الجدلي للعالم قوامه الصيرورة والصراع. هذا الجدل فتح شرقي (الصين, الهند, فارس, الخ) ويتضمن فكرة الدائرة وفكرة اللانهاية. العالم هو الكوسموس, الطبيعة, والوجود.

2- اليونان تبرز الفكر, المعرفة.. فكرة الحد والشكل والمفهوم. إذن أيضاً «هوية الضدين», منطق الشكل أو المفهوم. الجدل منطق, شنظرية.

3- أوروبا «تضيف التقدم (التاريخ والتقدم). هذه «الإضافة», الحديثة في معظمها, «محكومة» بالدين التوحيدي, عقيدة الخلق, فرز الإنسان. التصور الشرقي للتاريخ تصور دائري, كذلك التصور اليوناني. فكرة التقدم خرق يستند على عقيدة دينية جديدة, مغايرة جذرياً لما سبقها من أديان كبيرة (مزدائية, هندوكية, بوذية, وأيضاً بابلية وشرقية قريبة) عدا, بطبيعة الحال, عن الأديان الاحيائية والعبادات الطبيعية الأكثر ابتدائية الخ...

هذا ما يجب نظره: التقدم والتاريخ. «المرتكزات اللاهوتية لمفهوم التقدم» اتركها لمقال آخر.

1- ما معنى «التقدم»؟

فكرة التقدم تختلف عن الصيرورة, التغير, التحول, التطور, هذا , مبدئياً بصرف النظر عن تنوع الاستعمال اللغوي. وتعدد معاني كل مصطلح في القاموس المكرس.

ليس كل تغير تقدماً. وليس كل تحول تقدماً. فكرة التقدم تفترض ذهاباً إلى أمام, تغيراً نحو «الأرقى». كلمة «تحول» تعني «من حال إلى حال», كلمة «تطور» تعني «من طور إلى طور» بدون تضمين إضافي مفاده أن الحال الجديد أو الطور الجديد أرقى أو أفضل من القديم.

في اللغة اليومية, يمكن أن يكون الأمر غير ذلك: كلمة «تطور» العربية وEvolution الفرنسية أو الإنكليزية توحي بفكرة التقدم. لكن اللغة اليومية متسيبة إلى حد لا بأس به. بيد أننا حين ندعو نظرية لا مارك وداروين نظرية «التطور والارتقاء» أو أيضاً نظرية «النشوء والتطور والارتقاء», فالمصطلحات العربية منسابة وضاربة, ومتمايزة إلى حد كاف, وهي تختزل أو تريد أن تختزل المضامين أكثر مما يختزله العنوان الانكليزي أو الفرنسي (المرتبط بالعصر, والذي يؤكد نظرية «التحول» ضد نظرية «الثبات»). لنقل, بالمقابل, أن هذه الارادة أو الرغبة ملتبسة: المفروض أن العنوان ليس أكثر من عنوان ولا داهي لتكبره. أما المضمون فهو: ثمة تطور وتقدم في الطبيعة, ارتقاء إلى حالة أكثر تعقيداً وتنظيماً, تطور (وسلم تطور) على خط العضوية والحياة والجملة والتفردن والذكاء[1].

وفكرة «التقدم» توحي بالذهاب في اتجاه, بالسير إلى هدف وغاية. كلمة progress الفرنسية تتضمن البداية Pro (بمعنى: إلى الأمام, ذهاب وتقدم). هذه البداية Pro واردة في اسم بروميثيوس (Promethee) الذي تمرد على رب الآلهة زيوس وسرق النار من السماء وأسس الصناعة والحضارة, وعوقب بتسميره على جبل القوقاس, حسب الأسطورة اليونانية.

وpro واردة كذلك في Prophete (=نبي)... فكرة التقدم ذهاب إلى أمام[2].

Progres تعطي أيضاً Progression = تقدم, متوالية أو متتالية (مثلاً في الرياضيات: المتوالية الحسابية, المتوالية الهندسية). وهي تُضمن فكرة التدرج, Progressivite: تقدمية وتدرجية. لا أستطيع أن أصل إلى غايتي (مثلاً إلى المدينة من المدن) بدفعة واحدة, بقفزة. والقفزة على الأرض قفزة في البسط الأفقي, ليست قفزة شاقولية نحو السماء. وهذه تنتهي إلى سقوط, وقوع على الأرض.

التقدم (Progression. Progres) عكسه التراجع, التقهقر (Regression). أما الصيرورة والتغير والحركة فعكسهن الوجود أو الكينونة الثابتة, السكون, الركود. إن أحد وجوه الغلط الفلسفي في

الماركسية المعروضة أن ستالين أراد, في المادية التاريخية والمادية الجدلية, تقدماً بلا تقهقر, حركة بلا سكون, تطوراً بلا ركود. كما أراد ـ من جهة أخرى ـ ضرورة بلا عرض... أراد مفاهيم بلا مقابلاتها, مفاهيم غير ثنائية, مفاهيم لا تتثنى. وهذا محال من وجهة نظر المنطق. قيل: الحركة مطلق, السكون نسبي. واستخدمت هذه البديهية الجدلية لطي بديهيات أخرى: أجل, الطاولة ثابتة نسبة إلى الأرض ولكنها تتحرك مع الكرة الأرضية ومع المجموعة الشمسية أيضاً. وكتيلاتها متحركة وشديدة الحركة ـ لكن! «الطاولة ـ الجسم) ثابتة وساكنة بعكس الكتيلات وبعكس الأرض ـ الجسم الفلكي... ولا تهمني حركة الكرة الأرضية فقط وحركة كتيلات الطاولة فقط بل تهمني جداً الطاولة نفسها. تهمني الأجسام ـ الأشياء الساكنة.

كذلك, على نحو آخر, المجتمع والتاريخ: هناك حالات متحركة ومتغيرة وهناك حالات ثابتة, راكدة, بل وحالات آسنة, رغم حركة العناصر وغليان الأجزاء, أو ربما بفضل تلك الحركة وهذا الغليان.

التاريخ كفكرة وكعلم لا صلة له بالزوج الفيزيالي مادة وحركة. علم التاريخ بعيد عن علم الفيزياء. والكلمات حين تنتقل من علم الفيزياء أو لنقل من الوجود اليومي والفيزيقي للبشر إلى علم المجتمع والتاريخ تتغير معانيها إلى هذا الحد أو ذاك, على نحو وآخر. لكن الدلالات الحسية الأصلية مفيدة ومناسبة (لا سيما كلمة «تقدم») شرط أن تُوعى وأن تُحد.

وليس فقط: علم التاريخ بعيد عن المادة والحركة, بل لنقل أيضاً, بعد تأكيدنا للفروق: في الواقع الاجتماعي والتاريخي, يمكن أن تكون «الحركة» كثيرة (حروب, ثورات, انتفاضات..) بدون أن يكون هناك تقدم وتاريخ.

إذا كنا مغرمبين بـ «الثورة» فالثورات كثيرة في تاريخ البشرية الطويل, شرقاً وغرباً, شمالاً وجنوباً. أما إذا كنا نبحث عن تقدم فالتقدم أندر.

وهو أندر إلى حد أن المغرمين جداً بالثورة يتجاهلونه أو حتى ينفون وجوده. أن قسماً كبيراً من الوعي العربي المتنوع يعيش في عنصر الثورة خارج وضضد عنصر التقدم. إنه «يستغني» بالثورة, عن التقدم.

هذا ما لم تقع فيه الماركسية التقليدية, التي لها مزية أنها اعتمدت الفكرتين, ميزتهما, وعارضت بينهما: تطور ـ ثورة, تقدم ـ ثورة, تواصل ـ انقطاع, تدرج ـ قفزة, كم ـ كيف. (بالمقابل, الثورانية العربية المعاصرة هي جدل كيف بلا كم, أي لا ـ معنى, عبث, محال)[3].

خطيئة الماركسية التقليدية أنها اكتفت بهذه المعارضات, أنها لم تفصل فكرة التقدم ولم تبرزها في علاقات أخرى, لم تفصل الإنسان (المجتمع, التاريخ) عن الطبيعة وتاريخ الطبيعة في مستوى النظر الفلسفي على التقدم, لم تعمل بجدل وثنائية مفهوم الطبيعة نفسه, جعلت «المادية التاريخية» تابعاً لـ «المادية الجدلية» و«تطبيقاً» مزعوماً لها, وبالحقيقة وسعت ايحاء «المادية التاريخية» (التقدم) على الطبيعة كلها وعمل الطبيعة وحركة الطبيعة, لا مبرر.

وإن أحد أشكال وأسباب هذا الشطط أنها أدارت ظهرها للدين واللاهوت ولم تدفه علم أنسابها هي في هذا الاتجاه! اختزلت موقفها من الدين في كونه رجعياً ومحافظاً, وتمسكت بثوريتها وتقدميتها (اللتين لهما «أصل» في دين الإله الواحد), مضيفة هذه اللقبين على الطبيعة, ومؤقتة التاريخ والتقدم. في عرض ستالين, التاريخ يتقدم, كل المجتمعات تتقدم, قوى وعلاقات الإنتاج «لا تبقى أبداً على حالها لفترة طويلة». ستالين يكرس دفن مقولة النمط الآسيوي للإنتاج, الركود الشرقي... المجتمع البشري يبدو في حركة تقدم دائمة مع ثورات ناقلة من مرحلة إلى مرحلة على خط التاريخ.

بالحقيقة, أن الذين يتقدمون دائماً هم الأفراد البشريون مثلاً. لكنهم يتقدمون نحو الكهولة والشيخوخة والموت. هذا قانون الطبيعة. وهو يقيم الجدل, بالمعنى العام: الصيرورة, ولادة وفناء كل الأشياء, و- بحق لا بأس به ـ «الحياة يوم» فكرة التاريخ لها مضامين أخرى. البعد التاريخي ليس البعد الوجودي. والبعد الوجودي ـ أياً كان ـ لا يستنفد فكرة الواقع.

2- الركود والتقدم

ماركسية ماوتسي تونغ تختلف عن ماركسية ستالين.

لنقل أولاً وباختصار. من أجل استراتيجية صحيحة للثورة الصينية, ماوتسي تونغ يعي ويؤكد ركود الصين التاريخي الطويل, ودور الامبريالية في انطلاق حركة من نوع جديد.

قصدنا كتابه الثورة الصينية والحزب الشيوعي الصيني, 1939, الفصل الأول: المجتمع الصيني.

الكاتب (ماوتسي تونغ أو اللجنة التي حررت هذا الفصل بإشرافه أو موافقته) يتكلم عن الثورات في تاريخ الصين, وبعدد بعضها بأسمائها: إنها ثورات فلاحية جماهيرية, كبيرة وصغيرة, ولا حصر لعددها.. لكن المجتمع الصيني بقي على حاله مدة ثلاثة آلاف سنة: علاقات الإنتاج لم تتغير, نمط الإنتاج لم يتغير, الطابع السياسي (الدولة الامبراطورية* لم يتغير. تلك «الانتفاضات الفلاحية والحروب الفلاحية التي شهدها تاريخ الصين كانت ذات نطاق واسع لا مثيل له في تاريخ العالم». رغم ذلك, و«على الرغم من حصول المجتمع على كثر أو قليل من التقدم في أعقاب كل نضال ثوري واسع النطاق يخوضه الفلاحون, فأن العلاقات الاقتصادية الاقطاعية والنظام السياسي الاقطاعي بقيت على حالها بالأساس والجوهر». «النظام الاقطاعي الذي بدأ مع أسرتي تشو وتشين قد استمر حوالي 3000 عالم». «ولم تحصل تغيرات جدية لهذه الحالة إلا في السنوات المئة الأخيرة».

بالحقيقة, في هذا الفصل الأول (المجتع الصيني: 1) الأمة الصينية. 2) المجتمع الاقطاعي القديم. 3) المجتمع الحالي المستعمر ونصف المستعمر ونصف الاقطاعي), الذي هو من أهم وأخطر ما أعطته الماركسية الصينية في المستوى النظري, يراعي المؤلف قوالب الماركسية العامة, كما صاغها وكرسها ستالين قبل قليل في كتابه المادية الجدلية والمادية التاريخية. ماو يعتبر الصين «مجتمعاً اقطاعياً» استمر ثلاثة آلاف سنة وأعقب مجتمعاً عبودياً أو نظام رق. ويؤكد أن «الصراعات الطبقية والانتفاضات والحروب التي خاضها الفلاحون كانت هي وحدها القوة المحركة الحقيقية لتطور التاريخ في المجتمع الصيني الإقطاعي»... وأن «كل انتفاضة كبيرة كانت تقضي إلى توجه ضربة للحكم الإقطاعي القائم في زمنها وبالتالي كانت تدفه, إلى حد ما, نمو القوى المنتجة الاجتماعية». «ولكن نظراً لعدم وجود قوى منتجة جديدة وعلاقات إنتاج جديدة وقوى طبقية جديدة وحزب سياسي طليعي في تلك الأيام... فقد انتهت جميع الثورات الفلاحية بالفشل واستطاع ملاكو الأراضي والارستقراطيون استخدامها في كل مرة, في مجرى الثورة أو بعدها, كأداة لاستبدال أسرة ملكية (سلالة امبراطورية) بأخرى». إذن, ماوتسي تونغ يحافظ على فكرة التقدم, وعلى فكرة صراع الطبقات بشكلها الشائع, ولا يستخدم في وصفه للحالة التاريخية الصينية كلمة «دائرية»... لنقل من جهتنا وبمفرداتنا: أن ثورات فلاحية كبيرة وعامة كانت تنجح وتفشل, كانت تقضي إلى سقوط الحكم والسلطة والنظام بما فيه وضع ملكية الأراضي, لكن كان التاريخ بعد ذلك يعيد انتاج الحالة السابقة بمجموعها.

لنقل أنه لئن استمر المجتمع «الاقطاعي» الصيني ثلاثة آلاف سنة على حاله بالأساس أو الجوهر, فأن المجتمع الإقطاعي الغربي لم يستمر على حاله قرنين أو قرناً من الزمن. حسب عرض مهم لأنجلز (الرسالة إلى ك. شميدت, 12-3-1895): لقد ظهرت الإقطاعية في مملكة فرانكيا الغربية وطورها الفاتحون النرويجيون في نورماندیا, وطورها النورمانديون الفرنسيون في إنكلترا بعد فتحها (أواخر ق11), ثم بلغ هذا النظام مفهومه» في... مملكة القدس الصليبية العابرة (ق12) ثم أخذ يبتعد عن مفهومه, بدأ يأفل... واستمرت عملية أفوله قروناً. البرجوازية تنشأ في القرنين 12 و13, الثورة البرجوازية تبرز في القرنين 17, 18 (هولندا, انكلترا, فرنسا), وتستمر هذه العملية حتى القرن العشرين.

هذه المعارضة بين «المجتمع الإقطاعي الصيني»» و«المجتمع الإقطاعي الغربي» طابق يكشف معنى الحركة والسكون كمفهومين صحيحين وضروريين في النظر إلى المجتمع والتاريخ, ويكشف من جهة أخرى موقع المفهوم أو «المثال» في هذه المعرفة النظرية الأساسية. «ثمة فرق بين مفهوم الشيء وواقع الشيء». يقول إنجلز.

يبقى أن ماوتسي تونغ بين بشكل واضح فكرة الركود, السكون, الثبات, الاستمرار. وكما يمكن أن نلاحظ, أن لبعض هذه الكلمات الأربع, في لغة التداول عندنا, شحنة إيجابية (ثبات, استمرار) ولبعضها الآخر شحنة سلبية (سكون, ركود). ماو تسي تونغ (الذي لم يستخدم كلمة «ركود»). لم يعط كلمة «استمرار» شحنة ايجابية. ماو تسي تونغ أكد, بهدوء, وبرف النظر عن المصطلحات, فكرتي الركود والدائرية.

هذا مع أنه صيني وطني قومي, يعتز بـ «الأمة الصينية» ويؤكد عراقتها (مخالفا بذلك القالب النظري الستاليني المتعلق بالأمة), ويتكلم عن إنجازاتها واختراعاتها, وعن عظمتها السياسية في آسيا الشرقية, ويعتبر الأقليات القومية غير المنتسبة إلى شعب هان (أو عرق أو قوم هان؟) جزءاً من الأمة الصينية, وعي مواقف تجعل البعض يتهمونه بالقومية ـ الشوفينية.

والفقرة الثالثة والأخيرة في هذا الفصل أول والتي موضعها «المجتمع الحالي المستعمر ونصف المستعمر ونصف الاقطاعي» (أي القرن الأخير) تعزز المنحى السابق. بعد التأكيد جيدي وكرر على الاستمرار والركود الأساسي «طوال ثلاثة آلاف سنة», المحور هو هنا (في القرن الأخير بدءاً من حرب الأفيون) موقع ودور المداخلة الامبريالية في تاريخ الصين.

يبدو ـ حسب ستوارت شارم Schramm وغيره ـ أن لهذا المقطع الخطير شكلين: الطبعة الأولى (1939) قيل ما معناه أن الصين ما كان يمكن أن تنتقل إلى شيء جديد لولا التدخل الإمبريالي أو المادخلة الامبريالية. أي أنه لولا هذا التدخل لكانت الصين استمرت على حالها وتاريخها (الدائري) كما من قبل. في الطبعة الثانية والشكل النهائي, قيل: الامبريالية فعلت كذا وكيت, دمرت البنى التقليدية قوضت ركائز الاقتصاد الطبيعي المكتفي ذاتياً, الخ, خلقت تطورات وتناقضات جديدة, أذلت وامتهنت, ولعبت دوراً رئيسياً أو الدور الرئيسي في انطلاق المسار الجديد.

في الحاصل, ليس الفرق كبير بين الشكلين. والشكل الثاني مبرر بتاريخ الصين الحقيقي في القرنين 17 و18 آنذاك عرفت الصين (وليس مصر أو سوريا أو العراق الخ) نمواً ديموغرافياً واستعماراً وطنياً صينياً لتلال وهضاب الصين الجنوبية وأزمة متنوعة هي بين جملة أمور أزمة نمو (ماو شدد على نمو الاقتصاد السلعي).

العوالم مختلفة, الحالات مختلفة. هناك الهند وتاريخها أو لا تاريخها, هناك التاريخ العربي الإسلامي (المجهول عندنا إلى حد لا بأس به)... لا يمكنن ألتعامل مع مقولات ماركس عن النمو الآسيوي للإنتاج والركود الشرقي والاستبداد الشرقي والعبودية المعممة بإدارة الظهر أو بتهمة «الاستعمارية» أو «التمركز الأوروبي». إن تشخيص ماركس عن الهند كتاريخ أو كديناميكية يقول: تحرك كبير في السح السياسي والأيديولوجي (تعاقب دول وسلالات مالكة وأقوام حاكمة أو شبه حاكمة) لكن بلا تغير في العمق, في نظام الإنتاج والعلاقات الاجتماعية. التشخيص الأساسي صحيح. أن يكون ناقصاً (ليت ماركس قال شيئاً عن نظام الطبقات ـ الطوائف Casiez االهندية) لا ينفي أنه صحيح. وماركس ألمح إلى المسألة الدينية اللاهوتية: أبدى أسفه لكون الإنسان هنا سيجد لسايالا البقرة وهانومان القرد بدلاً من أن يعتبر ملك المخلوقات وسيد الطبيعة[4]...

إن تاريخ الهند, تاريخ الصين, العرب, افريقيا السوداء الخ تواريخ مختلفة, و, مختلفة بمجموعها عن تاريخ أوروبا في الألفين الأخيرين.

وإذا أردنا «الدفاع» عن «النمط الآسيوي للإنتاج», فالدفاع الوحيد الصحيح هو التذكير بأن هذا النظام الذي تشكل قبل عدة آلاف من السنين ليس فقط احتضن حضارات وثقافات كبيرة, بل أيضاً وأساساً أفسح المجال لعيش مئات الملايين من السكان, لحياة غالبية النوع البشري خلال ألوف من السنين.

هذا النظام مقضي عليه. المداخلة الاستعمارية والامبريالية بدأت هذا «القضاء», مأسواوياً بدمارات ونتائج تخريبية وبأعمال إجرامية أصابت العرب والهنود الخ وأصابت الزنوج والهنود الهمر أكثر أو أكثر بكثير مما أصابت العرب...

أما إظهار الأمور ـ بإعلان أو المجانية ـ وكأن أحوال شعوب الشرق (ولا سيما أحوالنا العربية) كانت جيدة أو لا بأس بها قبل هذا التطور المأساوي فهو أكذوبة ديماغوحية ومعادية للشعب

تجنبها, بشكل مطلق, ماو تسي تونغ وهو شي منه... بل وتجنبها إلى حد كبير النهضويين العرب: هؤلاء تكلموا عن الانحطاط, عن التأخر, وعن تقدم «الآخرين», لاسيما تقدم أوروبا المستعمرة. أيدوا فكرة التقدم, تبنوا الاستقلال والتقدم, تبنوا التقدم كضرورة للاستقلال والسيادة, بل إلى حد ما كضرورة للذات والهوية.

الركود والتقدم و«الشرق»: لينين وماو تسي تونغ وجان جوريس وأحمد شوقي وحافظ ابراهيم يلتقون على فكرة ركود الشرق ويستبشرون بالتطور الجديد: «استيقاظ آسيا», «شعوب الشرق تدخل حلبة الصراع» (لينين), «هبت شعوب من منبتها..» (شوقي).

حسب لينين, شعوب الشرق أدخلت في التاريخ كمادة وكموضوع أو عرض لهذا التاريخ الكوني, قم بدأت تتحول إلى ذات وصانع لهذا التاريخ.

الانتلجنتسيا الصينية التي مهدت للثورة الصينية وللحزب الشيوعي الصيني كانت أكثر جذرية في طروحاتها من النهضويين العرب. تطرفت و«بالغت», وضعت القضية كخيار حدي بين التراث والوجود, بين الهوية الثقافية و«العرق», واختارت الثاني ضد الأول, كاحتمال أو اقتضاء. هذا ما لم نفعله[5].

ثمة فرق موضوعي بين الحالتين: العرب (أو الهنود) أصبحوا مستعمرين بالتمام (احتلال عسكري, سقوط السيادة السياسية, استعمار استيطاني الخ), بينما الصين نصف ـ مستعمرة: هذا سهل بروز المسألة «الداخلية» والصراع الداخلي, مكن من دفع المسائل إلى نهايتها الأكثر عمقاً, بلا حرج أو ابتزاز, في امبراطورية الصين.

على أي حال, 1) أن في تصنيم «التراث» و«الهوية الثقافية» (مع أسطرات لا حصر لها) مقتلنا. 2) أن في حل الدين في جملة «الثقافة» و«الحضارة» مقتل الدين ومقتل الثقافة. هذا «الحل» يأتي من جهات مختلفة (بل ومتعاكسة). لكن هناك اعتراضات على هذا الخلط تأتي هي أيضاً من جهات مختلفة, لاسيما ـ لحسن الحظ ـ من جهات دينية[6].

3ـ الثورة «العودة» والتقدم

ثمة «فرق» بين فكرتي الثورة والتقدم, والمقابلة بين هذين المفهومين لابد منها.

لاسيما وأن الوعي العربي السائد, بمدارسه المختلفة والمختلفة, يعيش في العنصر الأول: «الثورة». «التقدم» يضحي به على مذبح «الثورة», مثلما «التاريخ» يضحى به لصالح «طبيعة» انحطت إلى «فطرة», إلى شيء ما ذاتي نفسي, قد يكون «العدالة» أو «المساواة» أو «الحرية» أو «الشعب» أو «الجماهير» الخ, أو باختصار إلى شيء ما «أخلاقي», صادق أو كاذب, ومن غير الممكن تحديد أين ينتهي الصدق ويبدأ الكذب. هذا الوعي اللامفهومي واللاتاريخي يعشق مثله الأعلى الأزلي (أي الأزلي ـ العابر) كما عشق قائد تاريخي القومية العربية والرسالة الخالدة. لكن, في هذه الحالات كافة, من المناسب التذكير بقول مأثور: «بين أن أحب وأن أتصور أنني أحب أي إله يستطيع أن يرى الفرق!». هذا القول المأثور قاله أندريه جيد, وهو أديب فرنسي يحبه القائد التاريخي المذكور, ونحبه معه... لنقل أنه أديب وبعيد عن هاجس الثورة أو السلطة.

الوعي العربي السائد حول الثورة والتقدم وسواهما من فكر ومفاهيم إلى عناصر وجود واختار أن يعيش في بعضهن ضد بعضهن الآخر, «الثورة» وتوابعها العنصرية تلغي التقدم, التدرج, الاصلاح, الدولة, المؤسسة.. التوابع هي «الشعب», «الجماهير», الطبقة العاملة, الكادحة الخ لا فرق في ذلك: كلهن أقاليم وجواهر. وفي هذا الوعي السائد, «الثورة» تتبادل الارتباط مع «الشيء» ومع «الحدث»: أنها جزء مميز وتمتاز في النظرة الشيئية إلى الواقع, في النظرة الحدثية أو الاحداثية إلى التاريخ, وهما وجهان للتصور الشيئي ـ الرمزي للواقع أو العالم. الثورة «حاضر» أبدي, إذن عابر, وبالتالي مستحيل, كتقدم, كجدوى. الحاضر لحظة, برهة, برهة بين الماضي الثقيل والمستقبل الفلكي, في خط الزمن الفارغ.

مع أن فكرة الحاضر الحقيقية هي فكرة الراهن والفعلية Wirkhch Actuelوهي إذن فكرة الواقع, das Reale. Reel. هذا الحاضضر الحقيقي ملغي في الوعي العربي السائد: اللامنطق يلغي

الزمنية. يجب الخروج من هذه الحالة التي لها إحداثية قديمة. محلية. ولها إحداثية جديدة ومعاصرة وعالمية. مثلاً في عصر التضخم النقدي, يتحول «المستقبل» في حياتنا اليومية من فكرة مجدية إلى هاجس متسلط: كثيرون (من ذوي الحظ) يشترون «عيادة» أو «مكتباً» من أجل «الولد» الذي سيصبح مهندساً أو طبيباً.. بعد عشر سنوات أو عشرين سنة. «المستقبل» يقتل الحاضر. القاتل الأكبر هو الماضي. والمقتول هو المجتمع.

يجب الخروج من هذه الحلة.. يجب على الفكر أن يعود إلى الفكر.. يجب إعادة الكلمات إلى حقيقتها, إلى وظيفتها: فكر, مفاهيم.

«ثورة» مستمدة التي لها إيحاء «ثورة» العربية. الأرجح أن الأتراك والفرس (وربما العرب أيضاً لكن قبل نصف قرن) يقولون «انقلاب» حيث نحن العرب نقول (اليوم) «ثورة», الثورة انقلاب, الثورة تغير كبير, جذري وأساسي.

في الآونة الأخيرة. في قاموسنا المتداول, خفضت كلمة «انقلاب» وعظمت كلمة «ثورة». كلمة «انقلاب» أصبحت تعني شيئاً شبيهاً بـ coup و coup d'etat, ضربة, انقلاب عسكري. يمكن أن نشاهد, مثلاً, مناقشة موضوعها: هل ثورة 23 يوليو 1952 انقلاب أم ثورة؟ ويفترض المتناقشون أن الإجابة على السؤال المذكور هي الذروة والنهاية والخلاصة وأنها هي الحكم على جودة أو رداءة الشيء ـ القضية! هذا جزء من الحالة السائدة: وثنية ومانوية القاموس!

Revolution اللاتينية ـ الأوروبية قريبة من Evolution التي تعني «تطور» وتعني أيضاً «حركة». وهي (Revolution) مصطلح مستخدم في الفيزياء والفلك, في علم الميكانيك, حيث يعني أو يفيد: انقلاب, دورة, دوران. الكلمة واردة مثلاً في عنوان كتاب كوبرنيك. مرة أخرى, Revolution تقابل Evokition (حركة, تطور).

وكما ذكرنا, كانت الثورات الصينية الكبرى خلال ألفين أو ثلاثة آلاف من السنين تطيح بالحكم والنظام, لكن كان التاريخ يعيد نفسه بعد الانقلاب الشعبي الكبير. فالتاريخ ليس رهن الإرادة, لاسيما العدالة. أن إعادة توزيع الأراضي بعد ثورة كبيرة و«منتصرة» لم تكن تدشن عهد العدالة الأبدية. الثورات في تاريخ الصين عمليات ضرورية, حتمية (نابعة من أسباب وأوضاع) وهي. ثورات بلا تقدم.

كلمة «ثورة» العربية تحمل معنى مباشراً يعبر عن جانب مهم في كل ثورة: ثار, هب, انتفض. بين عناصر «الثورة» فكرة الغضب, ثورة أو سورة غضب, فكرة الهوى والآلام والجموح Passion, شيء غير «طبيعي» (رغم أنف الوعي السائد الذي يحب الثورة من أجل الثوة).

وكل ثورة حقيقية, من جهة أخرى, تتضمن بين تعيناتها فكرة عودة, رجوع. لكن الثورة الايجابية فعلاً تضع أساساً لتقدم. والثورة في هذه الحال تكون درجة أساسية على سلم التاريخ الذاهب إلى أمام. الثورة الواعية هي التي تعي موقعها في مسار التاريخ كتقدم. هذا الوعي متفاوت... في ثورات العصر الحديث وثورات القرن العشرين, إنه يكشف في «لحظة» القيامة ويبرز بعد انقضائها...

كل ثورة إنما تتضمن فكرة عودة أو رجوه. لكن كيف وبأي معنى؟ عودة إلى ماذا؟

الثورة الشيوعية عودة من فوق طبقة المجتمع والتاريخ الطبقيين إلى المجتمع اللاطبقي لكن في مستوى جديد وعلى أساس أدماج كل الإجاز الحضاري والثقافي والاجتماعي الايجابي للتاريخ الطبقي. توجهها الكبير والبارز والمؤكد هو مستقبل يطوي الماضي, مستقبل ليس الماضي. الحاضر والماضي والمستقبل مفاهيم حقيقية وفكر قوية في ماركسية ماركسي وفي كل ماركسية شعبية. ماركس, حتى في مخطوطات 1844 (التي محورها فكرة الانخلاع والتغرب الخ), يشن حملة طويلة على «الشيوعية الفظة» أو «الشيوعية الماوانية», يدبين حلم الرجوع والمنام «الطبيعي» والوقف الطوباوي, ثم, في الايديولوجيا الألمانية, يدخل في مناظرة طويلة, فلسفية واجتماعية, ضد ماكس شتيرنر, راد الفوضوية وحامل لواء «الفرد» و«الحرية» (أي, بالمدلول العربي والفلسفي للكلمة: مجرد الفرد ومجرد الحرية).

لينين, في أعقاب الثورة السوفياتية, يدعو الشيوعيين الذين لا يحبون التجارة إلى «تعلم التجارة على الطريقة الأوروبية» بدلاً من الطريقة الشرقية, يعلن أن الرأسمالية التي هي شر بالمقارنة مع الاشتراكية هي خير عظيم بالمقارنة مع الآسيوية والقرون الوسطة والحالة الروسية, يرفض ويشجب دعوة «الثقافة البروليتارية» (البروليتكولت) ويفه لواء المحرز الثقافي التاريخي للبشرية, لاسيما الثقافة البرجوازية, يدهو شعوب الشرق إلى الثقافة والتمدن كشرط للانتصار على الغرب الامبريالي...

الحركة والوطنية والقومية العربية رفعت لواء عصور الازدهار العربية من فوق عصور الانحطاط والحقبة المملوكية والعثمانية. وكانت تعي أنها قيد صنع شيء جديد, كانت تعي مبدئياً أنها بالاستقلال والسيادة تؤسس لتقدم ولوحدة عربية قومية تستجيب لمتطلبات العصر. عبد الناصر ذروة هذه النهضة, عمقها ووسعها, شعبياً وتاريخياً.

أمجاد روما القديمة خدمت الوحدة الإيطالية, الأسطرات الجرمانية أو الوسطوية خدمت الوحدة الألمانية, الخ, ودائماً كانت الحركات القومية متطلعة إلى مستقبل حقيقي, مستقبل ليس الماضي.

مشرعو ملك فرنسا فيليب الجميل (حوالي سنة 1400) أو مفكرو النهضة (ق16/15) «عادوا» إلى روما واثينا من فوق العصور الوسطى.

اللغات القومية الحديثة (الايطاليى الخ) «أسسها» كلاسيكيون لاتينيون (بترارك Petrarque مثلاً). «الأصليون» الحقيقيون يبنون النهضة والتقدم!

الإصلاح اللوثري عودة إلى «المسيحية الأولى» وإلى «الكتاب» من فوق الكنيسة «الموجودة» والظاهرة والبارزة ألخ التي يطعن الاصلاح اللوثري في كونها هي الكنيسة الحقيقية أو الواقعية والفعلية Reelle حسب بولس الرسول.. وإذا قارنا هذا الانقلاب (انشقاق, هرطقة, الخ) على يد لوثر وكالفن وفاربل وزفنغلي الخ مع هرطقات العصور الوسطى, أمكننا القول أنه هو الأكثر جذرية والأكثر جدوى وهو الأكثر «في المسيحية» والأكثر مسيحية, معاً بالتلازم. أنه الأكثر أساسية وأصولية والأكثر حداثة وعصرية ومستقبلية. لسوء الحظ, في حالتنا الحاضرة, كلمة «أصولية» هي أيضاً ضيعت المعنى! صارت شداً مادياً نحو ماضٍ مادي مستحيل.

ثمة قاسم مشترك بين المجتمع المدني البرجوازي الحديث والعالم الروماني الأخير من فوق العصور الوسطى الإقطاعية والكنيسة: فكرة السيادة Souveratnete أو الدولة, فكرة الملكية الخاصة والحارمة Privative (أو لنقل: فكرة الملكية وفكرة الملكية). هذا القاسم المشترك قائم في الواقع نفسه. لهذا السبب, يمكن أن تكون الحقوق الرومانية (التي لعب السوريون دوراً بارزاً في تكوينها: الامبراطور كاراكالا, المشرعان أولبيان وبابينيان...) «استباقاً» Anticipation للمجتمع المدني البرجوازي الحديث (حسب قول ماركس): المجتمع القديم مجتمع رق, بينما المجتمع الحديث مجتمع برجوازي رأسمالي, لكن العبد سلعة. والفكر والواقع يفصلان: تسقط خصوصية الرق, نبقى عمومية السلعة. «المجتمع المدني» هو ميدان التعامل بين البشر, هو «الكينونة» الاجتماعية التي لها وظيفة تعيين وتقرير على «الولاية».

القرن السادس عشر ـ النهضة, الاصلاح ـ عودة, وعودة تؤسس للتقدم والبناء.

وكل «عودة» مهددة بأن تؤسطر هذا الذي «تعود» إليه, أو بأن «تعطيه» أكثر مما يجوز. لكن الوعي الحقيقي جهاد ضد هذا النزوع, وضع فوق الحقبة التي «يعود» إليها مبدأ مجرداً. وفي الحاصل, أن أولئك الذين «عادوا» أو أعلنوا «عودة» كانوا يعودون لا إلى عصر وحالة بل إلى مبدأ أو إلى «شيء ما» في العصر والحالة, ولذلك كانوا ثوريين حقيقيين أي مؤسسين لتقدم. كانوا يرجعون إلى مبدأ مجرد, إلى كلي حقيقي.

هكذا «الثورة البرجوازية»: أنها مسلحة بمبادئ ـ كليات, ومشدودة إلى مستقبل. هكذا الثورات الكبرى في تاريخ الغرب (هولندة حوالي سنة 1600, انكلترا ق17, الولايات المتحدة ق18, فرنسا 18). «مبادئ كليات»: هذا معناه شيء له علاقة بكل الأشياء, بكل الواقع والحياة والتقدم: العمل, التعامل, الحرية, «حقوق الإنسان والمواطن», المساواة الحقبة, الوطن, الأمة...

هكذا الثورة الروسية (1917), الثورة الصينية وغيرها: المستقبل, انهاء استثمار الإنسان للإنسان, الغاء الطبقات, الحروب, الظلم الاجتماعي والاضطهاد القومي. المستقبل بيس الماضي. الماضي لا يحمل من هذا المستقبل سوى حلمه, الحاضر يحمل الحلم وشيئاً آخر ليس الحلم. هذه الثورات, مبدئياً, أكثر وعياً لمهامها التاريخية من الثورات البرجوازية.

إن الثورات الجماهيرية لم تحول الأرض إلجنة. مع العلم أن النفس «الخلاصي» أو «القيامي» رافقها ولازمها, بطبيعة الحال. ما كان يمكن أن تقوم وأن تنتصر بدونه. لكن, ما كان يكون لها أي جدوى لو لم تكن سوى «قيامية» و«خلاصية», لو ضحت بالوعي لصالح «الرؤيا», لو كان جوهرها العودة إلى «فردوس مفقود» خرافي.

هكذا أيضاً ثورات الاستقلال الوطني. الثورتان البرجوازيتان, الهولندية والأمريكية ـ الشمالية. كانتا جوهرياً حربي استقلال وطني. الثورة الهولندية رفعت هولندا في فقرة قصيرة إلى مرتبة الطليعة في ركب التقدم التاريخي وإلى السيادة الأولى, لفترة. هكذا أيضاً الحرب الأهلية الأمريكية (ق19), الشمال ضد الجنوب, الغاء الرق: إنها ثورة كبيرة جداً, جذرية, ظافرة, وفتحت الباب على مصراعيه ليس للعدالة والمساواة بل للتقدم والولايات المتحدة الرأسمالية والامبريالي.

4ـ فكرة التقدم, الإنسان والتاريخ

ثورة, تقدم, الخ, الكلمات تتخذ شتى المعاني. بعد التأكيد على هذا المبدأ المنطقي أو الغنوزيولوجي, وإذا حصرنا النظر في تاريخ المجتمع البشري, وفي المعنى الايجابي مبدئياً للكلمتين الآنفيتن, وجب علينا القول: لا ثورة بلا تقدم وتقدمية. الثورة حلقة في تاريخ هو تقدم. والتاريخ البشري يتمثل في جانبه الأهم كتقدم.

أن قسماً من الفكر العربي والوعي العربي, اليوم, ينفي فكرة التقدم, بشكل صريح أو ضمني. وكذلك يفعل قسم كبير ومتنوع من الفكر العالمي, قصدت: الأوروبي والغربي. هذه الحالة جديدة إلى حد كبير.

فكرة التقدم فكرة أوروبية حديثة, جوهرياً. لها حتماً عناصر آتية من بعيد في الزمان والمكان, لكنها كتصور أساسي للتاريخ البشري فكرة أوروبية وحديثة «في الحاصل»[7].

فالتصور الشرقي للتاريخ, وأيضاً اليوناني, تصور دائري. هذا التصور الدائري يستمد من تأمل الطبيعة (الطبيعة دورة, دورة ميكانيك, دورة حياة الخ) ومن تأمل البشر والأمم..

والتصور الدائري للتاريخ البشري يبرز أحياناً في الفكر القومي, عند ساطع الحصري مثلاً, معززاً بمشابهات مع الطبيعة: «مد وجزر», الأمم تصعد وتهبط. هذا التصور عن الأمم يقف في الوسط المغلوط بين حقيقتين: من جهة. ليس فقط الأمم تصعد وتهبط بل الأمة كحقيقة لها ولادة وفناء مثلها مثل «كل الأشياء» و«الأحياء», ومن جهة ثانية, ما يهمنا هو تكون الأمم وتقدم الأمم.

الرؤية «الموسعة» قتلت هذا الجانب التاريخي الحقيقي الذي ليس رؤية «الأشياء» و«الأحياء»... مع أن الفكر القومي العربي تكلم عن عملية تكون الأمم. لاسيما وبشكل خاص تكون الأمة العربية, وأن كان لسوء الحظ حصر هذه العملية في حركة الاستعراب, الحركة اللغوية, استناداً (عند الحصري) إلى الزوج المتكافئ «لغة ـ أمة»... رغم هذا وغيره, ورغم مؤثرات لاعقلانية ألمانية وأوروبية ورغم قاع قديم غير تقدمي, يمكن القول أن الغلبة ظلت, في تاريخنا الفكري الأخير, لفكرة التقدم بالارتباط مع المشروع الوطني والقومي والاجتماعي...

في أوروبا الغربية, سلطنت فكرة التقدم في عصر الصعود والجهاد, وصارت الكليات الكبرى ـ بما فيها مفهوم «الطبيعة» الفلسفي وتنويعاته: «الحق الطبيعي», بل و«حالة الطبيعة», والاشتراكية الطوباوية ـ صارت أساساً لفكرة التاريخ ـ التقدم أو التصور التقدمي لتاريخ الإنسان. يمكن القول أن فكرة التاريخ وعلم التاريخ تأسسا (ق18, ق19) على هذا المفهوم نفسه وعلى كليات الإنسان, العمل والشغل, الأمن, الملكية الخ... والكلام عن مصائر البشر وطبائع البشرية واختلاف الحضارات الخ, ووعي التاريخ كدراما وكمأساة (حروب, جرائم, الخ) لم يستخدما ضد فكرة التقدم, كممكن, كواجب, وكواقع. هكذا يمثل الفكر الأوروبي في زمنه الأعظم, هصر الثورة الفرنسية

وهيغل, العصر الذي يضم فولتير وروسو ومنتسكيو, آدم سميث وريكاردو, كنط وفيشته والأخوين فون همبولدت وكلاوسيفيتس, وموزار وبيتهوفن وغوته وهلدرلين والرومانطيقية..

العصر التالي ـ البرجوازي المستقر البرجوازي المأزم ـ بسط التقدم وابتذله (الوضعوية, التطورية, البراغماتية, الاقتصاد البرجوازي المبتذل الخ) أو (في اللاعقلانية المقاتلة) ألغاه: تبنى «الرجوع الأبدي» وتبنى فكرة «العرف» اللاتاريخية[8]. الايديولوجية البرجوازية في العصر الامبريالي تنقسم بين تفاؤل مسطح وتشاؤم صميمي.

القرن العشرين يشهد حربين عالميتين مع جرائم كبيرة وأزمات متنوعة.. «التفاؤل» ينتهي, يعود, ينتعي مرة أخرى... التقدم يوضع في السؤال والطعن: هذا حقه واستحقاقه. لكن بعض التيارات ترد فكرة التقدم من أساسها: لا يوجد تقدم, التقدم أكذوبة إيديولوجية, كل الحالات متساوية, اذا تكلمتم عن «مجتمعات بدائية» ضهوا كلمة «بدائية» Primitive بين مزدوجين.. في أوساط الماركسية في العشرين سنة الأخيرة لوي ألتوسير يعلن في مستوى النظرية موقف الاتاريخية واللاإنسانية Antihistoricisme وAntihumanisme في رد باطل على تاريخية وإنسانية «تجاوزنا الحد». هذا الموقف لالتوسير شاهد ثمين على ترابط المفهومين المنبوذين: فكرة الإنسان وفكرة التاريخ!

في تاريخ الفكر العربي النضوي, إن رفاعة الطهطاوي «تابع» إلى حد كبير لمرحة أولى في الفكر الأوروبي (العقلانية, الأنوار). خلفاؤه تابعون لمرحة تالية, وضعوية علموية. وجيل ثالث يتبع, أكثر, اللاعقلانية. وجيل حاضر يركب على «العلوم الأحداث», على «الانتروبولوجيا الثقافية» مثلاً, لينفي التقدم.. (هذا أححد جوانب تاريخنا الفكري).

إن أحد أشكال تصفية مفهوم التقدم هو إغراقه في «النسبية». في القاموس العربي المتداول, هذه الكلمة ـ «نسبية» ـ تعويض يكمل الإطلاقيات الصنمية (الموجودة ذائماً عند حاملي «النسبية») وحل وهمي للمسائل قوامه وأساسه تصفية المفهومية وتصفية الكلي Universel. فالمفهوم الذي ليس إلا نسبياً, المفهوم الذي ليس له وجه من مطلق, ليس مفهوماً, بل هو «فكرة» براغماتية منسية. المفهوم عام وكلي. والتقدم والتقهقر مفهومان. و ـ بعد ذلك ـ كل الأشياء نسبية أي «علاقية». صفة المفهوم أنه ليس شيئاً وليس مثالاً حسياً. كلمة «مثال» العربية مزدوجة. إنها تعني من جهة المثال الحسي ومن جهة أخرى الفكرة Edee أو المفهوم. ثمة بين المعنيين هوية وفرق. في قضية التقدم. «أوروبا» مثال يوضح المفهوم. إنها ليست المفهوم. المفهوم هو بالأحرى: الإنسان.

إذا نظرنا إلى تاريخ الأرض والأحياء عليها, أمكننا القول: هذا التاريخ (ميلارات من السنين) هو «تقدم», «جيولوجي» و«بيولوجي», وهو تطور «طبيعي»[9].

بعده, هناك تقدم آخر, نشوء الإنسان, تاريخ البشريات = «الإنسان الصانع» Homo taber, أخيراً تكون «الإنسان العاقل» Homo sapiens. المجموع هو طور «انتقال» طويل «من الطبيعة إلى التاريخ» (حسب صيغة انجلز الشعبية والضاربة).

ثم يأتي «التاريخ», تاريخ «الإنسان العاقل», النوع المتميز, والواحد: خصائص نفسية واحدة وامكانات ذهنية واحدة.

ولنقل أن هذا المعنى ـ نوع متميز وواحد ـ, الذي تثبته وتشرحه المعرفة العلمية الحديثة, وجد تعبيره الديني ـ العقيدي والشعبي في فكرة «آدم» و«بني آدم» المتعارضة مع الغرق الكوسموسي, مع الاحيائية ـ الأرواحية, مع الطوطمية, ومع العرقية[10] بما فيها العرقيات المهذبة: عالم الأصناف.

الإنسان طبيعة, طبيعة عامة (جسم, كائن حي, حيوان) وخاصة: إنه الإنسان الصانع والعاقل, كائن الوعي (الوجدان) والاجتماع, والتاريخ أي: التاريخ غير البيولوجي, غير الطبيعي.

هذا لا يعني أن التطور الطبيعي ـ البيولوجي للإنسان انتهى 100% منذ أن بدأ تطوره التاريخي أو الاجتماعي أو الحضاري, الثقافي, الصناعي (وجميعها مفاهيم متلازمة وبمعن ما مترادفة)[11]. في الوقت الحاضر مثلاً, يشير علماء سوفيات وغربيون إلى تطور بيولوجي ـ طبيعي معين للإنسان تحت سلطة التطور الآخر: إنسان المستقبل سيكون أكثر تحملاً للضجة والتلوث,

و«الاصطفاء الطبيعي». (فكرة داروين) يلعب لصالح الأكثر تحملاً للضجة والتلوث. الحضارة تنعكس على الطبيعة. بالأساس, الشغل علاقة (تبادل) بين الإنسان والطبيعة خارجه..

لكنه يعني أن الشيء البارز والأساسي في تاريخ «الإنسان العاقل» أو «الإنسان العاقل العاقل» على امتداد خمسة آلاف أو عشرة آلاف سنة هو تطوره (تاريخه. تقدمه) غير الطبيعي وغير البيولوجي.

مع ذلك, هناك من يعتبر فكرة التقدم فكرة مبهمة, خاطئة, لا مبرر لها. الإنسان هو هو. كان يقتل وهو الآن يقتل بأدوات وامكانات لم تكن متاحة له في الماضي. كان يغضب ومازال. كان ومازال يحب ويكره ويحقد. كان ومازال مركباً من خير وشر, من فضيلة ورذيلة.

بتعبير آخر: الإنسان هو هو, هذه طبيعته.. ـ لا شك في ذلك, والتقدميون يخطئون حين يديرون ظهورهم لهذه الحقيقة (هذا الجانب أو هذه الجوانب ألخ) أو لهذه المسألية بوصفها دينية ولاهوتية (النفس أمارة بالسوء, عقيدة الخطيئة الأصلية, الإنسان ظلوم وجهول, الخ) وشعبية. لكن الاتقدميين يخطئون في كونهم يستخدمون «الطبيعة» كحاذفة للتاريخ والتقدم التاريخي (الإنسان سيد وفاتح, مستخلف في الأرض, الخ: تاريخع التقدمي «تابع» هو أيضاً لطبيعته, التي هي طبيعة مغايرة, طبيعة نوعية ـ خاصة), وكمؤسسة في انحطاطها الذاتوي والسيكولوجي لـ «ثورة» خارج التاريخ, لـ «قفزة خارج التقدم». ولئن كان هوركهايمر أو بنيامين أو غيرهما في الغرب يرفعون هذا اللواء ـ «الثورة, قفزة خارج التقدم» (أنظر المقال عن ندوة هوركهايمر, في مجلة الوحدة, العدد التجريبي, حزيران / يونيو 1984, ص 114 ـ 115) فإنهم على كل حال يعرفون جيداً ما هو التقدم ويعترفون بما هو! عندنا, ليس الأمر هكذا. وهذا الذي عندنا مستمد جزئياً من موقف شرقي قديم, وجزئياً من فكر غربي حديث أو معاصر, مبتذل وابتذلوه أكثر.

هذا, إذا لم يتجاهل العقيدة الدينية مع ركبه على الدين علنا: فهو يحول الطبيعة عامة والطبيعة البشرية إلى خير عظيم (متجاهلاً الخطيئة الأصلية ـ خطيئة آدم, المعصية الأولى والأوضح ـ وعواقبها السلبية والإيجابية, المأساة والتقدم), أو يضع «الطبيعي» فند «المصطلح» (بدلاً من أن تكون الطبيعة مقابل الصناعة والتاريخ والثقافة الخ). أنه لا يعترف بالدراما ولا يعترف بالوجه المأساوي للتاريخ, مع أنه يعرف «جيداً» هذا الوجه في تاريخنا مثلاً. لكن الاعتراف, كما يقول هيغل, أصعب من المعرفة وهو الشرط لمعرفة صحيحة! لأن الطبيعة ليست خيراً مطلقاً, لأن «الطبيعة» ليست مترادفة مع «الخير», لذلك هناك تاريخ ممكن, هو تقدم, تدرج, صعود, أساسه جهاد. التاريخ ليس تاريخ الملائكة في الملأ الأعلى, أنه تاريخ بني آدم في الأرض. تاريخ الأميين في الدنيا.

5ـ معيار التقدم

ما هو التقدم؟ هل التقدم موجود؟ ما هو معيار التقدم؟

التقدم هو أولاً وفوق كل شيء تقدم الانتاجية (Productivite مردود الشغل) والإنتاج و«التوابع» (مع المزدوجين), و ـ كخلاصة بارزة ـ نمو حجم النوع بخلاف الأنواع الطبيعية العادية, أي نمو تعداد البشر في «أرضض البشر». الإنسان كائن الشغل, الإنتاج, الحضارة, الاجتماع, الوعي والوجدان الخ. والتقدم هو تقدم هذه الجملة. وأول ما يلفت النظر في جملة هذا التاريخ هو نمو تعداد النوع البشري.

قبل عشرة آلاف سنة, كا تعداد البشرية, في مرحلة الصيد والقطف, 10 أو 15 مليوناً, حسب «التقديرات». والتقديرات تعتمد على دراسة الكثافة: بالصيد والقطف, لا تعطي الأرض امكانية عيش إلا لعشرة أشخاص في مساحة مئة كم[12]... فيما بعد (الزراعة والرعي, الحضارات النهرية الكبرى في الشرق, تعمم الحديد, الامبراطورية الرومانية, أخيراً بداية العصر الحديث) ارتفع تعداد السكان إلى 30 مليوناً, 100 مليون, 450 مليون من «النفوس», معظمهم في المناطق الحضارية (الصين, الهند, الخ, البحر المتوسط, أخيراً أوروبا الغربية) بينما ظلت مناطق وقارات وأشباه ـ قارات شبه خالية, أي أنها بقيت في الحالة «السابقة».

ضد من يعترض على فكرة التقدم «المبهمة» و«غير المبررة», أثول أذن:

هذا هو التقدم. ثمة «تاريخ اقتصادي لسكان العالم» (عنوان كتاب لـ كرلو شيبولا, Carlo Cippola), أي تاريخ ديموغرافي يرتبط بثورات الانتاج كإنتاج (الثورة الزراعية, الثورة الصناعية). «التفجير الديموغرافي» الأخير (منذ قرنين, ومنذ نصف قرن) يرتبط بـ «الثورة الصناعية»: هذه العلاقة ليست علاقة آلية, مباشرة, أنها تتم في إطار عرفت انفجارها الديموغرافي الأكبر في القرن 19, لكن النمو الديموغرافي كان, داخل أوروبا, أسرع أحياناً حول «المركز» منه في «المركز»[13]..

التقدم تقدم الانتاجية: هذا خط عريض في جملة تتخطاه. تكلمت هن «توابع». «التوابع» كثيرة, كبيرة: دولة, نظام, مؤسسات, عقل, فكر, «تكنولوجيا», أمن, تراكم, الخ. التاريخ ليس تاريخ «بشر وأدوات انتاج». لكنه لا يفهم بدون ذلك.

بعد اللمحة «الديموغرافية», يمكن أن أقول:

التقدم هو تقدم «إنتاج المجتمع», حيث المضاف إليه ليس في مقام الفاعل فقط بل في مقام المفعول بهه أيضاً: المجتمع يُنتج المجتمع. هذا الأمر يمكن أن يتقدم ويمكن أن يبقى على حاله, ويمكن أن ينتكس وأن ينهار.

في يوميات البديري الحلاق أو في رحلة فولني إلى مصر وبلاد الشام (ق18). يتبين أن «إنتاج المجتمع», عندنا كان في حالة سيئة تماماً[14]؟

حوالي سنة 1800, يقدر عدد السكان في مصر بـ 2 أو 3 مليون, في سوريا بمليون, في العراق كذلك (ثم أقل). الانحدار ـ بالمقارنة مع حقب سابقة ـ ليس ناتجاً عن قلة النكاح والأنجاب, بل يرتبط بـ «كثرة الوفيات». الناتجة عن سوء «الجملة», هذه الجملة التي تضم: الزراعة, الإنتاج عموماً, الأمن, الملكية. الأخلاق. الديم الخ. و«الجملة» ليست جمعاً حسابياً, «الكل» ليس «المجموع». يمكن أن نتساءل مثلاً: ما هي, آنذاك, نسبة الذين يعيشون من العمل ونسبة الذين يعيشون من التهب والاستزبان؟!! ويمكن أن نقول مثلاً: الأخلاق هي «الوجدان» (=الذاتي) و«العمل والتعامل» (= الموضوعي), ويمكن أن نضيف: هذا «كل» المجتمع و«كل» الإنسان. وهو الذي كان منتكساً في فرننا الثامن عشر. من المؤسف أن الفيلسوف كنط والبديري الحلاق, أو أن الجبرتي وروسو, لم يعرف أحدهما الآخر.

التقدم مقولة واضحة إلى حد كاف, مفهوم جيد التأسيس, و, مسألة ومسائل. أن التفجر الديموغرافي الأخير شاهد, بين شواهد, على أن لكل تقدم نهاية. هذا توجد في الفكر النظري الرياضي ثلاثة مفاهيم ضرورية: حد أدنة Minimum وحد أقصى Maximum وحد أمثل Optimum. على الوعي العربي أن يدرك هذا المصطلح الأخير: حد أمثل أو أفضل, Optimum, ليس الحد الأقصى. عليه أن يدرك هذا المفهوم المرتبط بالمنطق وبالواقع, ضد النزوع الطاغي: الكم, الحجم, الضخامة, الـ «Megalo» (العظمة), إذن الكم المجرد المطلق من المنطق والقياس والتناسب.

فكرة التاريخ ترتبط بفكرة المجتمع, الإنسان هو الكائن الاجتماعي, هو «مجموع العلاقات الاجتماعية» وليس «تجريد الفرد المعزول» (ماركس). قمة كينونة اجتماعية.

«إنتاج المجتمع» غير «انجاب الأفراد». ثمة فرق بين «المجتمع» و«مجموع الأفراد». «المجتمع» مفهوم, هوية كينونية وتاريخية. «المجتمع» ليس مقولة بديهية. التاريخ أو التقدم (والتقهقر والركود) تابع لوقع ومنطق واقع. حركة التاريخ ليست حركة جسم يذهب من نقطة إلى نقطة في المكان المحول ذهنياً إلى زمان. المسألة هي على «الجسم». «الشعب» ليس جوهراً أو أقنوماً, كذلك «الطبقة العاملة», «الفلاحون», كذلك «الأمة». في الوعي العربي الثوراني, هناك ميل واضح إلى جوهرة «الشعب» وأقنمة «الجماهير». هذا الميل تابع جزئياً لمنطق باطل يضحي بالمعقولية لصالح المادة ـ الكم ـ الكتلة وتابع جزئياً للتسرع الديماغوجي... نظرياً, أنه يلغي فكرة التشكل, وحدة المنطق والتاريخ سياسياً, أنه ارتداد على مئة سنة أو مئتي سنة من نهوضنا.

التقدم تقدم الانتاجية, مردود الشغل الإنساني. الشغل علاقة بين الإنسان والطبيعة, علاقة تحدد طبيعته الخاصة, النوعية. فهو «الإنسان الصانع» Homo faber, أنه «حيوان صانع أدوات» Toolmaking animal (فرانكلين, ماركس, ستالين). الحضارة, الثقافة, المدنية, العمران الخ مفهوم «تابع» لهذه الحقيقة الأساسية.

هذا «المفهوم التابع» كلي. أنه لغوياً في صيغة المفرد. لا حضارات بدون الحضارة. الحضارات (اختلاف, تعدد) بدون الحضارة = لا معنى, لا منطق. القرن الثامن عشر الأوروبي أكد الحضارة, القرن التالي (الوضعوي, العلموي) أكد الحضارات, وأكدها في أحيان كثيرة ضد الحضارة. دوائر شينغلر إنماه جديد, «حيوي» ولا عقلاني, لهذا الاتجاه. ومثقفون عرب وعلماءء عرب يركبون هذا المركب بأشكال مختلفة, ومزاودة. بمجرد أن يقولوا «ثقافة» فأنهم يقولون ويفكرون: صراع ثقافي, صراع ثقافات وحضارات ومدنيات. باسم «الدين» باسم «الواقعية», باسم «العلمية», أو باسم المجموع. الصراع مع الامبريالية «يُثقفن», يُحول إلى «صراع ثقافي». هذا وجه مهم في انحدارنا الأخير: في عهد عبد الناصر كان الصراع مع الامبريالية صراعاً سياسياً واقتصادياً وايديولوجياً. لم نكن في خصام مع ديكارت وأرسطو وماركس وآدم سميث. كنا نطلب الثقافة, لاسيما الثقافة المتقدمة, لاسيما الثقافة الأساسية. كذلك كان عرب عهد الصعود وعهد الازدهار (الذين لقبوا أرسطو بـ «المعلم الأول») وابن خلدون, الذي ميز وبقوة مستويين في العمران, هما العمران البدوي والعمران الحضري, أجري هذا التمييز الكبير على أساس مفهوم العمران ذاته, الخاص لا يطرد العام, والخاص الأساسي مستويات في منطق الواقع ثم مراحل تاريخ وتقدم ممكن. علوم السوريون وهارفارد تضيع عند العرب, عند كثير من العرب, «البديهيات»: أساسيات المنطق والمعرفة.

بداية التمايز عن الطبيعة, بداية «البشريات» هي «الأوسترالوبيتيك» (أي, لو جازت الترجمة الحرفية للمصطلح المذكور: «قرد الجنوب») الذي عاش قبل مليون ومليونين من السنين. ذلك النوع البشري الأول كان أقرب في «شكله» لـ «القرد» منه لـ «الإنسان». حجم مخه لم يكن أكبر كثيراً من حجم مخ أرقى القردة الحاضرة (الشمبانزه)... لكنه يتميز بالشغل, الانتاج (الانتاج بالمعنى الواسع), «صنع أدوات»... وله, حسب المصطلح العلمي, «ثقافة», «حضارة» (بدون أن تكون له لغة) تدعى بالانكليزية Pebbleculture وبالفرنسية Civilisation . بالمقابل, في الوعي السائد عندنا, والهوائي إلى حد لا بأس به, «الثقافة» لا علاقة لها بالشغل, الكدح, الجهد البشري تجاه الطبيعة والحياة.

أترك الأنواع البشرية التالية: «البيتيكانتروب المنتصب»...., «إنسان نياندرتال», «الإنسان العاقل المستحاثي». أصل إلى «الإنسان العاقل», إلى التاريخ البادئ من «ما قبل التاريخ» و«البروتوتاريخ».

هذا التاريخ أقصر بكثثير من تاريخ البشريات الطبيعي أو نصف ـ الطبيعي. وهو, جوهرياً, نمو (التقدم) وسائل الشغل (أدوات الإنتاج), تطور وتعاقب وتقدم أشكال الإنتاج (من القطف والصيد إلى الزرع والرعي, الخ, إلى الصناعة الحديثة), تطور وتقدم وتعاقب أنظمة علاقات الإنتاج (الملكية, الطبقات), الثقافة, المؤسسات, الدولة, الايديولوجيات الخ.

7ـ الملكية الخاصة والطبقات
الحرية

ظهور «الملكية الخاصة» تقدم كبير. الملكية أو الخاصية Propriete تقدم جذري على اللاملكية, على «حالة الطبيعة». والملكية أفضل جذرياً من «نقيضها» المفهوم والواقعي البارز في تاريخ طويل ألا وهو «المصادرة». يمكن أن ندرس تاريخ العرب والصين وأوروبا وافريقيا من زاوية هذا الزوج المفهومي, ملكية / مصادرة الملكية, العمل, الحق, الأمن الخ مثال مركب من مثل يذهب «التاريخ» نحوه أو يبتعد عنه, يجاهد في سبيله.

الشائع عن مشروع ماركس أنه الغاء الملكية. ثمة نصوص لماركس تسمح لنا بأن تقول أيضاً, وعدا عن التصور الشائع (والصحيح), أن مشروع ماركس هو: ملكية ضد ملكية, مفهوم ضد مفهوم, معنى ضد معنى, تحت غلاف الكلمة الواحدة عينها. شعبياً, وبدون الدخول في تنظيرات لا مبرر لها, أقول: ثمة فرق بل ثمة تعارض بين أن أتصور أن ملكي هو ما في جيبي أو في قبضة يدي /و/ أن أتصور أن العالم ملكي وعالمي بدون أن يكون شيء منه في جيبي وقبضة يدي. هذا مشروع مستقبل! عن الحاضر, إذا كان لسان حالنا نحن العرب (مثلاً وبرما) أن بيتي يجب أن يكون نظيفاً وشاطئ البحر فلا شأن لي ولا لأجد بنظافتها, عندئذ فنحن تحت سلطان الملكية بالمعنى الأول, المعنى البرجوازي الذميم, أو ما ـ دون ـ البرجوازي. يمكن القول أن مشروع ماركس هو الملكية العامة ـ الفردية ضد الملكية الخاصة ـ الخصوصية.

نشوء المجتمع التاريخي ذهاباً من «الجماعة الطبيعية» تقدم كبير, مرحلة انتقال طويلة وشاقة.

ظهور الرق تقدم كبير, وبالنسبة للعبد نفسه, في الحالة البدائية للشغل والانتاج, كان مصير المهزوم في حروب القبائل الهلاك, فقط بعد بلوغ الانتاجية عتبة معينة, أصبح أخذ أسير ـ عبد أمراً مريحاً: يستطيع العبد أن ينتج بشغله ما يبقى حياته مع فائض للسيد, هذه هي القاعدة الاقتصادية المجردة لظهور الرق وانتشاره (تجارة الرقيق, حروب الدول). ثمة ريعية للعمل العبدي بدءاً من نقطة محددة في سلم الإنتاج, ربعية تجعله يظهر في شتى مناطق العالم عند النقطة المذكورة.

هذا التطور يبلغ ذروة معينة في «مجتمع الرق» أو «المجتمع العبودي» (اليونان, روما). هذه الذروة المعينة ليست الشكل الوحيد كذروة في الامكان والواقع. الظاهرة يمكن أن تستفحل داخل اطار ليس «مجتمع الرق».

هكذا حضارة الآزتيك (مع التضحية يومياً بمئات البشر من أجل طلوع الشمس).. هكذا الصين في فترات مختلفة, هكذا العصر العباسي (ثورة الزنج... ـ بعداد أهم مركز لتجارة العبيد من جميع الألوان ومن الجنسين), هكذا أوروبا الحديقة (ق17-18), هكذا الولايات المتحدة حتى سنة 1865. العبودية ظاهرة عامة كونية, متنوعة. القنانة شكل مخفض, وظاهرة عامة.

العبيد يمكن أيضاً أن «يركبوا على الخيول» وأن يحكموا. هذا قسم من تاريخنا وتاريخ شعوب أخرى في آسيا: «عبيد على الخيل», عنوان كتاب (أمريكي وامبريالي على الأرجح) لم اطلع عليه.

بمعنى من المعاني, أن العبودية شيء طبيعي في تاريخ البشرية كتقدم وكمأساة. أما أن يحكموا فلعل هذا أقل «طبيعية» و«سوية» و«معيارية»... لكن: «مثلما تكونوا بول عليكم». دائرة «المجتمع المدني» لها صفة التحديد والتعيين المبدئية. والشعر («لا تشتر العبد إلا والعصا معه..») ليس «حلاً»..

بخلاف ما ترويه الماركسية الشائعة, لم «ينتقل» أي مجتمع معين من «نظام الرق» إلى «النظام الاقطاعي». هذان النظامان هما درجتان على سلم منطق ومرحلتان ممكنتان في تاريخ الإنسان. هكذا الأنظمة ـ النماذج. إنا ليست محطات تقدم لمجتمع معين, لشعب «موجود», المجتمعات, الشعوب نتائج تشكل. فرنسا مثلاً لم تنتقل من عصر المشاعية إلى عصر الرق إلى عصر الإقطاع. أولاً لأن فرنسا لم تكن موجودة في عصر المشاعية ولا في عصر الرق. فرنسا الكيان والواقع, فرنسا الأرياف والمدن, المجتمع والدولة, الخ, تشكلت في زمن أحدث من عصر الرق. فرنسا ليست مفهوماً جغرافياً مجرداً.

المجتمع أو بالأصح العالم الاقطاعي الغربي أعقب العالم الاغريقي الروماني المتوسطي, العبدي والحضاري, لكن ثمة بين العالمين, في الزمن التاريخي الحقيقي, عالم آخر: أن بلاد الغول وايبيريا وايطاليا وبريطانيا تنهار تحت اجتياحات الجرمان (فرانك, أوستروغوت, فيزيوغوت, برغوند, فاندال, انكلو ـ سكسون, لومبارد...), أما أوروبا الوسطى والشمالية (والشرقية) فلم «تبدأ» بعد. و«الغرب» ينتقل من الحالة البربرية الجديدة أو البدائية الأصلية إلى النظام الاقطاعي. أنه بهذا الانتقال يتشكل كغرب, كحيز جغرافي ـ تاريخي جديد, منزاح نحو الشمال, محوره وادي الراين.

وهذا الانتقال ثورة تقدمية وبنائية كبيرة جداً: أراضي الصقيع والضباب والغابات والمستنقعات تحولت إلى بلاد زرع ورعي, إلى أرياف ومدن (صغيرة). والبشر تدامجوا واندمجوا. من خليط الأقوام ظهرت شعوب, قوميات, أمم, ودول ـ أمم.

ولن أقول أن فرنسا في القرن 12 «متقدمة خضارياً» على روما في القرن الأول م. لكن يجب أن نقول: أن الشرط الإنساني للشغيل تقدم, ملكية السيد على الشغيل سقطت إلى حد كبير, الفلاح القن «مربوط بالأرض», أي: ليس سلعة, أنه لا يباع ولا يشترى... ثم, في «النظام الرأسمالي», تسقط ملكية «رب العمل» على «الشغيل»: انه «العامل الحر» الذي يبيع قوة عمله والذي هو مضطر إلى بيعها.

ومن الصحيح أن نتكلم, في اطار مفهومي عام, عن تعاقب تقدمي نظام رق. نظام اقطاعي, نظام برجوازي رأسمالي, و, بادئ بدء, عن تعاقب تقدمي هو لا طبقات, ثم, طبقات ومكلية ودولة..

كذلك, من وجهة نظر «الحرية». هذا الهاجس المتسلط على بعض الصادقين و/أو غير الصادقين بشوه الرؤية, يضيع التاريخ لصالح طبيعة مفطرنة. في الوعي الضمني, تنحفر مسألة «الحرية» في علاقة الإنسان بالإنسان (طبقات, ظلم, دولة, قهر...), لكن خارج علاقة الإنسان مع الطبيعة!! تكون الحرية بنت «الطبيعية» وملازمة لـ «حالة الطبيعة». وإذا لم تكن من نصيبنا فالسبب هو فساد التاريخ وظلم الطبقة الظالمة وقهر الحكام للشعوب. يمكن القول أن الماركسية قد سهلت هذا المنحى الأخير في الوعي العربي السائد, مادامت هذه الماركسية (لاسيما الماركسية الأخيرة, الميسرة أو اليسراوية) قد ضحت بمفهوم الانتاج نفسه على مذبح «علاقات الانتاج» وضحت بفكرة المنطق والثقافة على مذبح «الايديولوجيا»... والوعي العربي السائد لا يرى أن الحرية, مهما يكن لها من بذور أو مقومات في الطبيعة والفطرة, فهي جوهرياً بنت التاريخ ونتاج التقدم... كلا, أن الإنسان في «حالة الطبيعة» لم يكن حراً ازاء فقر الصحراء وغنى الغابة (بالوحوش). باختصار, التقدم تقدم قدرة الإنسان[15]؟.

8ـ المهمة الراهنة

التقدم, التخلف, التأخر مفاهيم صحيحة وأدوات ضرورية لمعرفة أحوال البشر ومصائر الشعوب. أن تكون هذه المفاهيم, دائماً, موضوع سؤال ونقد ومراجعة هذا أمر لا غنى عنه. أن تطرح جانباً تحت هذه الحجة أو تلك فهذا, بالنسبة لنا, تعويض ديماغوجي يحمل هلاكنا. خارج التقدم لا حياة لنا ولشعوب العالم الثالث. وكل «ثورة» لا تؤسس لتقدم أنما هي ثورة تأخر وانحلال.

التقدم مفهوم واضح, مسوغ بشكل جيد. كتاب التاريخ المدرسي يقدم عنه لوحة واضحة: من العصور الوسطى الحجرية إلى عصر البرونز وعصر الحديد, من الثورة النيوليتية في بلاد الشام وحولها إلى الشرق الأدنى القديم والحضارات النهرية الكبرى في عوالم الشرق, إلى اليونان وروما, إلى العصور الوسطى العربية والأوروبية, إلى الأزمنة الحديثة والمعاصرة. صحيح أن كتابنا المدرسي يحتاج إلى اصلاح جذري على هذا اللحن الذي هو العمل, الوطن, الإنسان: التاريخ كتقدم, كصعود, وكدراما ومأساة. التاريخ تاريخ البشر في الدنيا, عالم قابل للتحسين, غير قابل لأن يحول إلى جنة. لا توجد جنة على الأرض لا في الحاضر ولا في أية حقبة تاريخنا أو تاريخ غيرنا. ويوجد دائماً وجه من مأساة. الاعتراف بالمأساة شرط للسيطرة على المأساة بالعقل, كي لا يسيطر المكبوت على الوعي واللاوعي. والاعتراف بالنسب الخلاصي والقيامي للورة في القرن العشرين شرط للسيطرة على هذا النفس بالعقل, لكي لا تضيع هذه الخلاصية الثورة والمستقبل من أساسهما, ولكي تستطيع البشرية أن تمضي إلى تاريخ وتقدم أقل مأساوية.

التقدم خير مبدئي. هذا لا يعني أنه إله خير علينا أن نعبده, أن نركن إليه, هناك تقدم وتقدم. هناك تقدم إلى الهاوية.

أن تقدم «الانتاجية» (قدرة الإنسان الانتاجية) هو أيضاً تقدم «التدميرية»: البشرية قادرة على تدمير نفسها (الحروب العالمية والمحلية, الأسلحة النووية, نفاذ ثروات باطن الأرض. نمو

التلوث, مختلف أزمات العالم الراهن واستراتيجيات الدول ـ القوى, سير بعض المجتمعات والدول في العالم الثالث نحو «النفاذ» والانقراض...).

إن الماركسية لم تقع في تأليه التقدم. لقد أكدت, مع التقدم, الوجه المأساوي للتاريخ. تكلمت عن الانخلاع, التغرب Alienation.. أبرزت, في التاريخ, التباعد بين الأهداف الفردية والخاصة والنتائج الاجتماعية والبعيدة لأفعال البشر, الانفصال بين ما يريدون وما يحصل, بين مملكة النوايا وعالم الوقوع: هذا لحن كبير ينشده انجلز في الصفحتين الأخيريتين من مقال عنوانه وموضوعه... «دور الشغل في تحول القرد إلى إنسان». فالمشروع الماركسي الثوري مندرج في تصور الماركسية للإنسان وتاريخه وقدر». هذا التاريخ تاريخ «الإنسان ـ مع ـ الطبيعة». وهذا المشروع عبر عنه في صيغ لاذعة, نقلت مراراً إلى اللغة العربية: تصالح الإنسان «مع ذاته» و«مع الطبيعة» (إنجلز الشاب, وماركس الشاب), الانتقال من «ما قبل تاريخ البشرية» إلى «تاريخها الحقيقي», تجاوز «المجتمع المدني» إلى «المجتمع الإنساني» الخ الخ.

الماركسية نقدت المفهوم البرجوازي للتقدم وأدت من العتبة فكرة التقدم البرجوازية المبتذلة, أكدت وجوب التحول والإنقلاب, أكدت فكرة ثورة أكبر بكثير وأكثر أساسية من ثورات الماضي, ثورة لا تعادل كثورة ألا مع «ظهور النوع» قبل بضعة ألوف من السنين. لذلك اتهمت بالطوباوية من قبل مفكرين برجوازيين كبار لم يكلفوا أنفسهم عناء تبيان ما إذا كان هناك أمام البشرية خيار آخر في الأمكان. أما هذا وأما العدم. أن بعض ما قاله ماركس قبل نيف وقرن (البعض الأمم) يصح اليوم أكثر أيضاً مما كان صحيحاً في زمن ماركس. لقد أصبح, كراهن تاريخي, أكثر إلحاحاً. وهو يتفق, في مستوى جديد ومتقدم, مع شيء قديم في روح الإنسان.

يمكن اختصار التصور الماركسي للتاريخ في ما يلي: ثورة أولى هي ظهور الإنسان ـ النوع انتهاء إلى «الثورة النيوليتية» (الزراعة, الانتاج بحصر المعنى)؛ ثورة منشودة وراهنة تختزل (وأحياناً تبتذل!) في «الثورة الاشتراكية» أو «الشيوعية» (مع فيض من تمييزات وتنظيرات باتت أدلجات بعيدة عن الواقع)؛ وليس بين الثورتين من مهمة إيجابية للتاريخ سوى انجاب «المجتمع المدني», وهو المطلوب تجاوزه اليوم أو «تحقيقه وتجاوزه», حسب الحالات. علينا نحن العرب تحقيقه وتجاوزه.

أما القفز من فوقه, أو التحول عنه نحو أشباح الماضي المرفوعة إلى هوية ذات وأصالة الخ, فحكاية واقعية قبيحة وقاتلة.

المغايرة, الكون والتاريخ والعق

هذا المقال. بينن نصوص عديدة للفقيد لم تنشر من قبل وكان قد أرسله إلى مجلة «الوحدة» قبل وفاته بعدة أشهر. وقد ارتأينا نشره في جزأين منفصلين. (المقال رقم 6, والمقال رقم 7).

-1-

يمكن عرض تاريخ الفلسفة أو تقديم حصيلة الفكر النظري تحت مقولات شتى: الشيء أو الأشياء, الواقع, الوجود أو الكون, الفكر, الفكرة والمفهوم, الشكل والصورة, الكلمة أو الكلام والعقل, الفرق أو الاختلاف أم المغايرة, الهوية أو التماثل أو التهاوي, الكون ـ المكان والزمان, الإنسان والعمل والتاريخ, الطبيعة والصناعة, وغير ذلك...

يمكن هرض الفكر النظري أي المعرفة البشرية الأساسية تحت أية من المقولات الآنفة, مفردة إن صح القور, على أن نذهب منها في جميع الاتجاهات, مسترجعين جميع المقولات الأخرى.

وحين أقول مقولة فأنا أقصد فعل القول: قال يقول قولاً وقولة ومقولة ومعقولة, أو مقولة معقولة.

فالفلسفة هي أولاً بأول وقبل أي شيء علم القول, علم الكلام أي الكلام بما أنه علم, علم الكلمات بما أنها حدود وكيفيات إدراك, مفاهيم فُكرت, مفردات ضبطة, مصطلحات حقت.

يقول أحد الإنكليز أن ما اخترعه اليونانيون, في القرون 6 و5 و4 قبل الميلاد, إن العلم الذي اخترعه هيراقليط وبوتاغوراس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وبعض الآخرين قبلهم ومعهم وبعدهم, إن هو إلا ترمينولوجيا Terminulogia أي المفردات حدوداً ومفاهيم, أي علم المفردات أو الكلمات أو المصطلحات, منطق اللسان البشري بوصفه اللسان لا الأشياء مباشرة: في اللغة لا يوجد إلا الكلي, العام, الهويات: هذا عكس الأشياء.

وهذا العلم لا يخص أحدث العلوم, ولا يخص آخر ابتكارات الطب والكيمياء والفيزياء النووية والتقنولوجيا اليابانية, بل أولاً يخص أبسط وأسهل وأشهر كلمات اللغة البشرية, إنه يخص كلانا اليومي أو الكلام اليومي في اليونان قبل 2500 سنة, الكلام والعلم والسياسة في آثينة العابرة والخالدة, ولا شيء أقرب من التقنولوجيا اليابانية ومن مسألة وأزمة وقضية العرب اليوم, والعالم معهم.

إن الكلمات الأكثر سهولة هي الأكثر صعوبة. الكلمات الأكثر شعبية هي الأكثر فلسفية.

ما هي الكلمات الأكثر شعبية وعامية عندنا اليوم, الكلمات الأكثر تداولاً على ألسنتنا كشعب وكرجال فكر وثقافة, في بلادنا الآن؟

شعب, أمة, عالم, واقع, جماهير, ثورة, تقدم, عالم, أشياء, عقل, نظر, نظرية, دين, دنيا, جماعة, قانون, مجتمع, زراعة, صناعة, عيش, بقاء, تجارة, عمل, تعامل, علم, معرفة, هوية, مغايرة, وحدة, تناقض, شيء, أشياء, أرى, أنزر, أفعل علاقة, كيان, عدم, حق, أخلاق, فن, جزء, كل, صفر, جوهر, ماهية, مادة, فصحى, عامية, لغة, وطن, إنتاج, استهلاك, سبب, فكر, فهم... وهكذا جواليك.

إن خطاب الإغريق إلينا وإلى سوانا هو: خذوا حذركم! هذه أصعب الكلمات, جميع الكلمات صعبة. الحصان, الطاولة, البيت هذا , أنا الخ, كلمات صعبة. «في اللغة لا يوجد إلا الكلي», يقول فويرباخ وهيغل والإغريق. كل الأشياء يمكن أن أقول هنه: هذا الشيء أو هذا الأمر. وكل إنسان هو «أنا», ويقول: «أنا» وبحق!

العلم موجود قبل اليونان. بل هو علم كبير, علوم متنوعة وفعلاً ما أروع الأهرامات! وما أروع ما قبل الأهرامات! صعود البشر الأول, الثورة النيوليتية, نشوء الأوطان الأول, القرى وعوالم القرى والأرياف مع البيت ومع الزراعة والرعاية والمكاثرة, انتقال الإنسان من الافتراس إلى الإنتاج, «إنتاج البشر اجتماعياً لوجودهم ة ذاته (ماركس).

والكلام موجود قبل اليونان, موجود مع «الإنسان العاقل» و«الإنسان العاقل للعقل».

ما ليس موجوداً عو علم الكلام أو الكلام كعلم.

وهذا الاختراع اليوناني يرتبط بالسياسة وبكل شيء, إنه في ترابط أو «علاقة معيّة» مع التحول من القصر والمجتمع القصريّ soeiete patatiale إلى الأغوار (الساحة) والمجتمع السياسي. في الحالة الأولى التي عرفتها وعاشتها يونان البداية, إن الملك أو الكاهن والساحر يتكلم, «يقول الحق», الشعب أو الجمهور يستمع, وينفذ. فالقول المنطوق هو الحق, سلفاً. والقصر مادة كبيرة, كتلة مادية مليئة ومرئية وعالية, شاهقة. الأغوار ساحة, ساحة فارغة, «جاهزة», وهي مركز قائم وسط المدينة, حلبة سجال. الدولة هي الشأن العام, «الجمهورية» هي شيء الناس المشترك, السياسة هي علم المدينة ومنطقها: البوليطيقا. في الأغوار, يتساجل الخطباء, السياسيون, المرافعون. الفلاسفة, رجال الأحزاب, يتساجل حزبان مثلاً, والناس ستمعون لكي يفهمو ويحكموا على الصواب والخطأ, على الحق والباطل. قلت: سياسيون, فلاسفة, مرافعون, متحزبون إلخ, هذا واحد, بالأساس وبالنهاية, مهما كانت محتويات وثورة ما بين الأساس والنهاية. ظهور السياسة تراجع الحرب. السجال تغيّر, صار معركة الكلام, مع الحياة والتعامل مع الناس والحقيقة: الفلسفة والسياسة, المنطق والسياسة.

في تاريخ البشرية خلال 2500 سنة, بل أيضاً بمعنى ما خلال ستة أو سبعة آلاف سنة, في تاريخ البشرية مأخوذاً كتنويعة على الأشكال (ماركس), كسمفونية متموجة مع طلعات وانتكاسات, مع توسعات وتقلصات, تحت سلطان تقدم عام كبير, وصولاً إلى العصر الحديث وإلى قضية العالم وقضيتنا اليوم, في هذا التاريخ, إن الدولة والمفهوم, إن فكرتي الدولة والمفهوم, فكرتي المنطق والسياسة, كمقولتين أونطولوجيتين, تتقدمان معاً وتتراجعان معاً. كلاهما العام. ميدان الكلي. أنت غير أنا, كل منّا أنا, كلانا أنا. عندك خاص وعندي خاص. أي خاص, خصوصي, ملك, خير. لكن بيتنا علاقة, علاقة ما. مثلاً أنت جاري في الدور الذي فوقي أو تحت في هذه العمارة. أنت غير أنا, أنا غير أنت, وبيتنا مشترك هو هذا المكان ـ المحلي, وشيء آخر أيضاً أو احتمالياً. بيننا إذن كلي. بيننا علاقة عقالة = كلي = فكر وفكري = معنوي, وهكذا دواليك.

ظهور السياسة تراجع الحرب. في آثينة العابرة والخالدة وغيرها وغيرها من «مدن» التاريخ, الحرب منفية, ومنفية إلى الخارج. المجتمع عائلة من نوع جديد, عائلة جديدة, هي هي جديدة, أرضية ـ مكانية, لكنها هي عائلة, وبمعنى ما عائلة أحق.

لقد خاض سقراط وأفلاطون أو أفلاطون السقراطي أو سقراط الأفلاطوني معركة واحدة متعددة الوجوه: فرض اللوغوس الفلسفي إزاء اللوقوس الهوميري, وبمعنى ما ضده, فرض الإيدوس ضد الأيقون, أو لنقل الفكرة ـ الشكل ـ المفهوم ضد الصورة والأيقونة. بعد طاليس مخترع فلسفة الطبيعة, سقراط اخترع الفلسفة الأخلاقية, وأفلاطون اخترع الديالكتيك: هذا ما يقوله ديوجين لابيرس وهيغل ولينين, وجميع الكتب الجيدة. لكن أيضاً يمكن ويجب القول إن سقراط اخترع الفلسفة الأخلاقية مع الإنسان والحقيقة, واخترع هو المفهوم, في وحدة مؤكدة. هذا ما يبينه كتاب سوفياتي زوسي صدر مؤخراً (بالروسية). والمفهوم, إذن سقراط وأفلاطون وأيضاً أرسطو, يرتبط «بالبوليس» polis المدين ويرتبط بالمكان, لنقل عربياً الكون ـ المكان. ثمة شراكة في العربية بين كان ومكان.

هذا كله قلما وجدته في فكرنا العربي. بالحقيقة, لم أجده بتاتاً. وهذا مؤلم. وأكاد أقول: إنه, في باريس مثلاً, في السوربون وحولها, وفي أماكن أوربية أخرى, أنه يركض في الشارع, كما يقال في لغتنا أو في لغة الإفرنج. إنه خير عام, شيء صار بديهية, شيء معلوم عند آلاف المفكرين والكتاب, منهم عشرات المستعربين, عشرات المهتمين بالأدب العربي مثلاً, وبعضهم كاره جداً للعملية الأفلاطونية. هذا حقهم! أنا أوشر فقط على حدة التشخيص الأوربية لموضوع كبير جداً, نحن نجهله, نتجاهله, نبقى دونه وخارجه. كذلك, وأنا أؤكد ذلك, موضوع التاريخ والتاريخية والتقدم.

لكن أترك مفكرينا العلماء. وأريد أن أروي حواراً صغيراً مادياً, حصل مع صديق عزيز, في نزهة مسائية بين الأشجار قرب الفندق الكبير في طرابلس الغرب, أوائل 1987.

قلت للصديق: نحن لا نحب غيرنا, كيف نريد أن يحبنا الغير؟ نحن لا نحب العالم, لسنا معه, كيف يمكن أن يكون معنا؟... قلت إنه حديث عادي وتافه وليس فكراً نظرياً ولست متأكداً من الكلمات ـ المقولات, لكن الفكرة العامة وضحة, المنحى واضح.

فقال الصديق: يا شيخ, يا أخي وأستاذي, لكن أولاً, نحن لا نحب أنفسنها! وهكذا...

قلت له, بعد صمت قصير جداً: أنا لم أعد أقبل هذا الكلام, في الوقت الراهن, أنا أقلب المنطق. نحن لا نحب أنفسنا لأننا لا نحب الغير!! فوجئ الصديق, قليلاً. وتابعت: «نحن لا نحب أنفسنا» هذا يعني لا يحب بعضنا بعضاً, حسب اللغة الفصحى العليا, أو حسب لغتي العادية: «نحن لا نحب بعضنا بعضاً». وبالأصح: نحن لا نعرف ولا نريد أن نعرف أن كل واحد منا هو غير, وهو غير بالنسبة لكل واحد منا, على العموم والإطلاق. أنا غير ابني وغير زوجتي, وغير أنت, وغير ابن عمي, وغير أبي, وغير كل واحد آخر. والخيار أمامنا هو: إما أن أحب الغير أو أن لا أحب الغير. إنه خيار أولي, وبمعنى ما تافه إن شئتم. لكنه في الحاصل ليس البتة تالفه, خصوصاً, حين يتحول إلى مفهومية «الغير». إي إلى علم المنطق: كل واحد هو غير. هذا أولاً. نحن؟ أنا؟ أنا لا أحب الغير... وهذا ينعكس على داخل نحن. نحن أنوات. أفلا نعي ذلك؟ إذن: «أنا أفكر» أولاً! أنا أتكلم! لا حب ولا كره...

أتقدم إذن إلى المغايرة أو بالأصح إلى التغاير. أقصد لست مقاتلاً من أجل المغايرة بل أنا معاين لمقولة التغاير في تاريخ الفكر. أنا لست في صيغة المتعدي بل في صيغة الملازم intransitive, المتعدي الصحيح إنما يرتكز على اللازم. العمل الثوري الهادف إنما يرتكز على معرفة الواقع الذي هو إزاء. العمل تغيير الواقع, تحويل العالم.

المعرفة معرفة الواقع البادئة من تأكيد أن الهدف ليس الواقع وأن الواقع ليس الهدف, وأن الهف في هذه القضية أو هذه الحيثية هو عدم واقع وعدم وجود. وعدم, لا شيء rien, وذلك درءاً من البداية للذاتوية والإرادوية أي لهذيان الهدف. حنونه وانبهاره.

إذ قال لي أحد: تحويل, قلت له: لننظر في التحول أولاً! وإذا قال لي أحد: صدقت وأحسنت في كونك ذكرت بين مقولاتك الآنفة «التعامل» فـ«الدين المعاملة», ثلت له: الدين المعاملة, لنر «الواقع: التعامل».

لننتقل إلى المعرفة, معرفة «الواقع ـ التعامل», «المجتمع التعامل», «تجارة», «تبادل», «علاقات», أي بغلة ماركس المثلثة اللغات, في رسالته إلى آننكوف وفي الصفحات الأولى من الإيديولوجيا الألمانية, social tntercourse "vcskehr" commerce تجارة بالمعنى الكبير, الفرنسي الأعلى, علاقات أو تبادل أو حال, تواصل اجتماعي, العلاقات بين الناس, الكون الاجتماعي تعامل الناس.

وإن معرفة الواقع, علم الواقع, يشترط علم المعرفة, علم الفكر, معرفة المعرفة, فكر الفكر. هذا أولاً. اليونانيون اخترعوا علم الفكر. هذه قضية يقولها عرب.

قالها الدكتور الجابري مثلاً, في الفصل الأول من كتابه الكبير. ما لم يقله هو. علم الكلام, الإغريق اخترعوا علم الكلام, العقل فاللوغوس هو الكلام, الكلمة, الأسم, وتالياً العقل, الفكر, النسبة والتناسب, الرياضة فوق علم الحساب العادي. وإن هذا الاستغناء عند الدكتور محمد عابد الجابري عن الكلام وتوابعه من «كلمة» و«اسم» بـ«العقل» و«العقل اليوناني» و«العقل الأوروبي الحديث والمعاصر» يشوه من المنطلق موضوع الجابري. أي مسألة «تكوين العقل العربي» بدءاً من مسألة المعارضة المطلوبة بين العرب واليونان وأوروبا من جهة الهند والصين والشرق الكبير والعريق والحضاري من جهة مقابلة.

إن الجابري لم ينشء هذه المقابلة أو المعارضة إلا بشكل جزئي وملتبس وعابر في بضعة سطور (من 17-1*, الطبعة الثالثة). والحال أن هذه المعارضة مطلوبة وهي تشمل بتدين أساسيين:

1ـ ثقافات الغرب, بما فيه العرب هن ثقافة اللوغوس, ثقافة اللغة, على نحو آخر, في اتجاهين رئيسيين أو أكثر. اللوغوس هو الكلام وهو العقل. والهوية الواحدة هي الأساس المشترك للتعارض

الممكن أو الواقع, وداخل الغرب أو اللوغوس, بين عقل عربي وعقل يوناني وأوروبي. إذا نسينا عند البداية أن اللوغوس = الكلام, الكلمة, يفسد كل عملنا المعرفي أو النقدي.

2- دين الإله الواحد monotheisme مقابل أديان كبرى شرقية عظيمة, وليس عندي أي اعتراض عليها أو احتقار لها, عندي فطق اعتزاز ما بدين الإله الواحد وعندي مطلب فهم ومعرفة الأديان, أديان الإله الواحد, أو الله الواحد, والاديان الأخرى: براهمانية, بوذية, أيضاً مزدائية, بل وإحيائية وأرواحية وطبيعانية وشامانية وغيرها, وعندي إصرار ضد غارودي مثلاً على عدم الخلط...

بل أيضاً يوجد نوع من شراكة بين البندين في تاريخ الغرب جميعاً وثقافته وفكره أو عقله. تبدأ من هيراقليط. عند هيراقليط «الله, الكلمة, اللوغوس, الإسم» شركاء, هوية واحدة. والله الهيراقليطي نافي الآلهة أو مخفض الآلهة ومحيدها أو مبطلها. العالم لم يخلقه أي إله = العالم لم يخلقه أي من الآلهة. هذا وارد حرفياً في قراءة لينين وهيغل ولاسال والأقدمين لهيراقليط.

إذا كان ستالين شطب على ذلك, جاعلاً من هيراقليط حداً وطوطماً للمادية الجدلية المزعومة, فليس ذلك سوى تزيور واحد, داخل جملة من التنزويرات! وإذا كان بعض العرب لا يعرفون ان هيراقليط يطرد الآلهة, لكنه يطردهم على وجه التحديد بـ«الله, اللوغوس, الكلمة (verbe), الاسم», حيث الله بحرف أول Dieu فهذا جهد لا يمكن التساهل معه. أنه جهل عام...

غير أن الله الهيراقليطي هو الله ـ القضاء, والقضاء فقط, وليس الله الرعاية, هيراقليط يعلن عدم وجود رعاية Providence لا للكلي ولا للمفرد. ولينين, في قراءته لكتاب لاسال عن هيراقليط الغمض الأفسي, سجل هذه القضية أيضاً.

الله الرعاية, الأب الذي في السموات, الرحمن الرحيم, هذا يحمله دين الإله الواحد, والفلسفة الرواقية التي بدأت من سوريا مع زينون السوري واستمرت سبعة قرون, من سوريا واليونان إلى روما, وارتبطت بالعبيد, بطبقة العبيد, وإن كان فيها امبراطور أيضاً وخلق كثيرون, أونوس قائد ثورة العبيد في صقلية سوري, كذلك كاراكالا, وأولبيان وبابينيان..., أي الامبراطور صاحب مرسوم المساواة الرعوية العامة للرجال الأحرار في امبراطورية المتوسط, والحقوقيان الأكبران في تاريخ روما. وأوغسطين مدشن الفكر الغربي الأوروبي تونسي ـ جزائري...

الله القضاء, الله الحق أو «الحقيقة, العدالة» (سقراط, أفلاطون)؛ والله الرعاية.

وهذا الأخير بشكل خاص يحمل فكرة تاريخ وتقدم.

إذن أنا أيضاً أدين هذه الندوة. لا أجد بين «محاوركم» أيها الأخوة محوراً عنوانه: العقل والتاريخو العقلانية والتاريخ.

بوجه عام, أنا أعارض فكرة المحاور الملتبسة جداً, والتي أنا شخصياً لا أفهمها, أفهمها أقل فأقل...

لا يوجد تراكم بل ركام. كل تقدم غير دائري باطل. كل تراكم ليس له مبدأ ـ مركز إنما هو في الحاصل ركام.

كم مرة تكلمنا عن المغايرة, التعدد, الوحدة, الهوية وهكذا وهكذا, وعن العقل والعقلانية؟

هنا, هنا, في تونس الخضراء, شباط فبراير 1984. ندوة «الغزو الثقافي», وقف حسن حنفي, صبيحة أول يوم وكلمنا خلال عشر دقائق عن الشخصية العربية و«دين التوحيد» و«التعددية», أبدى أسفه لكوننا كعرب وكذهن ـ تاريخي لم نفسح المجال لفكرة التعدد. ثم مباشرة, تكلم محمد عابد الجابري عن المنطق البياني والمنطق البرهاني, مدة عشر دقائق أو أقل. وكان ذلك كافياً تماماً ليكون موضوع عمل الندوة مدة ستة أيام. وأنا شخصياً, تكفيني هاتان الكلمتان لأقدم تصوري المقتضب عن الأمور والمسائل جميعاً في مدة ساعة أو ساعتين لا أكثر, على نحو مهجي, في شكل خطاب متصل أو في شكل خطابين أو ثلاثة.. هذا لا يراد, تراد محاور. بل محاور وفورع محاور. وأنا أعاين أن لا تقدم, لا تراكم حقيقي, لا ادخار تثمير, ترسمل. من منكم, أنتم وغيركم, يذكر الآن أن حسن حنفي هنا افتتح ندوة 1984 بإثارة المسألة التي دعاها التعدد؟ والآن: المغايرة.

فيما بعد اكتشفت المزيد على حنفي وعلى الجابري. وأنا غير موافق, أنا معترض. لا ريب أن الأخ د. الجابري فهم الآن اعتراضي عليه وعلى د. حنفي وأخرين, فهمه جظئياً, وسيفهمه أكثر كما أرجو. أنا إير موافق على فهم الجابري للعقل اليوناني والعقل الأوروبي والعقل العربي, واللوغوس, والفراهيدي والخوارزمي, وهيراقليط وسبينوزا, وأنا غير موافق بتاتاً على فهم حنفي لما أسماه وما يُدعى عادة «دين التوحيد» والذي أنا دعوته «دين الإله الواحد», ولا على فهمه لفويرباخ وخاصة لسبينوزا, وعلى مجلة «اليسار الإسلامي» العدد الأول, بدءاً بالفكرة نفسها «اليسار الإسلامي», أنا لا يمكن أن أرتاح لحديث أو لمعرفة عن سبينوزا بدون مقولة النفي أي المبدأ الطريقي الحاكم, القائل «كل تحديد هو نفي»...

بعد ذلك, أنتقل إلى المغايرة أو التغاير.

-2-

المغايرة, التغاير, الاختلاف, التخالف, التباين التفاوت, الفرق. مقولة الفرق الفلسفية: هذا وغيره أشكال بل ألفاظ لمقولة واحدة, لفكرة واحدة, لمفهوم واحد. يقابله مفهوم الهوية أو التماثل أو التهاوي أو أيضاً التساوي.

وهو ليس مطلباً سياسياً عربياً راهناً, شعرنا مؤخراً بحاجتنا إليه فأخذ بعضنا يحاول فهمه أو فكره أو بالأصح «تنظيره» بما لهذه الكلمة من حنة إيجابية أو (لا مؤاخذة!) سلبية.

أنا لست هنا راكضاً إلى هذا المطلب السياسي, أو «منظراً» له, وقد قلت ما يكفي لأقول أن فكرتي عن «السياسي», أو السياسة, هي خاصة جداص بالمقارنة مع أجواء مسائدة سياسية, بل هي خاصة أيضاً بالمقارنة مع أجواء عمليات أو علموية. السياسي عندي هو ميدان الكلي شأنه في ذلك شأن شيئين: الفكر, الحقيقة. أنا لست من حزب «العلمية» بل من حزب «الحقيقة». لست من حزب السوريون والحداثة والمعاصرة بل من حزب الكلاسيك, من حزب التأسيس.

إن فكرة الاختلاف, الفكرة التي تحن بصددها, هي الأمر الجوهري أو هي جانب ملازم وحايث في الأمر الجوهري عند جميع الفلاسفة والعلماء, لا سيما (لاسيما وليس فقط) فلاسفة وعلماء العصر القديم والعصر الحديث.

أي أفلاطون وبارمنيد, ديموقريط وإبيقور وأريستيب كورينا مع فلاسفة برقة, وفيثاغور وسقراط وطاليس وخلفاءه المباشرون, وهياقليط وكراتيل وبروتاغوراس وغورجياس, وهكذا, وأرسطو بطبيعة الحال, والإسمانيون «والواقعيون ـ الأفلاطونيون», والتجريبيون والعقلانيون والماديانيون والمثاليون ولايبنتس في العصر الحديث الكلاسيكي, وباسكال ونيوتن, وكوندياك وآدم سميث وروسو وكنط, وهيغل وإنجلز وفويرباخ, وداروين ولامارك ولينه ومندل, أي علم أي علم البيولوجيا والتطور الوراثة, لا بل أي علم الجيولوجيا, لافوازييه ومنديليف وروثرفورد, هايزنبرغ ونيلس بوهر وسوسور ويوهانس فون نويمان وتوربرت فيينر, أي الفيزياء والألسنية ونظرية الألعاب والسيبرنيطيقا, وصولاً على سبيل المثال إلى قضية سقوط الفلسفة الماركسية السوفياتية والواقع السوفياتي وإلى عدم الفلسفة عندنا.

وذلك سواء ظهرت وهيمنت فكرة الاختلاف هذه عند المذكورين أعلاه كلائحة طويلة ولا تدعي الاستنفاد, سواء ظهرت عندهم إيجاباً أو سلباً, وستشرح ذلك, أو لم تظهر ولم تسلطن كمقولة وكلفظ. فهي الأساس دوماً, انقاع المعترف به على هذا النحو أو ذاك إيجاباً وسلباً. أو هي, في العصر الحديث بعد لايبنتس وعلم تحليل اللامتناهيات أي علم حساب التفاضل والتكامل, قضية محسومة مبدئياً, قضية بثوا فيها وانتهوا, مبدئياً كما قلت. أي جوهرياً وأساسياً, في قيادة الفكر ورئاسة الواقع والعمل, في الرأس.. إن الخلاف والاختلاف والصراع والصدام والتناقض في أوروبا الغربية على الأقل (لكن كذلك اليابان, والاتحاد السوفياتي يلحق بهم, يسترجع المطرود) ليس على مقولة الاختلاف أو المغايرة أو التنوع بل هو عند نقاط أو بؤر أخرى.

أما نحن فإن أمرنا يبدو مختلفاً. معركتنا, معركتي أنا, هي على بديهيات لكنها بالتأكيد معركة, بل معركة واحدة. وقضية المغايرة جانب منها هام جداً.

إن المقولة التي نحن بصددها, والتي أدعوها «الفرق», برزت بقوة عند لايبنتس, إلى درجة يمكن أن أقول معها إنه هو بطلها الأكبر.

لنذكر بمنتهة الاختصار المعقول:

1- أن لايبنتس له مأثرة تأكيد واقعية الفردي, أي أن الفردي واقع حقيقي فعلي.

2- لكن هذه المأثرة يشترك فيها لايبتاس مع التجريبين الماديانيين, وقلهم مع الاسمانيين ماديانى العصر الوسيط الغربي.

3- غير أن رجلاً مثل هوبز الماديانى, إذ يؤكد واقعية الفردي والأفراد والأشياء والكائنات المفردة أي المختلفة, وإ يؤكد هذه الواقعية ضد التيار المقابل أي التيار العقلاني والأفلاطوني وضد اللغة وضد فكرة العام الخ, يذهب إلى التصريح بما يلي: «أن وجودي وحده أكيد»! هذا الاتجاه أو المسار الذهني هو على وجه الدقة عكس ونقيض مسار ديكارت. فديكارت يبدأ. منطلقاً من الشك في كل الأشياء والأفكار, بتأكيد وجود أناه, أناه الفكرة أناه كنفس لا كجسد, أي الأنا والفكر معاً, ويصعد من ذلك إلى الله الخالق, لينزل إلى الأشياء, على ركيزة الفكر والمحاكمة مع اللغة أو الكلام. هذا الموقف نقيض هوبز وبركلي...

4- بكلي اسماني, تجريبي, مثالي ينفي المادة والأشياء. مثاليته قائمة على تجربيته, لا على قاعدة الفكر الحقيقي واللغة. إن برهنته هي ادراكية لا فكرية. كما يقول مترجمه الفرنسي بارودي.

إن ما ينقصه هو على وجه التحديد حس أو معنى أو شعور أو عاطفة «ما الفكر؟ ما عسى أن يكون الفكر؟».

5- بارودي يلاحظ أيضاً أن لايبنتس كاد أن يقع في المطب نفسه, إلا أنه عالم رياضيات وفيزياء, ولا ينقصه شعور أو عاطفة «ما الفكر؟».

6- إن لايبنتس يحتل موقفاً بارزاً في كل عرض جدي لتاريخ الفلسفة, لتاريخ المنطق الشكلي والرمزي, لتاريخ علم اللغة, لتاريخ العلم الرياضي.

7- لايبنتس مخترع علم تحليل اللامتناهيات, أي حساب التفاضل والتكامل. والتفاضل هو differential ولنقل أيها الأخوة: الفروقيات. هنا المغايرة أو التغاير, موضوعاً!

8- هنا لم نعد مع الاعداد الإيجابية, واسمحوا لي هذا المصطلح, لم تعد مع 3 و4 و16 و500 مليون وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية!, بل نحن مع اللانهاية الحقيقية والفعلية ومع الصفر الحقيقي هو سيغما (حرف S اليوناني المغاير كشكل مرئي) التي معها إبسلون (حرف يوناني آخر, يرمز إلى «الصغير جداً», قريب الصغر). لم نعد إذن مع الأشياء أو الموجودات. بل صرنا مع السيرورات أو العمليات processus لم نعد مع وجود وعدم متقابلين نقيضين متطاردين متعزلين ومتباعدين, وفارغين, بل صرنا مع الانتقال ذهاباً وإياباً بين أحدهما وآخره, صرنا في منطقة الوصول بين الوجود والعدم؟ أي وجود شيء أياً كان وعدم وجود الشيء المذكور عينه.

في الحاصل, أقول فوراً: العقل عقلان. عقل في قوامه الجوهري الفكرة الاحتمالية واللامتناهيانة مع سيغما وإيبسلون. وعقل بدون هاتين الفكرتين, عقل قوامه ضدهما, عقل كامل وتام من أشياء وأعداد إيجابية ومحاكمات إيجابية. وأنا أقول فوراً: هذا العقل لا عقل! أنا أشك في أنه يصلح اليوم حتى للحياة العملية اليومية!

ولقد تكلمت عن بركلي. أن الرجل له ماله وعليه ما عليه. وإن لينين بالتأكيد ظلمه في سنة 1908, أي آنذاك وحينئذ أن يُعرف, لكنه غير موقفه من بركلي بالذات ومن كنط كذلك, في سنة 1916... هذا قد لا يكون موضوعنا تماماً. لكن موضوعنا نفسه يفرض علي أن أقول: ثمة شراكة بين النوس (nous) البركليتي و«العقل» العربي الإسلامي الشرقي الإشارفي وغيره. أكتفي بالتنويه... بالطبع لو كان علم باسكال وعلم لايبنتس وعلم نيوتن موجوداً قبلهم, أقصد قبل فلاسفة العرب المسلمين عدا عن النصارى قبلهم ولهم, لما ذهبوا مذهبهم كله. فهم, ولنختصر, حتى وإن كان في كل اختصار ظلم, كانوا في الحاصل مع الوجود لا مع الكون, مع الصورة لا مع الشكل, مع المثال لا مع الفكرة والمفهوم, لا مع ايدوس أفلاطون بل مع شيء معاكس تحت اسم الأفلاطونية وداخل الالتباس الطبيعي, إن صح التعبير, المحمول في المسألة الأصلية اليونانية, لكن أفلاطون

وسقراط وأرسطو كانوا قد حلوها, فكروا الارتباط... وما دمنا مضطرين, من باب الواجب الأخلاقي للمعرفة الموجهة إلى الشعب إلى الاختصار والظلم, لنقل: إن الوعي الفلسفي لأسلافنا الكبار قبض على أفلاطون حقيقي, لكنه شرقي: «المعرفة تذكر والتقدم انداره» المعرفة تذكر والتقدم انحدار: هذا أفلاطون, هذا أيضاً أفلاطون الفعلي. لكنه ليس أفلاطون الخالد وصولاً إلى ساعتنا هذه, مع العلم والعلوم ومع السياسة ومصائر الإنسان. فالخالد, أي الذي نما وأنمى هو أفلاطون المفهوم, أفلاطون الإيدوس مقابل الإيقون, واللوغوس الفلسفي مقابل اللوغوس الهويميري. واللوغوس الهوميري بل والأيقون أيضاً ينحطان بدون ضدهما. إن أسلافنا العظام لم يعوا التعليم الأرسطوي الأساسي إلا على نحو وسطوي وبالتالي معقد ومشوه ومركوب بالجواهر الوجودات, ولم يعوا المبدأ الأرسطوي الذي مفاده أن «الصورة هي الشكل الأخير». وهو مبدأ أرسطو وهيغل وماركس على حد سواء. بالشكل لا الصورة نتقدم وصلاً إلى الشكل الأخير: الصورة. العقل = ضد المباشر. العقل توسط.

لايبنتس سمح لنا بأن نبرز, وراءه وحسب موقفه, مقولتين متلازمتين الفردي والمغايرة الفروقية, ومعهما فكرة الانتقال من العدم إلى الوجود وبالعكس, ضضد تعينهما الذي يلغي التغير والتاريخ, بإلغائه فكرة الانوجاد الحقيقية, فكرة ظهور شيء جديد حقيقي.. لايبنتس حل مسألة الظهور, بينها أو أبانها كسير منطقي ورياضضي في واقع الأشياء.. عاش وشارك في عصر عمل كبير, إنتاجي, إنشائي...

لنتابع...

-3-

ما الفكر وعلم؟ ما الفكرية؟ ما هذا الذي يجب أن أدعوه الفكر أسس 10 بل إن سمحعم الفكر أسس واحد؟ (كل الناس عندهم فكر أس واحد).

بالطبع أنا لن أبارح مسألة المغايرة! هذا وعد!

ولا ريب أن سؤالي الآنف يثير عند البعض, أو أن عباراتي أو كلماتي تثير عند البعض اتهاماً بالمثالية, وعند البعض الآخر اتهاماً باللاعلمية.

وأنا أرحب بالاتهامين معاً. وان ورقتي هذه تسجل هذا الأمر (هذا الاتهام) الذي قد لا يفصح عنه أحد.

لكن لا بأس من الإشارة إلى أن الفكر أس2 (أو أس10) علماً بأن 2 تكفي! هو اليوم في طوكيو أكثر منه في موسكو. وهو في طوكيو وباريس ولندن أكثر منه في موسكو, التي اليوم تحقق انقلاباً لا مثيل له وفاجأ 99% من الناس (ولم يفاجئ) لكنه لم يبلغ بعد ميدان الفلسفة, أساسها, الميدان الغنوزيولوجي خاصة وبالتحديد. ستالين أقام فلسفة ماركسية بديلة بل نقيضة وليس من السهل التخلص منها, ولا يمكن مفيها وإزاحتها إلا بمعركة منهجية تبدأ من الجذر والأساس. الفكر أس في طوكيو وباريس ولندن أكثر منه في موسكو. لكن المادية أو الماديانية وما شابه هي في موسكو أكثر. وكذلك «العلمية» أو العلموية, لسوء الحظ. وعند موسكوفيي وسوربوني وأزهريي العرب...

ولا أحد يجهل أن المثالية هي الفكرية idealism, مذهب الفكرة, وأن شئتم الفكرية. وهذا بالتأكيد لحن يذهب ضد المادة وضد المحسوس وضد الإدراك السليم وهكذا. وضد دوغمائية الإدراك والشيء والمباشر. وضد دوغمائية العلم والعلوم وكل علم من العلوم... فالمسألة إذن واردة دوماً...

لماذا يقال: طاليس أول الفلاسفة؟ وطاليس مخترع فلسفة الطبيعة؟

الجواب: لأنه قام بعملية توحيد, ولأنه تقدم في الفكرية, في الذهنية, في الفكرية, أو الذهنية, ضد الموجود والمادة ضد الموجودات والمواد.

قبله: العلام (والعالم آنذاك غير مميز عن الطبيعة, بخلاف هيغل مثلاً) مؤلف أو مكوّن من أربعة عناصر جوهرية وأصلية. هي «التراب والماء والهواء والنار». وهذه العناصر جوهر. نعلم

اليوم أن أم هذه الواقعيات الفعلية مختلف. وكان هناك شعور بأن التراب جسم مركب, غني ومؤلف... إذن غير صالح كأصل وكمبدأ. أن الفكرية هي بساطة.

إذن طاليس يقول: الماء. هذا أبسط من التراب. وهو جسم بسيط, ومادة خفيفة. وكلنا نعلم أن لا حياة بلا الماء!... الماء هوية ومبدأ وأصل للطبيعة.

كلن هذا لم يرق لخفه أنا كسماندر. قال: الأبيرون. ما هذا الأبيرون؟ إنه المادة اللامتناهية أو اللامحدودة... وإن الصيرورة ليس لها كمبدأ أو كسبب تغير العنصر بل الفصل...

أنا كسيمنس يقول: الهواء. ويعزو للهواء صفة اللاانتهائية, لكن قوله «الهواء» يعتبر تقهقراً. فهو مادة معينة, محسوسة. إنه أكثر مادية من «الأبيرون». بالمقابل, أن مد أنا كسيمنس هو إدخاله فكرة «النوس» وهي فكرة ذكاء منظم, مهندس معمر للعالم ومميز عن مصنوعاته...

ثم نصل إلى هيراقليط, إلى النار وهو عنصر أخف بكثير ومحسوس أكثر بكثير, لكنه بالحقيقة ليس عنصراً ولا جوهراً ولا مادة, بل هو عملية الاحتراق مع الأوكسجين, غير أن هذه القضية لعصر آخر, والمهم أن النار الهيراقليطية هي بالضبط رمز, رمز التحول, الصيرورة, الغنائية, منائية كل الأشياء. وهيراقليط يختم مساراً ويبدأ مساراً: الله الفضاء, اللوغوس, انشطار الواحد إلى اثنين, «الأسماء قونين الطبيعة», الخ كل الأفكار اخذها هيراقليط من الشرق, ومن فارس بالذات ما عدا شيء واحد يفاخرون بأن هيراقليطهم هو الذي اخترعه, ألا وهو «انشطار الواحد إلى اثنين» في الطبيعة ومعرفتها, في العالم والفكر... وأشدد على كلمة «الواحد» في صيغة «شطر الواحد إلى اثنين» ففكرة الاثنين فارسية, مزدائية, مثنوية دينية وثقافية وفلسفية, هيراقليط يؤكد الواحد, يرفع اللوغوس, مؤكداً الإسم والاسماء, اذن يذهب في الفكرية والفهمية مبارحاً الوجودية الصراعية أو التكاونية. ونذكر بلا توقف أن دين الإله الواحد ليس فيه بتاتاً أهورامزدا وأهريمان, بل فيه إله واحد خلف هو الوجود, بما فيه النور والظلام والمذكر والمؤنث, وإبليس مخفض, وهو مأمور, وأصله ملاك متمرد وساقط, وله دور مع الإنسان بالذات. في القصد الإلهي الأعلى, وهو عند هيغل وغوته وسواهما حامل النفي أو رمز النفي ومحرك التاريخ كدراما وكمأساة وكتقدم وارتقاء.

فيثاغور يقول «العدد» ويقول «القانون»..

بارمنيد يقول الوجود واضعاً إياه ضد الصيرورة والتغير والغنائية, وهذا الوجود «الثابت نقيضض العدم في المطلق هو «الواحد والكل», ومؤلفه الشعري عنوانه «في الطبيعة»...

زينون الإيلي ينفي الحركة أي يفهمها معلناً أن الحركة تناقض, وهيغل يقول إنه «أبو الديالكتيك». هل نفي الحركة أم لم ينفها, هل نفي وجودها أم لم ينف وجودها؟ هذا يتوقف على معنى الكلمات: نفي, وجود. زينون الإيلي نفي الحركة بمعنى أنه مفهمها كتناقض, نفي وجودها بمعنى أنه انتقل من الوجه المرئي المشهور جداً (فالبشر والدواب وأوراق الشجر وأمواج البحر والكواكب في السماء والعربات على الأرض هذا كله يتحرك أمامنا, أما مفهوم الحركة فمسألة كبيرة جداً, معضلة طويلة ولن تنتهي)...

ديموقريط يقول: الذرات والفراغ, والحركة. إذن وجود الذرات والفراغ, اذن وجود الفراغ نفسه وجود العدم. والذرات عناصر, عناصر قائمة ضد «العناصر الجواهر» الأربعة, مقولة «عنصر» جديدة مناهضة للعنصر الجوهر العريق. وهذا الخط الجديد يصل أخيراً إلى لافوازيه وعلم الكيمياء ومندلييف مع جدول تصنيف العناصر وإلى روثر فورد الذي يخرق إلى ما بعد, ضد عناد مندليين كمفكر فيلسوف وعالم ظل مؤمناً, حتى يومه الأخير, بأن العناصر التي وصل إليها نهائية, أي هي حد أخير, مجوهراً إياها, ومعناً عدم توحيدها, أي عدم هوية واحدة لها, وذلك رغم الانقلاب الحاصل من سنة 1895 إلى سنة 1905 (بكريل, كوري, روثر فورد). وبالمقابل, هناك بين الفيزيائيين من اعتقد عند النهاية بهوية ضد الفرق, بوحدة نافية أو منافية للتغاير, أي بجزئيات من نوع واحد, مثلاً الالكترون أو مثلاً النوتون (بالعربية الكهروب والضوءون): هذا أيضاً ثبت بطلانه نهائياً. أنه محال بالمطلق. العلم بتقدم في الهوية والفرق معاً, على أساس الفكرية والفهمية والمفهمة...

لكن هذا الموقف نفسه هو بمعنى ما, موقف الفلسفة اليونانية البدائة على النحو المبيّن أعلاه.

لكن كيف؟ ألبس عملها بالعكس؟

نعم, بالعكس. لكن لا على النحو التالي:

بالنسبة لفلاسفة الطبيعة, وكذلك هيراقليط وديموقريط, وأيضاً بارمنيد وزينون, أن التحول والصبر والحركة, والاختلاف والتباين والتضارب والتفاني, هذا كله هو العالم الخارجي المحسوس والمباشر, والمطلوب فهمه, أي المطلوب هو الفكر, هو المفاهيم, الثوابت, الهويات, ظهور الفلسفة هو الاستجابة الجبارة لهذا المطلب من ألفه إلى يائه.

بتعبير آخر: ثمة وجود خارج الرأس, ويريدون وينشؤون من أجله كوناً رأسياً كون الفكر.

الماء, الهواء ما زالا بين ـ بين. الأبيرون يقترب جداً من المادة التي سوف يقول عنها هيغل وانجلز ولينين أنها «هي المجرد على وجه الامتياز» وأنها «كمادة هي محض خلق من الفكر وتجريد خالص» (اجلز) و«تبقى هي هي بلا تغيّر» (إنجلز أيضاً) وبطبيعة الحال هي «مفهوم» وهي «مقولة فلسفية» (لينين 1908, ولينين يردد: مفهوم, مفهوم, مفهومconeept). والصبر مجرد كبير, فكرة بسيطة جداً, إذن فارغ جداً, هوية جد فقيرة, وهنا قيمتها على أي حال! كذلك عدوتها البارمنيدية والخالدة هي أيضاً الوجود أو الكون أو الـ هو (والهوية) Etre. كذلك القانون, (هيراقليط وفيثاغور) كذلك العدد, فيثاغور, كذلك الذرة والفراغ. كذلك الحركة عندنا فيها زينون ومؤكدها ديموقريط. جيمعهن ثوابت, هويات مفاهيم, أسماء. المادة والحركة هنا أكبر وأفرغ مجردين. لكن المادة لم تظهر بعد, ستظهر على يد أرسطو.

والعملية الفلسفية الفكرية هذه تباعد, تفصل تكبر الهواة, بين الوجود المادي المتخالف والمتباين, والفكر الذي يريد معرفة الوجود, أي فتحه.

لا أحد منهم ينفي المغايرة أو الاختلاف كما نحن تنفيها!! أقصد على طريقة يؤسفني أن أدعوها عربية. الوجود ـ الاختلاف منطلقهم, بديهيتهم, مقابل الفكر ـ الهوية!

عن ذرية ديموقريط وخلفائه الفلاسفة الذين على خط مذهبه, يمكن أن أقول أنها مع تأكيدها الهوية أي الوحدة بوصفهما الفكرية والمفهومية والعقلانية والقانونية والضرورة الخ تؤكد أيضاً الفردية والاختلاف لكن بالمفهومية, أي بمفهوميتها الماديانية. وبوجه عام, أن كل الفلسفة الماديانية في التاريخ, القديم والوسيط والحديث هي نوع من ثأر للوجود المتغاير والمتفرد, أي لتغاير وتفرد الأشياء أو الكائنات ضد الفلسفة المثالية حاملة الفكر والكون والعقل والهوية, أي أكبر المجردات. لنذكر فوراً أن هذا الميل العظيم الفكري المثالي هو ثلاثة أرباع الفلسفة وتسعة أعشار العقل في تاريخ الفلسفة. علماً بأن المعسكرين الشهيرين الماديانية والمثالية نسبيان تماماً وأساسهما الفلسفة, أي هذ المشترك العام. إذا كانت الماديانية الفلسفية هي ما يظنه ستالين وآخرين كثيرون, عندئذ فلا ديموقريط ولا فيورباخ ولا هوبز ولا كوندياك أو أرستيب يجوز أن نضعهم في صفها, بل يجب أن نضعهم في الصف الآخر, المقابل. فكلهم مدركون أن الذرة أو أن الإحساس والمحسوس هن أيضاً وأولاً كلمة, وفكرة, حتى وأن أريد لها ويحق التعبير عن «شيء مادي» أو عن «مفهوم ما» لكائن مادي. اللحن المقابل هو بالتمام ومباشرة مع فكرة واقع من نوع آخر, مع فكرة علاقة أو عقالة, ومع اللغة...

ثم, دخل الإنسان بقوة, واحتل المركز تماماً, مع بروتاغوراس والسوفسطائيين. دخل الإنسان, مع النسبية والاختلاف, وأعلنوا أنه قياس كل الأشياء. السوفسطائية فكر وسياسة ومحاماة.

الكلام في صلبها. يجب أن لا ننسى ذلك. عبروا عن الحقيقة الذاتية. ذلك موقف عظيم يقرنه هيغل بفلسفة كنط, أو الموقف الكنطي. أن السوفسطائية, والريبية القديمة العظيمة, وهيوم وكنط حاولوا دوماً دون خطر تحول الدوغماطية إلى دوغمائية بالمعنى الشائع. فالفلسفة تحت مسألة الحقيقة تنقسم إلى معسكرين: الأول يضم تسعة أعشار الفلاسفة, من مثاليين وماديانيين, عقلانيين وتجريبيين, شكلانيين وذريين ـ عدديين وإحساسيين, وهم «أنصار الحقيقة», ويدعون من قبل خصومهم بالدوغماطيين والنظريين والرياضيين أيضاً. هكذا مصطلح خصمهم العظيم سكستوس أمبيرهيوس, وهكذا في الكتب المدرسية. والثاني هو «خصوم الحقيقة», الناقدون, الطاعنون: سوفسطايون, ريبيون, هيوم وكنط. ومسألة الكلام أو اللغة تحتل مكاناً مرموقاً في كونهم الفكري!

سقراط يمثل الانتقال من الحقيقة الذاتية إلى الحقيقة الموضوعية, مع لحن: «الحقيقة, العدالة... الكلي, «الفكر» وشعار: «الإنسان ككائن مفكر هو قياس كل الأشياء», وهو رد السفراطيين على البروتاغوراسيين.

أفلاطون مع الأيدوس, إذن الفكرة أو الشكل, يمكن أن تقول المثال أو الصورة. لكن على مسؤوليتك! أنت حرّ, إنها مسألة مصطلح إن شئت, أو مسألة ترجمة من الفرنسية idee ou forme إلى العربية! لكن حذار, حذار. الترجمة الحقيقية ذات الأهمية النهائية هي دوماً ترجمة الرأس, أي الفهم, فهم الأصل المترجم. إذن المضمون وبالأدق والأكثر إصابة مسألة المعنى والاتجاه, اتجاه الضربة! على ضربة أفلاطون أولاً قم أرسطو ثانياً ثم العقل الأوروبي كله إنما هي موجهة بالضبط ضد ترجمتك! ضد فهمك! وهنا أيضاً على قضية العقل. ما ينقص هذه الندوة هو محور يكون «مقولة الشكل ومسألتها ومجاورتها المقولية في العقل العربي بالأمس البعيد واليوم». أما مسألة المصطلح والاصطلاح, فأنا لا أفهم بتاتاً, هذا الاصطلاح العربي!! من أين جاء هذا اللفظ «مصطلح» ومتى ومن وكيف؟ وما معناه وما إيحاؤه؟ ما اتجاهه وقصده؟ هل نصطلح على كيفنا؟ أنا أجد في هذا اللفظ سلطة بشعة لتيارات أوربية معاصرة أو حديثة, نصف ـ فلسفية, شيئاً بروتاغورسياً مبتذلاً جداً مصمونه الفعلي الشيء تماماً: هكذا اصطلح العلماء, هكذا اصطلح الفلاسفة, هكذا اتفق الغربيون, على هذا اتفقوا أو كما يقال «توضعوا» الحقيقة اصطلاح, اتفاق بين جنتلمن gentlemen هم العلماء.. لكن أنتم اصلحتم هذه الكلمة العربة, وليس هم, فالكلمة عربية. أما الأوربيون فيقولون terme أي حد, نهاية, ومفردة لغوية, وهي وثيقة الارتباط بكلمة «مفهوم», وليس فيها ما يشير إلى فكرة اصطلاح أو اتفاق.! إن هذه «الاصطلاحية» طريقة لإجلاء الحقيقة والعقل جلاء تاماً كجلاء الاستعمار عن أراضينا.

أفلاطون مع النكرات ـ الأشكال, أي كليات مفردة يرفعها إلى السماء ويجوهرها روحياً. إذن هو أشهر من مفى الوجود المادي المتخالف والفاني. لكن هنا أيضضاً يجب أن نفهم معنى «نفي» هذه. أفلاطون يتكلم ضد هذا الوجود عن واقع, واقع حق, مع أنه بطبيعة الحال, يعيش في هذا الوجود المادي, يأكل ويشرب ويعمل في السياسة, أي في قضية المدينة, مصير الناس. حصان أفلاطون مثلث أفلاطون وبيت لينين. لينين يجابه قضية النكرات أو المثل الأفلاطونية في صفحة لعلها أهم كتاباته الفلسفية, سنة 1916, عبر ميتافيزيقا أرسطو في ترجمة شفيغلر.. لنذكر أنه لا يمكن لأحد أن يصنع بيتاً أو طاولة بدون فكرة البيت أو فكرة الطاولة. ولا يجوز لحزب الثورة أن يفكر يصنع عالم أو تحويل العالم, بدون فكرة العالم, أي مثلاً بنصف فكرة العالم هذا محال, فهي بالضبط فكرة, فكرة العالم, وهي بوصفها «فكرة» مع اسمها (إذن هي عام) لذا فلا يدرك نصفها ولا ثلاثة أرباعها.. ولنذكر أن الحصان نفسه هو إلى حد ما من صنع الإنسان, فهو «أنبل فتوحاته», تاريخ الحصان والحمار والثور جزء هام من تاريخ الشغل الذي هو حتى اليوم الشغل العبدي.

ولنذكر أن المثلث أقام علم المثلثات الذي فتح سماء الفلك (قياس المسافات بين الأجرام السماوية ومع الأرض). أخيراً لنذكر أن مدرسة من أهم مدارس الرياضيات في عصرنا هذا تدعو نفسها المدرسة الواقعية الجديدة, لكن الواقعية بمعنى أفلاطون وواقعي العصر الوسيط.. بالطبع إن جميع رجالها العلماء يعرفون أن الأشياء المادية موجودة, وأن الأقلام في أيديهم موجودة جداً, لكنهم يرسلون ألينا رسالة! اعرفوا ما الفكر واعرفوا ان الفكر هو الاختراع وان الفكر هو مفتاح الوجود وباني العالم!

أرسطو, استناداً إلى كل السلف الصالح يحول الفكر كفكر وكمحض فكر محاكم إلى الاجرائية المباشرة والعامة, إلى عالم وجود جميع الأشياء ومختلف الأنواع والألوان, في جدوى الفراغ المطلق والجاهز للمنطق الشكلي أو الصوري. وهذه العملية, هذا الاختراع الجبار الذي هو المنطق الشكلي يرتكز على فلسفة أولى, على ميتافيزيقا عظيمة: مذهب المادة والشكل ضد فكرة الأوسية أو substance (جوهر, ماهية). الكائنات المفردة ليست أوسية بل هي مؤلف من مادة وشكل الخ. أترك ذلك, أترك أيضاً أخطاء ترجمة شفيغلر التي قرأها لينين (لكن, عملياًو لينين فهم جيداً القضية الجوهرية), أما عن مسألة الأوسية, فلنقل أن مذهب أرسطو هو مذهب أوسية, لكن حصراً ضد

عقيدة وجود الفكر أو المثل الأفلاطونية, فأرسطو تلميذ أفلاطون, يتابع عمله, وأن الثورة الممثلة بفكرة المفهوم سقراطية وأفلاطونية أكثر مما هي أرسطوية, وأن الأوسية الأرسطوية تابعة وخاضعة تماماً لفكرة «المادة والشكل» (والصورة هي شكل, الشكل الأخير, أي أن الشكل هو المفتاح والارادة, وهو ابسط وأفرغ من الصورة), وهي, ضد أفلاطون, تعلن عن قوامية مادية, وأرسطو يستعمل «المصطلح» اليوناني بمعنى جوهر وبمعنى ماهية, وايضاً بمعنى كائن (كائن مفرد), بل وبمعاني أخرى, واضحة ومحددة ومكومة بالسياق الأرسطوي نفسه.

أرسطو تبنى «الحقيقة» وعلمن الحقيقة, دهرنها... الوجود مادة ومشكل, مواد وأشكال. كل مادة هي مادة معينة, إذن هي مادة وشكل. أما المادة «الأخيرة» فهي نوع من عدم. مقولة المادة تعبير عن الخارجية, العالم موجود خارج رأسنا. الوجود مادة وشكل, إذن المادة بلا شكل هي عدم وجود. العالم مادة وشكل, والفكر شكل العالم. والمنطق, علم الفكر, شكل هذا الشكل... المادة كمقولة أرسطوية وهيغلية وماركسية, هي في شراكة حميمية مع المحسوسية والحركية والعددية أو الكمية. أنها مقولة فيزيقية ـ رياضضية بعد الذرة والفراغ والحركة, وبعد الطبيعة والوجود والصبر, ارسطو دشن مقولة المادة, على نحو نهائي! الوجود وجود بالفعل ووجود بالإمكان أو الاستطاعة. وبتعبير آخر: الواقع واقع وممكن.

إن علمية الحقيقة على النحو المذكور, الفكري ـ الكلي, تعني في جملة ما تعني رد الاعتبار كاملاً للاختلاف, للتغاير, للتباين... المنطق اعراب للواقع نفسه, الواقع المادي الدنيوي. وإنه رد الاعتبار عذا قد صار ممكنا وواجباً لأن الفكر قد تأسس. المعرفة العليا بيان الواقع المتباين. الفكر اعراب الواقع.

يروى عن أفلاطون ان الشعب بما فيه الرؤساء كان مجتمعاً في قاعة. وأفلاطون صامت, والناس في انتظار خطابه... أخيراً دخل أرسطو. فقال أفلاطون: العالم يتقدم..

انتهت قصة العقل اليوناني.

-4-

نتقدم ميفاً وعشرين قرناً.

إلى لايبنتس مع الفرق, وإلى فويرباخ, وإلى منطق هيغل.

كل الأشياء مختلفة. هذا أولاً. لا يوجد ولا يمكن أن يوجد على الأرض وفي السماء شيئان اثنان متهاويان أي متماثلان أو متساويان. هذا محال. إنه مناقض ومناف لفكرة الوجود, لفكرة يوجد.

إن حبيتين من الرمل اثنين متجاورتين متلاصفتين في المكان ـ الكون أو المادة ، الامتداد مختلفان, متباينتان, متغايرتان. كذلك قطرتان من الماء النقي «H2O» في الوجود. قصدت بوضع H2O بين مزدوجين, أن H2O هذه هي مفهوم, هي واقع بين أفلاطوني ـ أرسطوي, فكرة فائقة الواقعية, فاتحة لكل ماء موجود, لكنها هي نفسها ليست وجوداً موجوداً. وكذلك, تحتلف بصفة أبهام أيمن لرجل وبصمة ابهام أيمن لرجل آخر. هذا مشهور. وبفضلها يقبض على الجناة. أو يستطيع من لا يعرف الكتابة أن «يوقع». البصمة تعرف على الهوية الفردية.

إن هذه الهوية الفردية ذات دلالة فلسفية كبيرة. أنها ليست البتة خصوصية من الخصوصيات تقع بين الكلي والمفرد! أنها ليست جوهراً أو نوهاً أو جماعة أو فصيلة, إنها ليست أمة ولا طبقة ولا طائفة دينية أو مذهبية. ولا أي شيء من هذا الذي جعله بعضنا حصان حرب دعاوية وتجارية فتاكة تحت اسم الهوية, الذي صار حماقة مطلقة, أي منفلت من العقل, مخيلة قوى حصان الخيال الجامح. أنها الوثنية. وهي أيضاً العقيدة الشيئية ـ الرمزية المتنافية مطلقاً مع المذهب المفهومي ـ الواقعي حامل فكرة العقل وفكرة القانون وفكرة مجتمع الناس, المجمتع السياسي الحق. لكن لا بد لي من التأشير بإصبع الاتهام على الوضعانية, على أوغست كونت وجواره وخلفائه...

إن الهوية التي نحن بصددها هي هوية فردية, وأن هذا المفرد يحبل مباشرة على الكلي. إن مثال البصمة جيد لأنه يستحضر حقيقة أن الاغريق قالوا: سقراط إنسان, وحقيقة ان فويرباخ قال بالإنسان كائن نوعه الغام, وبالإنسان الفرد ممثلاً للنوع العام للجنس البشري, وقال عن فكر الإنسان أن الإنسان يعرف نوعه ويعرف الأنواع. الإنسان لا الحيوان. مرة أخرى: اللوغوس لا علم إلا

بالكلي. أنا لا أعرف عل الترجمة التي قالت لا علم إلا بالكليات «صحيحة أم لا». في اللغة الفرنسية, المعتمد في ترجمة المبدأ الارسطي هو صيغة المفرد: الكلي لا الكليات.

المنطق يعمل أما بالثنائي «عام وخاص», ومن أجل أن يقول الخاص هو عام, سقراط إنسان, أو العرب ناس, وفي الحالة الأولى يكون الخاص رجلاً مفرداً, وفي الثانية يكون الخاص جماعة من البشر, وأما بالثلاثي الشكلي الجبار «كلي «وخصوصي ومفدر» هكذا القياس syllogism, إنه فارغ, عقيم, الخ, كما يقول هيغل, وان العمل الإنساني كله هو قياس, فهو سير من الكلي بواسطة الخصوصي إلى مفرد. كل عمل إنساني يصب على مفرد. فهو عمل مفرد. والخصوصي وسيط مجبور مكور... الوضعانية مذهب قائم بالخصوصي, ضد الكلي وضد المفرد, ضد الفلسفة, مع خصوصيات ـ جواهر. وهي عاجزة عن فتح أي خصوصي.

إن ورقة على غصن شجرة وورقة عيرها على الغصن نفسه إنما تختلفان. ولو لم يكن الأمر كذلك لما قلنا غيرها أو سواها ولما كانتا تكونان ورقتين اثنتين. لكن هذه ليست مسألة عددية: لقد قصدنا ملايين الأوراق, ما لا يحصى من الأوراق, ما لا نهاية له, في الحاضر والماضي والمستقبل, على الأرض وفي المريخ وأينما كان في عالم الوجود الموجود وعالم الامكان غير الموجود, لكن بوصفه وجوداً لا فكراً ومحض فكر, إذن في الكونية. الكلية كونية. وما أجمل وأدق العبارة العربية «غيرها أو سواها». غيرها مؤلفة من طرفين إنها «غير هي». وفي «سواها» ثمة تأثير على المساواة واللامساواة والانفراد أو الانعزال. الورقة الثانية هي مثل وغير. وكل إنسان بالنسبة لكل إنسان هو مثل وغير. وهكذا كل الوجود الموجود: إنه مثل وغير.

قضية أوراق الشجرة, اخلافها, كانت قضية نهة لايبنتس مع سيدات البلاط في حديقة القصر في ضوء القمر. لم تصدق النساء كلمه, لكن كانت النساء تقطف لع ورقتين وتعين الفروق معه! هذا الرجل, لايبنتس, لم يخدم أية ثورة, خدم ملكواً لكن خدم التقدم البشري, وخدم فكرة السلام وفكرة حق الناس, وقدم مشروعاً لبطرس الأكبر من أجل أوربة روسيا. وربما كان عنده مشروعاً في شق قناة في برزخ السويس. ولعله رجل «استعماري»

فويرباخ يقول: في بداية «علم الظاهرات» (الفينومينولوجيا) ليس لدينا سوى تناقض «الوجود الذي هو الاختلاف» و«الفكر الذي هو الهوية» فويرباخ يتكلم, في حملته التي لا تلين على المثالية والنظران الهيغلي عن الفرق الذي لا يمحى بين الفكر والوجود, لكن فويرباخ يصيب الكثيرين, ألا أنه لا يصيب هيغل. وان فويرباخ فقير بالمقارنة مع هيغل. يقول إنجلز ولينين.. المبدأ الطبيعاني والإنسانولوجي (الانتروجبولوجي) ناقص تماماً.. ان مقولة العمل أو الفعل أو الفاعلية العملية النقدية والمنتجة قد جعلتها المثالية: فيشته, هيغل, وآخرون.. هيغل فيلسوف التاريخ والتقدم والإنسان إزاء الطبيعة.. مع ذلك, لنذكر أن فويرباخ قد ميز «العالم المدني» و«العالم الطبيعي» عندنا من لا يميز, عندنا من يعتقد أن العالم هو الطبيعة أو أيضاً هو المادة...

ومن أهم أقواله في ما يخص مسألة المغايرة بمختلف أبعادها قوله الذي مختصره أن سبينوزا تلسكوب ولايبنتس ميكروسكوب. لنذكر أن فويرباخ الشاب, المثالي كما يقال, الذي مازال تلميذاً لهيغل, ولم يتحول إلى الحرب من أجل اعادة الماديانية إلى سدة العرش ألف كتاب مهماً جداً عن لايبنتس, نال قراءة لينين وحماسه. جورج لوكاش ثمن لايبنتس وكتاب فويرباخ وملاحظات لينين. أعتقد أن قضية المغايرة هي في صلب هذا العمل الثلاثي أو الرباعي..

ومن أهم أقوال فويرباخ أيضاً أن شيلنغ العظيم هو فيلسوف الشرق مع الهوية ومع الطبيعة. وهيغل فيلسوف الغرب مع الاختلاف ومع التاريخ.

أيانا أن نتصور أن الشرق المعنى هو نحن, خاصة الآن. نحن لا مع الهوية ولا مع الطبيعة. ربما نحن مع «المادة», مع «العمل», بالأصح مع العدم والملاعبة. الهوية الشيلنغية مبدأ فكري طريقي يدعوه أيضاً مبدأ اللافرق أو اللامبالاة (indifference).

هيغل صاحب مذهب هوية أو تهاوي الفكر والوجود.

أتياً من هيغل ومن فويرباخ ومثبتاً هيغل, إنجلز بعلن مبدأ المقاربة اللامتناهية, اقتراب الفكر إلى الوجود, والفرق بين مفهوم الشيء (شيء ما) وواقع الشيء.. الفكر يستطيع أن ينشيء صورة أمنية عن العالم.

المعرفة إعادة إنتاج للواقع بالفكر, إنشاء وبناء لصورت بعملية المفاهيم, أي بتحويل مادة الحدس والتمثيل إلى مفاهيم. المقصود بالمعرفة, المعرفة النظرية, الفكر النظري, العلم, أي الفلسفة أو العلم, وأن هذا الفكر بحصر المعنى هو أحد تملك الإنسان للعالم, عالمه, الشكل النوعي المميز عن أشكال أخرى للتملك هي الفن والدين والروح العملية. أما الواقع فهو باق خارج الرأس على حاله كما كان قبل عملية فكره ومعرفته, ما دام الرأس يفعل فلعلاً نظرياص. الفكر في المعرفة حركة, حركة الفكر هي انفكار الحركة الواقعية في رأس الإنسان, العياني المفكور, صورة الواقع الأخيرة, الأمنية, المترابطة والحية, هي حاصل بناء فكريو نهاية وغاية عملية صعود الفكر إلى الواقع, الذي هو العالم المادي.. هذا ما يقوله ماركس في أهم ما كبته عن الطريقة. هيغل وأفلاطون ينالان حقهما, والتجريبية تنال حقها. يمكن القول, إن قمة النظر القديم أفلاطون وأرسطو وقمة النظر الحديث هيغل وماركس.

وفي هذه الحال, أن المغايرة, أقصد اختلاف وتباين الواقع, هي, في المعرفة نفسها, غاية ونهاية, الصورة, الصورة الأخيرة, اللوحة التامة, هي وحدة اختلاف. يمكن أن أقول إنها «جسم فكري», بدلاً من صورة ولوحة, ما دامت الفكرة «جسم» تحيل على عمق, على ثلاثة ابعاد, والزمانية بعد رابع. هذا الجسم افكري إدراك لحركة الواقع, للواقع المتغير. الإدراك, الفهم الفكر, العقل, عملية تثبيت. هذا كان درس زينون الإيلي والفلسفة القديمة.

والعلم الحديث يضيف ويبرز أن لا تغير بلا تغاير. لا يمكن ولا بأي شكل من الأشكال. فهم أو تصور أو تخيل تغير أو تطور أو تحول أو تقدم بلا مغايرة, تباين, اختلاف. لا يمكن تخيل ذلك, قصدت لا يمكن تخيله في العقل. أما في الخيال, في التخزين, فكل شيء ممكن. العفاريت ممكنة, وموجودة, في رأس الإنسان...

لا تغير بدون التغاير. أن اللغة العربية تقول القضية على نحو رائع. وبفضل المقولة «غير», الحذر, الواحد, أقصد الاسم «غير», أما الجذر والأصل الفصيح الذي هو ربما فعل ثلاثي يكون «غير», فهذا لا شأن لي به إطلاقاً, إنه لا يهمني بتاتاً, على الأقل هنا! لكن لنحي أيضاً اللغة الفرنسية اللغات الأجنبية: Pas de changement sans difference ولنجمع دائماً في رأسنا, في عملنا الفكري لغتين مختلفتين أو ثلاثاً أو أكثر. هذا ليس مفيداً فقط. بل هو ضروري ولا غنى عنه إطلاقاً إذا أردنا فكراً. لا تغير بلا اختلاف وخلاف.

لا تحول بلا تغاير. الا أنني الآن أبقى مع التغاير وأريد تقديم نوع من حاصل مقتضب وشعبي للفلسفة كطريقة نظر, على موضوع الهوية والاختلاف... النظر هو النظر إلى الواقع إلى الأشياء. هذا فعل صعب, أصعب الافعال. يمكن أن أدعوه فعل الرؤية المثلث:

1- «أرى إلى» الشيء, انظر إليه لكي أراه.
2- أرى الشيء, فعل متعد مباشر.
3- أرى, أرتئي, فعل القرار والحسم فعل العمل الإنساني.

إذن للنظر إلى الأشياء.

-5-

كل الأشياء مختلفة... وكل الأشياء متهاوية, متماثلة....

لا يوجد شيئان لهما تماثلاً إلا وبينهما اختلاف. حبة رمل وحبة رمل, «ذرتان» من شيء واحد خارج الرأس, نجمان في السماء. ولا يوجد شيئان مهما اختلفا أي تباعدا في الهوية التامة لكل منهما إلا وبينهما مشترك, عام, هوية. الطاولة والكرسي والبيت والحصان والقمر والمريخ أجسام, بل أجسام صلبة. هي والماء والهواؤ وغاز الميثان في أسطوانة الغاز أجسام, وذلك سواء بسواء. الجسم مفهوم فيزيقي فيزيائي, مفتاح في علم الفيزياء, بدءاً بأرخميدس مخترع الميكانيك العلمي, العقلي الرياضي, ضد فيزياء أرسطو, الحيوية والغائية.

غاليليو وكيبلر وباسكال ونيوتن يواصلون العلم المذكور. مبدأ ارخميدس, الرافعة, اختراعات مادية, فكرية ـ رياضية, متنوعة: أن أرخميدس أحد بناة أوروبا «أعطوني رافعة ومسنداً أرفع الكرة الأرضية!». ارخميدس رفع العالم في التاريخ. في الزمانية التي هي منطق. و«الجسم» مفهوم, عام, كلي: «كل جسم مغطس في سائل يتلقى دفعاً من تحت إلى فوق يعادل وزن السائل المزاح», كل مقولة هنا هي مفهومية فائقة, فكرية فائقة, فائقة البساطة, فائقة التجرد والتجريد.

الأجسام المذكورة أعلاه هي, على حد سواء, أجسام. المفهومية تسوية الجسم, هذا الإدراك العظيم للأشياء, مفهوم, بل هو مفهوم لا مجرد فكرة بالمعنى العادي للكلمة, إنه ليس صورة قلقة وتريبية ونسبية واصطلاحية أو شخصية أو أمر اتفق عليه عدد من الناس أو جميع الناس, أنها مفهوم مضبوط جداً. علمي فيزيائي. وهو مفهوم غني إن مادية أو ماديانية هذا المفهوم الفكري (إه مفهوم فكري كجميع المفاهيم أياً كانت) قائمة في هذا الغنى: جسم إذن ذرات, كتيلات, كتلة, جاذبية (تجاذب). وزن أو ثقل.

و«الجسم» أعطى «الجسيم», وأن هذه الفكرة الأخيرة الهامة جداً في الفيزياء ملتبسة, شديدة الاتصال بالأصل المادي الحسي, «الجسيم» تصغير «الجسم», إذن فكرة «الجسيم» هي تعميم خطر, توسيع خارج القطبين eseieapolation لمفهوم قائم في مستوى آخر, مشتق من الحياة اليومية «الجزيء» أفضل من «جسيم» لكن علماء الفيزياء المعاصرة يعرفون عماذا هم يتكلمون, سواء قالوا جزئيات أو جسيمات. أنها الجزئات العنصرية elementaires أو الابتدائية, تاريخ العلم قسم فكرة الذرة ـ العنصر إلى ثلاث مستويات هي في الفيزياء: كتيلة molecule ذرة atome وجزئيات فائقة الاختلاف والنوع particules ومقسومة اليوم قسمة أو قسمات إضافية في العمق, نحو الأصغر فالأصغر. وإن الأصغر فالأصغر لا ينقلنا بقفزات من 10 إلى 5 إلى 2 إلى 1, إي لنقل بمعدل X $\frac{1}{2}$ أو $\frac{1}{3}$ بل لنقل بمعدل X $\frac{1}{1000}$ وذلك في عالم الدقائق أو الصغائر, هكذا, وفي الاتجاهين, الطاقة النووية والأسلحة الذرية...

ديموقريط قال بوجود الفراغ, الفيثاغوريون قالوا بفكرة أو نظرية الأثير. فكرة «الحقل» في القرن العشرين تركيب, توحيد.

الفراغ أكبر بكثير من المليء. المادة مليئة بالفراغ. والفراغ مادي. الكون هو المكان, والمكان ـ الزمان. «الحركة هي الوحدة المباشرة للمكان والزمان» (إنجلز). هيغل ناقداً كنط هو على خط يقود إلى آينشتاين. حسب الترجمة العربية, أن espace هي المكان والفضاء («غزو الفضاء») والفراغ («الهندسة الفراغية») والخلاء والفناء والحمال («المجال الحيوي») الكون هو المكان, مباشرة.

وما قلناه عن حجم الفارغ وقلة المادة ليس فقط حقيقة الذرة أو الميكروكوسم الفيزيقي بل هو أيضاً حقيقة الكون الفلكي الكبير, الماكروكوسم. أن الكثافة المتوسطة للكرة المادية التي تشمل الشمس والمنظومة الشمسية الكوكبية حولها هي 10X2 أس ناقص 9 أي 2X $\frac{1}{10}$ مضروبة بنفسها 9 مرات. وإذا وصلنا بالكرة المادية بادئين من «عندنا» أي من المنظومة اشمسية حتى أقرب نجم إليها ألا وهو النجم «الفاسنتور» عندئذ تنحدر الكثافة المتوسطة إلى 10X2 أس ناقص 20! وهكذا وهكذا..

لا يكفي أن نقول, أن نصل إلى مئة ألف سنة ضوئية, لا يكفي أن نتكلم بلغة المسافة, بل الأفضل أن نتكلم بلغة المادة, «المادة = الفراغ», قلة المادة, صفرية المادة. الانطلاق اليوناني صحيح. بالحقيقة أن هذا الذي نحن بصدده أص أيضاً وبكثير إن شئتم حضارات سابقة, في الهند والشرق, مع فكرة العدم وفكرة الصفر والانقسام اللامتناهي للذرة الفينيقية والهندية. أن الصواب اليوناني هو في أنهم أرادوا أن ينكروا القضية وأن يقيموا الفكر إيجابياً, لكن بعمق, وعلى أساس نفي المادة وإن بشكل جديد, قابل لبسط صاعد. عدم الدنيا قاعدة ومبدأ ومنطلق من أجل معرفة الدنيا, وليس غاية ونهاية بتاتاً. إذ في الحاصل, ليس همي أن أعرف الوجود والطبيعة في العام ولمجرد الوجودي أو الوجدي والجداني, بل أن أعرف المواد والأشياء, أن نصنع قلما وطاولة وبيتاً,

وأن أعرف أن الوجود والطبيعة والكون هي مجردات, وان أعرف أن العالم غير الطبيعة بحاجة إلى تعينات كثيرة أضافية لكي تصير عالماً, ولكي أعرف أن عالم الإنسان نتاج الإنسان وعمله, ولكي أعرف وأؤكد أن كل موجود في العالمين الطبيعي والاجتماعي على حد سواء إنما هو منتج وناتج ونتيجة..

الطاولة والقمر والحيوان والماء والهواء اجسام, على حد سواء. والطاولة والقمر والهواء والعفريت والعدد والمادة والقيمة والانتاج والدائرة والهط والعدد 24,89 والملاك والشيطان والفراغ والأثير والطبقة والأمة والجن والحظب والشعب والجماهير الخ هن جميعاً, على حد سواء, ماذا؟ أممكن؟ أمعقول؟

جواب الفلسفة أي الفكر, أي المنطق: ليس فقط هو ممكن بل هو ضروري مطلقاً. بدونه أنت خارج اللوغوس, خارج اللغة. والاجابة على سؤالنا الآنف هي: جميعهم, كلهن, على حد سواء, كلمات. كلمات, إذن وبالتالي صور, فكرات.

هذا أولاً. ومن يقفز من فوقه إلى ما بعده, من يتصور أن ثانية أياً كان هو الأول وهو المبدأ والبداية إنما يقع دون الفكر ـ العقل ـ علم الكلام الحقيقي! وليس المهم أن «اكتشفت» أن الطاولة والقمر والضوء موجود بينما العفريت غير موجود, بل المهم أن أتبين كيان العدد والمادة والقيمة والدائرة والخط والجن والطبقة والأمة والشعب والجماهير الخ... ومن لا يعرف ذلك ساقط تحت إغواء أن يعتبر الطبقة والأمة والحزب والجماهير موجودات كالطاولة والقمر, فيحولها بذلك إلى عفاريت! أن عفاريت الفلاح الإيطالي (حديث غرامشي) والفلاح الرومس (حديث لينين) والفلاح عندنا وفي العالم الخ لا يجعلها الفلاح بتاتاً ستراتيجية فلح وزرع وكدح. أما عفاريت الثوار فقد صارت استراتيجية عمل سياسي, ملاعبة مادية خيالية بمصائر الشعوب.

كل الأشياء مختلفة ومتهاوية.

يمكن توحيد الوجهين بالغة العربية كما يلي:

كل الأشياء متشابهة, متشاكلة. هكذا البداية, بداية النظر! وأن مهمة العلم أي المنطق هي فك التشابه وإعراب الأشكال بيان الهويات والاختلافات. على أساس العلاقة أو العقالة الكونية ذد كل جوهرية ماهوية, في مذهب فكري ـ فكري, قوامه العقل. أن مهمة الفكر إقامة فصلات فكرية, «بعكس» الفصلات المادية في المادة ـ الامتداد, والكون المكان. إن مهمة المعرفة إقامة منطق الأشياء.

إن فك التشابه معناه شطر معنى التشابه إلى اثنين, إلى ضضدين مفهوميين, نقيضين فكريين. من التشابه تنتقل إلى الهوية والفرق, إلى التهاوي والاختلاف. إلى مثل وغير وذلك عن كل الأشياء.

بتعبير آخر: إن استقراء الواقع هو استنطاق الواقع. الاستقراء استنطاق, هذا أقوله بالعربية. لا يمكن قوله بالفرنسية مثلاً, ولا بالانكليزية, ولا ربما باللغات الهندوأوربية عموماً.

اللغة العربية فلسفية جداً. ليت هيغل كان يعرفها! اللغة العربية تتجاوب بقوة مع فلسفة هيغل واليونان كمنطقي.

الاستقراء استنطاق. وهذا أجعله على سبيل المثال حاكماً على حكاياتنا المدرسية الملتبسة حول الاستقراء والاستنتاج. المحاكمة هي حكماً الاستنتاج. والاستقراء بحصر المعنى أو بمحنى induction الشهير ليس الانتقال من الخاص إلى العام (ناهيك عن أن يكون انتقالاً من الجزئي؟ ومن الجزء!!! إلى...), بل هو رؤية العام في الخاص!

إنه حدس, حدس هو رؤية العام في الخاص, ومصادرة جبارة على تفرق الدنيا وتباينها. لن أدخل هنا في نقد بعض كتبنا المدرسية, لاسيما بعض كتب تعليم نحو اللغة العربية, لكن أشير إلى أن العواقب, عواقب حكاية الاستقراء المزعوم, وخيمة تماماً, وليس من باب الصدفة أن يكون المردود قليلاً جداً ولا يتناسب بتاتاً مع المجهود المرعب!!! أن أرخميدس من لم يعمل عشر تجارب, ولم يلملم دنيا الأجسام والسوائل. وأن ميكلسون ومورلي لم يكررا تجربتهما مرتين أو ثلاثة. مرة تكفي ونيف. وإذا جاز أن نقسم عمل العلم في يومنا هذا وفي ماض غير بعيد, إلى فكر ـ عقل وإلى تجربة, قسمة حسابية, وجب علينا القول, إن الفكر ـ العقل هو 95% والتجربة 5%, وفي الماضي

لم يكن الجانب الأول دون الـ 60%. لكن الحسابية هذه مغلوطة بوصفها حسابية, والمهم أيضاً أن التجربة المخبرية مثلاً ليست هي تجربة التجربيين أو خبرة الخبريين, بل هي امتداد نوعي مرئي للفكر النظري الفاعل, الفاعل نظرياً وعملياً. أن مليون مخبر علمي لن يفيدنا في حالة غياب فكرة الفكر وعلم الفكر الذي أساسه علم الكلام..

ننتقل إلى موقع ثان.

كل الأشياء مختلفة. لكن: لو كانت كل الأشياء مختلفة على نحو واحد, لعدنا وسقطنا في هوة الهوية. لا فرق كبيراً بين أن أقول «كلو مثل بعضو» (كل بعضه مثل بعضه) و«كلو ضد بعضو» أي كله في تخالف وتضارب وتناقض, كله متخالف ومتغاير ومتفان.

ولتغفر لي المصطلحات: هذا موقف شرقي, هندوكسي, بوذي تصوفي بمعنى ما. إنه نيرفانا, سكينة, إنه العدم.

المصطلحات, الحدود, ومنطق الحدود, فكرة السياقة وفكرة القضاء (كل تحديد هو نفي) العبارات ذات قصد, ذات معنى محدد, الطلقة طلقة لا أكثر ولها هدف هو (نقطة مادية). أن المنطق (أرسطو) هو (عربياً) محاولة عظيمة تأخذ العالم تحت الجملة الاسمية. لكن في كل «جملة اسمية», لا المبدأ مستغرق في الخبر ولا الخبر متغرق في المبدأ...

البوذية بوجه خاص موقف عظيم, بل عظيم معرفياً. وليس من باب الصدفة أو الجهل أن حبي إنجلز, تحت فكرة العقل الهيغلية Vernunft مقابل فكرة الفهم الهيغلية Berslsnd إذن تحت «الفكر الجدلي» الذي هو «الفكر العقلي» الاغريق والبوذيين, كمالين خاصين عاليين وبارزين للديالكتيك, ربما لديالكتيكين إثنين كلاهما فكري وعقلي... اترك هذا الأمر هنا.

لكن رما بجب أن أقول: إن البوذية غير الغرب ديناً وفلسفة وثقافة. الغرب: الله «إله واحد» علاٍ وأشباه وإنسان وتاريخ.

البوذية: ألوهية وطاقة (بدلاً من إله ومادة).

اليابان استوعبت الغرب (اقليدس وارخميدس وفيثاغوس وديكارت...).

والبوذية موقف متسامح ورحب, البوذية والكونفوشية تخدمان مجتمعات الشرق الأقصى كمجتمعات بشر.., لكن هل للبوذية كمعرفة (ألوهة وطاقة) دور في نهوض اليابان, في العلم والتقنولوجيا؟ بالطبع قصدت بالمعرفية «نظرية المعرفة» أي «الغنوزيولوجية». وقد أكون مخطئاً في سؤالي وفهمي. لكن لا ضرر من طرح السؤال. فهل من مجيب؟ هل البوذية هي روحياً ومعرفياً كما وصفتها؟ وهل يمكن فهم اليابان والصين والهند الصينية وكوريا بدون البوذية والكونفوشية؟ وبدون اقامة المعارضة معنا: مع «الغرب» قاطبة؟ وهل نفهم ذاتنا العربية بدون المعارضة المذكورة؟ لاسيما وأن العرب هم في «اللوغوس أي الكلام» وهذا ما يعطي الفراهيدية والخوارزمية وغير ذلك من ابداعات عظيمة...

إذن, لابد من الانتقال إلى موقع ثان يمكن أن أدعوه, بعد «مبدأ الهوية أو الاختلاف» العام الكلي الذي لا استثناء فيه, مبدأ «اختلاف الاختلاف».

كل الأشياء مهتلفة, لكنها ليست مختلفة على نحو واحد. إن اختلافها مختلف أو متخالف, متباين, غير متساو. وهذا المبدأ هو مبدأ «الهويات» بصيغة الجمع, الأنواع, المجموعات, الأصنافو الفصائل, طبقات الكائن المتراتبة عمودياً (عمق الكون, وعمق الكائن المفرد على حد سواء,) مبدأ المقولات أو المقولية. الطاولة طاولة والكرسي كرسي, والذرة ذرة...

وقد يحتج القارئ. اتبتنا, صعبت الأمور, تمخض الجبل فولد فأراً. نحن نعرف أن الكرسي كرسي والذرة ذروة والطبقة طبقة والعدم عدم ـ لا! أنت لا تعرف شيئاً. لا تعرف, في فلسفتك على الأقل, أن الكرسي كلمة وعام وكلي وفكرة, ولا تعرف أن الكرسي وأن الأشياء من حولك وأن العالم الموجود حولك (المدينة والحقل والانواع النباتية والحيوانية). هو نتاج الإنسان وليس «موضوع طبيعية» أو شيء طبيعة وأن تتصور أن الطبقة موجودة مثل الكرسي, وتعتقد أن فكرة المجتمع وحقيقة المجتمع مستنفدة في طبقات المجتمع, إذن هي نفسها لا كيان ولا حقيقة لها. أخيراً لا تعرف أن الفلسفة كانت ومازالت رسالتها وعملها تصعيب الكلمات, وأن جبل اليونان تمخض

فولد مفتاحاً كبيراً, شيئاً عظيماً نعلمه لاولادنا: طاليس, فيثاغور اقليدس, ارخميدس, اضف ديكارت وباسكال ونيوتن الخ: هكذا البرنامج والكتب! لكن الناقص هو أفلاطون وأرسطو.

إن المنطق هو فكرة طابع عمودي للكون والكائن. في المنطق الشكلي الأرسطوطيلي للعصور الوسطى كان التراتب محصوراً في مرتبتين هما الجنس والنوع, اللذين هما عندهم الكلي والخصوصي, وتحت الخصوصي يقع المفرد. على أي حال كان تراتباً! وكانت هي القرون الوسطى مع عالم الأصناف أو الطوائف, ... كون طوائفي وطائفي. ولقد لعبت المعرفة البيولوجية عند أرسطو نفسه دوراص كبيراً في صوغ وإنشاء علم المنطق الأرسطوي (وعلم أرسطو البيولوجي أكثر علمية بكثير من علمه الفيزيائي وذلك بفضل مقولة الشكل الجبارة. ثمة خط من أرسطو إلى البيولوجيا العلمية في القرن التاسع عشر, مع داروين) لكن, عند أرسطو, السائد هو المعقولية الحرة, الغالب والحاكم في فكرة «الحد» هو التضمن (أي السمات, الكيفياتو خصائص الشيء) وهو حاكم على شمول الحد أو اتسعه (موجوداته من كائنات وجماعات ـ كائنات) منطق السكولاستيك الوسطوي. قلب العلاقة, غلب الشمول على التضمن, وفعل ذلك تحت سلطة ونفوذ الاسمانيين, أي ماديانيين العصر الوسيط, لا الواقعيين الأفلاطونيين, ولنذكر بوحي من اللغة الفرنسية (من كلمة comprehension و comprendre, بأن فهم الشيء هو فك تضمنه) التفهم إفصاح التضمن...

إذن المغايرة. هذا يعني, عقلانياً, العقل عقالة في الكونية ضد جوهرية الصنف. الحري تبنى عقلاً وقانوناً وضرورة في علم الإنسان.

أجل الحرية هي الضرورة المفهومية جيداً, كما يقول إنجلز وبليخانوف ولينين. أجل الحرية هي وغي الضرورة.. لكن لا يمكن أن أخلط الحرية مع الارادة والهدف. الحرية تفترض وتتضمن حتماً فكرة الخيار, فكرة خيار ما في عالم احتمالي أو حمال. والحرية تبني المجتمع والعقل... القيمة هي كذا وكذا, القيمة هي بالضبط علاقة مساواة بين المنتوجات الأكثر اختلافاً (مثلاً بين علب الدهان وقصر جميل في شارع أوكسفورد ستريت بمدينة لندن: كما يقول ماركس, المقدمة 1859, وبالضبط ضد الذين لا يريدون هذه المجردة الكبيرة جداً والخالصة تماماً), لكن التبادل الفعلي هو الذي يحقق القيمة ويظهرها ويجعلها واقعاً. القيمة المحض أو القيمة التبادلية ترتكز على القيمة الإستعمالية أو الانتفاعية, المنتوجات سلع (بضائع) commoditees. Marchandises... الاتحاد السوفياتي, بعد ابتعد طويل, أدرك ذلك, لينين أدركه إلى حد كبير جداً منذ سنة 1921, عقب الحرب الأهلية ونظام شيوعية الحرب. بتعبير آخر: يوجد فعلاً واقع, هو الواقع, لا الهدف يجب الاستمرار في استكشافه واكتشافه...

إن المقولية الصحيحة حرة. أما العقل مع فكرة الشكل والحد والكيف المستندة على فكرة العلاقة (العالم مأخوذ تحت الجملة الاسمية: أ هي ب, وكل شيء يمكن أن يكون أ المعنية, بلا أي استنفاد من أي طرف للآخر, في كل مرة) وإما شيء عميق هو «جوهر ـ مادة ـ ماهية» أن فكرة الجوهر الصحيحة تابعة وخاضعة لفكرة العلاقة / و/ أو النسبة.. بلغة الرياضيات الحديثة في التعليم المدرسي, لنقل: إن «المجموعات» حرة. هكذا الفكر في المعرفة.

الماركسية السوفياتية تجاهلت السوسيولوجيا بوصفها علماً غريباً وبرجوازياً. الآن ثمة انقلاب. الماركسية السوفياتية استغنته عن فكرة «الزمرة الاجتماعية» groupe بفكرة «الطبقة». ضحت بالزمرة أو الفئة على مذبح الطبقة التي صارت عدماً وغولاً.. والحال, أن الإنسان ينتسب إلى زمر متعددة. الطبقة لا يمكن أن ترقى إلى كلية الزمرة أو الفئة. في المجتمع الاشتراكي المحقق, تختفي الطبقات closes بالمعنى الماركسي الحصري, ناهيك عما دونها, لا الزمر أو الفئات. لا شك أن الزمر تتعدد وتتنوع وتتكثر. وهذا جزء لا يتجزأ من عملية صير الإنسان الفرد ممثلاً للنوع! كثرة تنوع العلاقات هو الكلية. حين تعددت وتكثرت وتخالفت الأعمال وصار انتقال الإنسان من علم إلى آخر ممكناً وفعلياً في المجتمع (في المجتمع المدني البرجوازي الحديث, والولايات المتحدة بشكل أخص), أعلن أدم سميث مقولة الشغل, كلياً عاماً مجرداً هو محض قاعلية الإنسان الذاتية, مجردة عن موضوعات الشغل, ومن فوق الأنواع (زراعة, صناعة, تجارة), يقول ماركس

(المدخل, 1857) والزراعة تصير أكثر فأكثر صناعة, والمجتمع المدني تجارة بين الناس.. هذا وارد في النص المذكور وسواء. و«التاريخ تنويعة على الأشاكل» (أيضاً في النص). وأنا, قبل عرض التاريخ العربي مثلاً كتعاقب زمني معلوم, أهتم بالمنطق في التاريخ, كتنويعة على الأشكال, كسمفونية متموجة, وأضع المدينة المنورة ومدينة أثينة وكومونات العصر الوسيط الأخير في الغرب والمجتمع البورجوازي الحديث ومدينة أوغاريت الخ في صف وأضع مجتمع المماليك والعثمانيين وغيره في صف مقابل.

المغايرة, التاريخ والسياسة

-1-

الهنود أو الفرس اخترعوا لعبة الشطرنج ولعبة الزهر, الأولى تعني أن الحياة جد وتعب وكد. والثانية الحياة عبث ولهو. طاولة النرد مؤلفة من أربعة صفوف تمثل الطبائع الأربعة, والثلاثون حجراً هم بعدد أيام الشهر, والأسود والأبيض هما الليل والنهار في قسمة عدل, «وأما فصا النرد فهما القضاء!». هكذا العصر العباسي (تترف وعبث, العرب أسياد العالم والتجارة, يوجد شعر خمريات ويوجد شعر كثير في الباذنجان من فارس إلى الأندلس..), حسب كتاب شوقي ضيف. ونحن اليوم (وأنا يومياً) نلعب طاولة الزهر..

علينا أن نرى القضية عند الافرنج أو الفرنسيين, عند العالم الجديد أو الأخير..

قبل ذلك, لنذكر بأن مقولة القضاء مقولة عظمية متلازمة مع العقل ومع الفكر. أمام عشوائية الدنيا وعبثيتها, العقل يحمل مطلب الضرورة, الفكر في المعرفة يأتي إلى الواقع المتخالف جداً حاملاً فكرة العقل والضرورة والقانون والهوية. وكذلك الأديان الكبرى. وكذلك العقل الشعبي.. والقضاء هو «القضاء ـ الحظ»... لكن الفلسفة أو العلم تتقدم مع عمل البشر, مع نمو سيطرتهم على المصادفات والاعراض والطوارئ بمختلف أنواعها. عندئذ تبرز وتنمو فكرة «الضرورة» العلمية فكرة التعينية أو الحتمية وما شابه. الإنسان يكتشف قوانين الطبيعة ويسخرها, التقنية توسيط الطبيعة ضد الطبيعة, بتوسط الفكر... غير أن فريقاً من العلماء الفلاسفة, إذ يريدون «نظرياً» الانتهاء من الحظ ومن الصدفة والعرض والطارئ, دفعة واحدة, يعلنون أنه لا توجد مصادفة أو ما شابه, أليس كل شيء ضرورياً (بالأصح لنقل من جهتنا: أليس ما وقع وقع)؟, إنهم يرفعون العرضي إلى مرتبة الضروري في ليل تصير في كل البقرات سوداوات. إنهم يساوون بين كون هذا الجسم سقط على الأرض وسيسقط حتماً هو وغيره إذا تركته من يدبي, أو كون الحديد يتمدد بقدر معين أو نسبة معينة, بدرجة الحرارة وبكونه حديداً لا خشباً أو نحاساً, وكن بعوضة لسعتني في الساعة الثالثة والربع صباحاً عند كتفي الأيمن... هكذا يقول إنجلز.

إلا أن خط العلم والجدوى, الخط الكبير والصاعد نمواً,كان غير تلك المادياتية التي وصفها إنجلز بالميكانيكية والميتافيزية, والتي, لنقل ذلك, لا تتعامل مع المقولات كمفاهيم, لا تأخذ وعي المفهومية والفكرية والكلام, لقد ذكرنا سابقاً أن المادياتية كانت في جملة ما كانت حرباً على للغة, على العام, على أشباح اللغة وأصنامها وخداعها, حرباً لها ما لها وعليها ما عليها بيكون, هوبز؟... ديدرو وماديانيو القرن الثامن عشر بل أخيراً فويرباخ, لكنه فيلسوف أكبر شأناً بكثير وأكثر إنصافاً وإصابة في موضوع اللغة. المسافة من بيكون وهوبز أو من الإسمانيين... إلى فوير باخ كبيرة جداً, إنه هو القائل «في اللغة لا يوجد سوى الكلي» وقائل أطروحات أخرى فائقة الإصابة, بل يمكن القول إنه جامع ملف اللغة أو الفلسفة. واللغة هي الكلام لا لغة معينة من لغات بني آدم القومية!

إذن يقسمون (مقولية) الضرورة إلى ضرورة وعرض أو الضرورة تضع ضدها المفهومي: عرض: عرض, مصادفة, الح. الواقع الموجود كله أعراض, مليء بالأعراض والطوارئ هذا أولاً!!

لعبة الزهر وصلت إلى الافرنج. أخذوها. الشرق أمة معطاء, العرب أمة أخاذة. آلاف الأشياء, آلاف الأمور, أخذها الغرب من الشرق. والأخذ الأعظم, لكنه لا يبدو لي أنه من الشرق, هو أخذ الوعي prise de conscience, الوعي ليس بدهية البتة. وأنا لا أوافق الذين يقولون «الوعي بالشيء» ولا حتى «وعي الشيء», «استيعاء» أفضل, لكن الأفضلك تأكيد فكرة الأخذ. إن apprendre (التعلم والاكتساب والتدرب) وcomprendre (الفهم, تفهم شيء ما) من prendre فعل الأخذ والإدراك, أخذ أو تناول. ثمة انفصال أصلي, مشدد, ثمة ذات وموضوع هو «مشلوح أمام» objet وGegensisnd (منتصب ضد), يجب أخذه قطعة قطعة, جانباً جانباً بدون مد اليد, أي باليد الفكرية وحدها. إني آخذه فيصير معي vomprendre والوعي conscience يتضمن فكرة العلم ecience. وإن خصوصية الوعي, الذي هو الفكر الإنساني, ازاء فكر الحيوان, هو أنه حامل فكرة مستقبل وماضي وحاضر, فكرة ديمومة, فكرة الحاضر الحقيقي, صيغة المضارع العربية (لا

الماضي الحدثي, بل ضد الماضي الحثي شقيق أو شريك كون الأشياء المتعازلة أو حل الواقع في وقائع ـ حوادث, وإن الحادثة هي فكرة عرضي!!)...

لعبة الزهر أخذها الافرنج. ألغوا الطاولة واستبقوا الزهر (النرد). إن الزعم القائل إن الشرق يبدع والغرب يركب (كلام الدكتور ياسين عريبي) فيه تمجيد مبالغ للغربيين, فيه تقصير عن نقدهم ولومهم. إن الغرب حاذف, فقير, مثلاً باخ ألغى معظم الأنغام واستبغى تغمين فقط هما العجم والنهاوند, المأجور والميتور, فأفقر الموسيقى الأوروبية. بينما نحن موسيقانا غنية جداً. كم من الموسيقيين والشعراء الموسيقيين والاذاعيين الموسيقيين, العرب قالوا عذا الكلام في السنوات العشر الأخيرة؟ (لن أقدم لائحة, ولن أذكر أسماء!) بالنسبة لهم, الثروة هي عدد الانغام, الثروة هي عدد شيء ما!! إن فكرة الفكر والفكرية ملغاة, عنصر صغير, يجرد ويصير مبدأ قابلاً للبسط والانماء. (أترك مسألة: إذا كان الشرق يبدع إيداعاً لا تركيب إذن فالشرق هو الله, الله محلول في الشرق!)...

ألغوا الطاولة واستبقوا الزهر. استولت عليهم الدهشة, الدهشة الحقيقية أم العلم والاختراع والاكتشاف. وكلمة «الزهر» العربية صارت te hasatd, المصادفة المقولة الفلسفية والعلمية, المفهوم الكلي المطلق في الكون, في جميع الميادين أو المناطق بوصفه منطقاً من الزهر (انظر قاموس لاروس الصغير!).

هيغل يقول: كل علم إنما هو منطق, منطق تطبيقي أو منطق مطبق Toute science est logique appliquee.

ولنقل إذن بالعربية: المنطق يقيم مناطق مناطق هي ميادين, حقول, علوم انضباطات disciplines. المنطق يقيم مناطق, ومناطق جمع لمنطق ولمنطقة, بآن معاً. الاستقراء استنطاق. المناطق التي نحن بصددها (أي العلوم) هي مناطق فكرية ـ مفهومية لا مناطق مكانية مادية في الكون ـ الامتداد. إنها مناطق الكون ـ العقل. فالكون عقل, صار عقلاً, أخذ ويؤخذ بالفكر, في الفكر والذهن والروح.

ونحن الآن مع هذا المنطق, هذه المنطقة المنطقية: «علم الزهر» علم القضاء, بدلاً من أدب النرد والقضاء. كله أعراض, تصادفات, طوارئ. والفكر يحمل إلى «كله». العقل والضرورة والقانون, يكتشف قانونية النرد والزهر وكل عشوائية الدنيا!

الشفالييه دو ميريه يلعب النرد يومياً, ساعات وساعات, يوما تلو يوم, أسبوعاً تلو أسبوع, وهكذا, وحده بلا أحد سواه, وبلا طاولة, ليس بفصين, بل بفص واحد ثم فصين, ثم ثلاثة, ثم أربعة, ويسجل النتيجة: شيش بيش بك (6, 5, 1)... وبعدويجمع ويحصي, ويقارن ثم يكتب إلى باسكال صديقه: أن التشكيل 5, 4, 2 ظهر 1321 مرة, بينما التشكيل 5, 4, 4 (التشكيل بمعنى لعبتنا, بمعنى اللعبة الفعلية, أي بتساوي الزهرات, وعدم تمييزها, أي بعكس ورق اليانصيب) جاء 1235 مرة فقط. أفلست مُخطئاً؟ ألا يجب أن تكون النتيجة واحدة؟ باسكال أجابه: لا! العقل يقول ويقرر أن النتيجة المادية الفعلية صحيحة, ولو حصلت على ما يقرب من المساواة لكانت تكون تجربتك «باطلة», زهرك مغشوش مثلاً, احتمال التساوي ضئيل جداً, يمكن حسابه, فأنت لعبت عدداً كبيراً من المرات وليس عشرين أو مئة أو ألف مرة, بل لعبت عشرات الألوف وهكذا. إن القارئ يعرف أن احتمال 5, 5 في لعبتنا نحن (زهرتين فقط) هو 2 من 36 بينما احتمال 4, 5 هو 1 من 36. ونرجوه من جهة أخرى أن لا يدقق رةايتنا, فقد أردنا عرض القضية بأسهل ما يمكن... إنها قضية الفكر ـ العقل.

إذن باسكال (اللغوي, الاديب, الفيلسوف, العالم الرياضي والعالم الفيزيائي, الأوغسطيني «الجبري» حليف وصديق ديربور روايال, ضد اليسوعيين وضد فكرة «التحكيم الحر» وضد التحييلات) أسس علم الزهر, «نظرية الحظوظ» حساب الاحتمالات. معه وقبله غاليليو وآخرون, ثم في القرن الثامن عشر: الرياضيون الفرنسيون في بطرسبرج وباريس (وسويسرة) يلعبون الأحمر والأبيض (الطرة والنقش) في رؤوسهم, يهترعون المعادلة المعروفة باسم «مفارقة بطرسبرج»...

وهكذا يقوم علم جبار علم غاوس ولابلاس وكيتليه وبرونوبي وأولير: حساب الاحتمالات والستاتستطيقا, التي ترجمناها «علم الاحصاء» و«الطريقة الاحصائية», وهي ترجمة لا تفي بتاتاً بالمطلوب. لنقل إن الستاتسطيقا statistique هي علم الحالة etat, منطق الحالة ضد فكرة الشيء وفكرة الجامد وفكرة الكتلة وفكرة الجوهر. الكتلة كتيلات molecules, هكذا الفيزياء! وإن الكتيلات في جسم متحركة جدماً, الجسم هو, هامد! حركة «العناصر» الصغيرة تلتقي كمجموع, إنها عشوائية, يبطل بعضها بعضاً.

لنقل! كثرة حركة الأفراد, صمود أو عطالة الجماعة العشوائية هي فعلاً شيء ضد العقل.

لكن العلم يكتشف عقلها, على صعيد المجاميع الأعداد الكبية. إن كل اتجاه المعرفة العلمية في عصرنا ليس «نفي» العشوائية, إنكارها, القول بأنها غير «موجودة», بل هو بالعكس: 1) الاعتراف بالعشوائية. 2) قوننة العشوائية. إقول «قوننة» ولا «أقول تقنين».

العلم الستاتسطيقي فيه «قانون الأعداد الكبيرة مع التابع العشوائي (منحنى غاوس أو مشكل الجزس) والمتوسط (الذي هو متوسطات مختلفة (moyennes) والانحراف, ولا سيما «الانحراف التربيعي الوسطي» (وهو صيغة «معقدة» نسبياً) و«معامل ترابط بيرسونا»... جميعها قوانين, مفاهيم, مصطلحات, «أسماء», لوغوس هذا اللوغوس هو لغة الحالة. فالحالة ناطقة تماماً. وهذه المنطقية العلمية غزت جميع المناطق, علوماً وتقنيات مثلاً إذا كان الباحث الزراعي العلمي زرع عينة منتقاة من فصيلة فاصولياء في مربع من تربة متجانسة (بقصد تحقيح التحسين والوصول إلى فصيلة جديدة) وإذا حصل على توزع أو انتشار للمحصول في شكل منحنى غاوس لكن مع ذروتين (وسطيين) بدلاً من ذروة واحدة, عنئذ تكون العينة مؤلفة من فصيلتين بالتأكيد بالمطلق!

إذا صمم معمل للسجائر وأنتج السجائر طول 12 سم مثلاً وأخذ عينة من 10 آلاف سيجارة, فإنه توجد سيجارة تحقق أو يمكن أن تحقق الطول المذكور 12 سم بالتمام. 12 سم هي «المفهوم» على قضية الطول منفردة ومجردة, والأطوال الفعلية (1, 12 سم, 2, 12 سم, 11,095...) هي واقع أطوال السجائر الحقيقية. إذا ابتعد المتوسط الفعلي قليلاً نحو اليسار أو نحو اليمين, يمكن للمصمم أن يحسن, أن يتقدم في الدقة, في مطابقة واقع الشيء ومفهومه.

هكذا فقد تقدمت الميكانيقا, علم أرخميدس وغاليليو ونيوتن, وتجاوزت نفسها, إلى ميكانيقا ستاتسطيقية إلى «آلية حالية».

وبفعل هذا التحول, تنردم الهوة بين الميكانيكي والحي في علم عصرنا!

إن المذهبين السابقين, الآلي والحيوي, في قضية الحياة, باطلان, جرى تخطيهما الآن, نهائياً.

وبالحقيقة, إن الفلسفة العظمى لم تقع في المذهبين الآنفين. ونتذكر موقفاً مأثوراً لكانط وليهيغل: في الكائن الحي, إن كل الأمور هي بعضها لبعض وسيلة وغاية بآن. كنط وهيغل والماركسية الصحيحة حملوا دوماً فكرة الغائية, فكرة «غائية داخلية», كانت موضع رفض وسخرية من جانب الوضعانية... وإن ألتوسير مثلاً, في الستينات من هذا القرن, يطرد الغائية وفكرة الهدف البسيطة حتى من العمل الإنساني, يتكلم عن ممارسة هي انتاج لمنتوج, بلا هدف, وعن «ممارسة سياسية» تحط المجتمع موضوع الممارسة المذكورة إلى «مادة أولية» لا أقل!...

وكما يعرف تلاميذ الثانوي, لا توجد غازات كاملة أو غازات مثالية pasfaits, وبالانكليزية ideal هذا ينضم غلى قضية المفهومية, إلى جانب مثال طول السجائر... وجميع الأمور.

-7-

إن قضية المغايرة تحتل موقعاً مركزياً في مسألة الوراثة وتطور الأنواع.

إن فكرة التطور قديمة على نحو أو آخر. إنها ترتبط بفكرة الشكل, بالمورفولوجيا (الأشكال, الاقسام) بالتشريح المقارن / مرة أخرى الأشكال, الاقسام أو الأجزاء (anatomie), بفكرة ما عن صعود على درجات في الزمان.. في العصر الحديث لدينا بوفون Buffin, ديدرو, غوته خاصة, ولدينا العالم «لامارك».

قبله, لينه أنشأ فكرة النوع العلمية, وقام بعملية جرد أول للأنواع الموجودة. أيد الثبات ونظرية الخلق الإلهي. «لامارك» أيد التطور وخفض النوع والجنس... جوفروا دوسانت ايلير أنشأ علم التشريح المقارن مع قانون «ترابط» الأشكال (تعالقعا المعي توازيها أو تضارعها بين الأنواع المختلفة والمتباعدة جداً...) وأيد بقوة فكرة تطور الأنواع. عارضه العالم الكبير كوفييه, رغم اكتشافاته المستحاثية وعلمه الكبير (بدافع من إيمانه الديني مع فكرة الخلق فسر اختفاء كثير من الأنواع بكوارث الطبيعة أي بالنظرية الانهيارية في الجيولوجيا, التي «نفاها» لا بل مؤسس علم الجيولوجيا على ركيزة «التدريج»...) هيغل أيد كوفييه الثباتي. عن هيغل, الطبيعة لا تعرف سوى بسط في المكان (أو هكذا قول مأثور له), وذلك بعكس الإنسان وتاريخه: إنه صعود, صعود نحو الحرية الطبيعة دورية ودائرية, مع فكرة غاية داخلية ومقولة النفي...

وجاء داروين, 1859, أصل الأنواع.. فالأنواع لها أصل هو أصلها, مثلما المنظومة الشمسية لها أصل حسب كنط ولابلاس. و«لها أصل» هنا يعني: لها نشوء, تكون, تاريخ صاعد, الأصل غير الهوية, أصل الشيء غير هويته. أصل المنظومة الشمسية سحابة كبيرة كتلة غازية. أما المنظومة الشمسية فهي شمس وكواكب متمايزة جاً, أجسام سماوية كثيفة صلبة, هويات بينة متباينة مفردة. التاريخ بيان بهذا المعنى صعود من العجمة والخواء والهيولى إلى شكل معرب... هناك من يريدون إرجاع الدنيا إلى السديم, إلى الغاز وذراته المشددة, يريدون إقامة وحدة هذا البحر الغازي بفضل جزر ـ صوالب, توحيد الرمال ببضعة صخور صلبة جداً هذا محال, لا معنى, ضد العقل.

داروين ينطلق من قاعدة الاعراض الأكثر كلية وكتشف الضرورة, يبنى بالفكر والملاحظة (رؤية الواقع: أنواعاً وفصائل وافراداً) عقلاً وضرورة وفكرة التطور. يعطي برهاناً (بياناً) عظيماً عن وحدة الفكرتين: المنطق والتطور.

إن أفراد فصيلة أو نوع أو «تحت ـ نوع», ولنقل نهائياً: «نوع» (= جماعة, هوية جماعة, مقولة), يتوزعون في كل خاصة من خصائصهم, حسب التابع العشوائي على منحنى غاوس حول وسط معين. مثلاً لتكن خاصة وجود غشاء صغير بين أصابع أفراد نوع من الطيور. في أحد الطرفين من خط التوزع, هذا الغشاء صغير جداً ومائل إلى الاختفاء. وفي الطرف المقابل, الأمر بالعكس الغشاء نام, ومتجاوز المتوسط العام بدرجات متفاوتة, هذه قاعدة عامة ومطلقة. كل الكائنات مختلفة, لكن بات معنا هذا هذه «القانونية العشوائية» للاخلاف.. غذا كانت البيئة المحيطة آخذة في التغير نحو المزيد من الماء والمساحات المائية, فإن هذا التغير يلائم الأفراد ذوي الغشاء النامي, أي أحد الطرفين المتباعدين, على حساب سائر النوع. وهكذا دواليك, تواليا: الأجيال تتوالى الاصطفاء البقائي يعمل لصالح الطرف المعنى, التغيرات الصغيرة تتراكم, مئات وألوف الأجيال تتوالى, ينشأ (يتشكل, يتكون) نوع جديد كائن هو في مثالنا «ذوات الغشاء»...

ثلاث «مراحل» أو درجات: 1) نوع, هوية, 2) الأفرادية = الاختلاف = نفي النوع. 3) نوع جديد = نفي النفي.

هذا في الفكرية النظرية المنطقية, ليس عرضاً لتاريخ الأنواع. إنه منطق تطور الأنواع وأصلها, منطق المنشأ والنشوء والظهور.

المهم: لسنا, عند داروين وصراع البقاء واصطفاء الأصلح, مع صراع بين حيوانين مخيفين في الغابة, ولا مع مطاردة ذئب لقطيع من الغزلان وفوزه بواحد منهن وافتراسه أمامنا على شاشة التلفزيون, ولا مع وجودية بوذية أو براهمية أو غيرها مأساوية متشائمة تضع الشر في الكون الكوسمي لا في الإنسان سيد الكون المادي المخلوق, ولا مع تصارع أهورا مزدا وأهريمان وواجب الإنسان في نصرة الأول على الثاني والخير على الشر, النور على الظلام, ولا في تشاؤمية ـ تفاؤلية عربية مبتكرة (نوعاً ما) حلولية ومثنوية ووثنية, الخ, بل نحن مع: ضرورة وأعراض, لعب ضضرورة وتصادفات, وتغير حقيقي لبيئة محددة, وأنواع حقيقية مع أفراد حقيقيين, هويات ومغايرات في كون عقل مفتوح مع المنطق والحساب والهندسة والجبر, مع الاحتمالية ورياضيات المقادير المتغيرة والفروق الصغيرة أو دقائق الأشباه. إن «صراع البقاء» موسط تماماً, ثمة عقل. من جهة أخرى, وبعد ذلك, إن صراع البقاء ليس البتة مثلاً أعلى للبشرية, لكن بشكل خاص إن

داروين لم يقل أن الطيور تتصارع من أجل البقاء, كما يتصارع البشر في حالات تاريخية كثيرة كثيرة, ولم يقل إن هذا التصارع والافتراس المتبادل يخلق تطوراً أو أنواعاً جديدة!!

ماذا فهم شيلي شميل من داروين؟ لا شيء! إن المؤرخ المصري صاحب تاريخ «لحركات اليسارية» وتاريخ «الصحافة اليسارية في مصر» اكتشف عن نفسه أنه لي مؤرخاً ماركسياً فقط بل هو فيلسوف ماركسي أيضاً. إنه لا «يعرف» أن شيلي شميل وراء بوشنر وأن بوشنر ممثل «الماديانية المبتذلة», أي أشد أنواع الماديانية تفاهة وسخافة في نظر ماركس وإنجلز ولينين. ويككفي أن يكون رجل من أنصار المادة الأزلية والتطور مع داروين حتى يصبح في نظر المؤرخ المعني ماديانياً جدلياً!! مرة أخرى: إن أحداً من رحالات عصر النهضة لم يعرف داريون فعلاً, لم يقرأ كتابه, ولا سيما الصفحات الأولى من كتابه!!, ولم يهتم جويا بالعلم الطليعي ولا بالعلم الرياضي ولا بعلم المنطق ولا بهيغل بطبيعة الحال. وبطبيعة الحال أنا لست في صدد تقيمهم. وأنا أعتقد أن كثيراً من المسائل الهامة التي طرحها عصر النهضوي أعملت أو حذفت فيما بعد أحبي بشكل خاص محمد عبده, البستاني واليازجي, قاسم أمين وطه حسين, وعبد الرحمن الكواكي وعلي عبد الرزاق وأحمد لطفي السيد, وجبران وزيدان والريحاني, ورشيد رضا والأفغاني الخ عدا عن الطهطاوي والتونسي, وعدا عن مجهولين كثيرين..

بعد داروين, جاء مندل مؤسس أو مخترع علم الوراثة.

فكرة الوراثة مضمونة ومفهومة داخل فكرة النوع مع الهوية عند داروين. إنها فكرة ثبات. ثبات كبير جداً جداً. ابن الذئب والذئبة ذئب صغير أو ئبة صغيرة... ليس هذا «عجيبة» بل «العجيبة» إن صح التعبير خلافة «العجيبة» هي التغير والتطور والارتقاء في سلم الطبيعة وأحيائها... كلن العادي هو أيضاً يثير دهشة العالم العادي ملغوز, يجب فك اللغز. الوراثة والتطور ضدان شريكان, متنافيان لكن شريكان. داورين ومندل فكا اللغز والعلم تابع ويتابع: دوفريس, مورغان ووايزمان مروراً بالكروموزومات والجينات والـ A.D.N وصولاً إلى مقولة الـ integrin...

ولعل أعم كتابين في الربع الثاني من القرن العشرين هما على وجه التحديد: نظرية الألعاب تأليف بوهانس ـ جون فون نويمان والسيبنيطيقا تأليف نوربيرت فبينر...

في أوائل هذا القرن قال فرديننانند دو سوسور صيغته المشهورة: اللغة ليست جوهراً أو ماهية أو مادة substance بل هي بنية structure. حسب الألسنية, اللغة هي حالة لغة, حالة لغوية etat de langue وهي بنية. يوجد عندنا من يؤلف كتاباً ومقالات وخطابات هن اللغة بدون البنية, بدون «الصرف والنحو», بدون فكرة الحالة, بالمفردات, أقصد ببعض المفردات.. عذا عن هذا البعض, عندي اعتقاد بأن العلماء أو الباحثين العرب لم يفهموا سوسور و«المنطقة» الجديدة... من أين لنا أن ندخل هذه المنطفة الجديدة إذا لم ندخل علم الكلام ومقولة الشكل؟

وأخيراً, يبدو أن اليابانيين حولوا ويحولون كازيين الحليب إلى حرير, كوبان من الحليب فستان من الحرير. أ،ا لم أسمع من قبل بالكازيين لكن من يعرف أرسطو, من يعرف فكرته العبفرية مصادرته العسكرية من الرأس ضد «المادة» أو الجوهر الماهي الخاص, لا يفاجأ من حيث المبدأ... لنذكر بأن شوقي ضيف مثلاً قال: إن العلم زائل, حقائقه عابرة, كل جيل يجب ما قبله, ولا يبقى سوى الشعور واللاحساس والشعر, فذار أيها الشاعر أن تبارح هذه المنطقة الخالدة إلى العلم والعلوم, أي لا يمكن أن تغادرها إلا إلى الفيزياء والفلك والطبيعيات أما منطقة المجتمع نفسها فهي عدم أو تقريباً... ليس ما ينقص فلسفة آدابنا وفنوننا الجمال ولا الواقعية بل الاثنان معاً وبالتلازم, ثلاثي الحق والخير والجمال وثلاثي الكون والمجتمع والعمل, معاً بآن...

عندنا, عند التيار السائد, إن مقولة الجماعة أو مقولة الشعب, أو الأمة أو مقولة الجماهير الخ قائمة كهوية نابذة للأفرادية, أقصد لاختلاف الأفراد الحقيقي, للمغايرة والتعددية, حسب قاموسنا الأخير أو مطلبنا السياسي المستيقظ للحرية والديمقراطية ضمن أجواء تجارية عامة. طرف يصرخ الشعب. وطرف يناهض ويرتكس بدافع من شعوره الصادق وبدافع من ضرورة واقعية عامة فهمت إلى حد ما, إنه إذن يدافع عن الحرية والديمقراطية والمغايرة والتعدد. وطرف ثالث يسعى إلى التوفيق بين الموقفين: بين الهوية وحرية الأفراد. قد يكون هو الأبعد عن «التوفيق», فالاستبداد

والتوتاليتارية تذرران المجتمع, تتركان حريات كثيرة للأفراد تطلقان شريعة الغاب وشريعة الحظ.. هذا كله يفرض إعادة النظر في المقولات لكي تفحص نقدياً ومنهجياً. إن مقولات الشعب, والجماهير, والوطن, والأمة الوطنية القومية, والديمقراطية, والحرية (الاسم الموصوف), دخيلة علينا ومستوردة. بالنسبة لنا, قبل قرن من الزمن مثلاً, لم يكن لها أي مدلول. إنها لا تسمي أي واقع فعلي. كان عندنا العامة والخاصة (والعامية والفصحى) لا الشعب, والأمم هي الأمم الدينية.. وحتى الآن بالذات, ما زالت الحرية أسيرة مصدرها الحسي الطائر الحر. لو كنا إنكليز أو ألمانا لقتل: فرفري, فرايهايت Free Freiheit. فالكلمات مثلاً المقولات الفلسفية أو كثير منها على الأقل (وليست Hasard إلا مثالاً كذلك Matiiene, كذلك Staff) لها مصدرها الحسي لكنها تتحول إلى فلسفة, إلى علم كلام, تصير مقولات نظرية جداً.

والجماهير Masses تعني كتلة, كتل. وهي مصطلح من علم الفيزياء أصلاً. ولا ريب أن الجماهير كتلة أولاً, كتل كبيرة. لكن, أريد أن أقول, في ضوء نيف وثلاثين من تاريخنا نحن, إن الجماهير هي بالأمم «الكتل الكبرى + فكرة التقدم»... الجماهير في تاريخنا هي بشكل خاص جماهير أيام معلومة السنوات 1955, 1956, 1958, 1961, 1962, 1963, 1967, 1970. بل هي الجماهير على نطاق أمة العرب جميعاً المتعددة البلدان والعوالم..

عندنا من يريد الجماعة أو الشعب, في الماضي البعيد أو في الحاضر, بدون الافرادية, بدون الاختلاف أو الفرقة. ما كيان الأفراد عند الماوردي؟, هل للفرد كيان وحقوق, حقيقية؟ عل مقولة الجماعة عند الماوردي تستقيم في الرأس المفكر والمشرع بدون ضد مفهومي لها كالأفراد, كالفرد, ككائن فعلي فردي, كانا مغاير لكل أنا آخر؟ أم أن الجماعة قائمة فقط مقابل السلطة أو السلطان أو الحاكم الذي يجب أن يكون عادلاً وأن تتوفي فيه شروط معينة يجب «شمولها»؟ إلى أي حد يمكن أن نتكلم هنا عن فكرة «مجتمع سياسي», عن دولة هي الشأن العام أو الشيء العام, عن دولة هي stat (حالة, كون مستقر) لا عن دولة دال, يدول؟ أنا لا أقاضي ذلك التاريخ لا كواقع ولا كفكر يعكس وينظر ويقود! أنا أقاضي الفكر الحاضر والواقع الحاضر مازالت الدولة في «الخارج»...

«علم الحالة» إختراع بدعة مرعبة, خسيسة جداً, على صعيد المصطلح.

نحن حين نريد أن نترجم population مفرد, إذن كلي نقول «السكان». لا بأس. بل أجد في كتب مدرسية (علم اجتماع, موضوع الديموغرافيا أو السكان والولادات والوفيات والكثافة) مصطلح «شعب», شعب بالمعنى الديموغرافي, والسكاني. لا بأس, هذا جيد المصطلح الفرنسي أو الانكليزي آت من اللاتينية حيث هو مرادف لـ Peuple أي شعب. ثمة للكلمة بطبيعة الحال معان مختلفة, منها المعنى الديموغرافي (وصف الشعب) والسكاني.

لكن بدعة علم الاحصاء أو الستاتسطيقا أنه وسع وعمم مقولة «الشعب» هذه جعلها مقولة «حالية» تعبر عن الحالة, عن الوضعية, والمواقعية الخ. فقال مثلاً: شعب من السجائر, وشعب من ذبابات الخل دروزوفيلا!

ثم؟

ثم: إن هذا الشعب هو شعب اختلاف! إنه شعب تغاير وتباين وتمايز... وإلا, سقطت المقولة العلمية في هوة الهوية, تهاوت بهذا المعنى, أي بالمعنيين. إن التماهي العربي الحاضر هو فعلاً تهاو, تهاو في هو الهوية, ارتكاس قيح, تعويض لا معنى له عن الفرقة والانقسام والتشتت والتقاتل والتبرد وهو موضوعياً قتال ضد الفكر وضد التقدم, ضد العقل واجتماع الناس, ضد الشعب والأمة.

إن العلم الذي يدرس في المخبر «شعباً» من ذبابات النحل (تكاثر عينة لا على التعيين داخل قفص من زجاج...) يخدم علم الديموغرافية البشرية, يكشفه لجانب ما, لقانون طبيعي مجرد... أما منطق الهوية المزعومة, أية هوية كانت, فهو لا يقدم خدمة إيجابية لأي علم ولا لأي عمل. إنه باسم فكرة المجتمع يذهب ضد فكرة «الاجتماع», فكرة التشارك, فكرة التشكل, فكرة أن البشر ينتجون يومياً وجودهم ومجتمعهم. من جهة يكون لدينا مجتمع, وفي الجهة المقابلة لدينا أفراد, ولا شيء من هنا إلى هناك لا حركة, لا انتقال, لا عملية «اجتماع»... الأفراد المختلفون يجتمعون فيصير معنا مجتمع, أو جماعة, أو شعب: هكذا العملية أو السيرورة.

هذا بالطبع غائب من تراثنا بوجه عام, لكن ستالين مثلاً شطب عليه هو أيضاً في أحدث حركة وأحدث نظام في تاريخ البشرية, أقام ماديانيته التاريخية بل ماديانياته الجدلية أيضاً ضده. مع أنه قاعدة وركيزة بدهية عند ماركس وفي الماركسية وفي الحزب الماركسي الروسي وحزب البلاشفة الروح مع لينين... الأفراد يجتمعون, توجد حرية, ولذلك يوجد عقل ويوجد تطور ونمو.

وأسمح لنفسس بمصارعة لغوية, لعلها أكثر من «تشبيع».

قلت: أفراد يجتمعون في مجتمع. والمشطوب هو الفعل المضارع, الحاضر الديمومي الصيروري.

كذلك: شربت الشراب (أو المشروب).

عندنا, تصريف الافعال, الماضي (أي الماضي الحدثي) يتصدر! يسمى الماضي والمضارع والأمر «وأزمنة» الأمر أيضاً «زمن». والأزمنة على خط أحادي: ماضي (شرب), حاضر (يشرب) يضاف إليه سين أو سوف من أجل مستقبل قريب أو بعيد, على الخط. هكذا التعليم وهكذا المدونة القواعدية البسيطة التي لا تمس مع أن الأنماط والأزمنة الفرنسية الكثيرة موجودة عندنا تماماً, فيما عد ما يسقط منها بسبب قلة فائدته... (وصفته التكرارية لغيره, إمكانية الاستغناء عنه, ضرورات التيسير خدمة للفكر والتيسير غير المسح و«السطح» والتسوية!). وعنوان الفعل نفسه. أي اسمه هو «شرب» (الفعل الماضي المصرف بضمير الغائب وهذه موضوعية حيادية فائقة الالتباس)؟ لا يوجد في لغتنا, بحكم طبيعتها, نمو الـ Infinitif. الذي هو اسم الفعل أو «الاسم ـ الفعل» أو «الفعل ـ الاسم», وهو في هذه الحقيقة أقرب إلى فكرة «المضارع»... إذن نحن لا نقول كعنوان لجدول تصريف شرب «فعل الشرب» مثلاص وكل تعليمنا للصرف والنحو يبدأ من إعلان أن الكلام عند العرب, يقسم إلى فعل واسم وحرف. ننسى أذن إن الاسم والفعل والحرف هنن جميعاً كلمات, تسميات لأشياء (أو أشياء وعلاقات وعمليات) نبدأ بقسم الكلام, بدون تعريف حقيقي للكلام وللكلمة ازاء الأشياء والواقع وعقل الواقع. هذه بداية متسرعة. ولا نضع إذن أي حد ضد تصنيم وجوهرة مقولات الصرف والنحو, أي الفصائل القواعدية, لا ندرك احتمالاً ما أو إيحاء ما عند التلاميذ والشعب مفاده أن الحدر والشرب والرجل والمشي والمشروب والشجرة هم من نوع واحد (الاسم) كجوهر يتجمد ويتشبأ (وراء الحجر والمشروب والشجرة والرجل) ازاء الجوهرين الآخرين في النهاية العليا, يصبح «المعنى الحقيقي» كأنه «جامد ذات» و«المعنى المجازي» كأنه عسف وخيال وشعر وشعور... وهذا, في أحسن حال, يخفض فكرة العملية وفكرة العلاقة تخفيضاً ينعكس على تفكيرنا عموماً, على طريقة التفكير, لاسيما في غياب أو شبه غياب الفلسفة, المنطق, تاريخ العالم, تاريخنا نحن بلا حذف معظم «المناطق» والحق, اللغات الأجنبية, الرياضيات كعمق عام, تاريخ أساسات الفكر ولا أقول تاريخ كذرى وضاءة ربع مفهومة... إن الكون الفعلي, إن الواقع الحي ليس عند الجوامد ولا عند المجاز... الجسم نفسه صار فكرة ومفهوماً, وحُلَّ!

«شربت شراباً» قائمة بدون «الشرب». هذا صحيح وطبيعي, لغوياً, عندنا وعند غيرنا. الجملة تامة. الفكرة تامة. فكرة الشرب موجودة في فعل شربت. لكن هذا اللغة. بل هكذا الوجود وهكذا العمل الإنساني اليومي: الناس يأكلون طعاماً, يشربون ماء, يدرسون دروسهم, يصنعون طاولات وأحذية, يحصدون القمح. هذا أفضل (صيغة المضارع) وأقرب إلى الفكرية والمحاكمة (إنه الجملة الاسمية والفعل في وسطها). «المضارع يضارع الاسم», إنه يرفع وينصب ويجزم (ليس «مبنياً» كالماضي والأمر), وهو يحمل ثباتاً واستمراراً أنه زمن ونمط الثانون, ويتشارك جيداً مع الجملة الاسمية: الأرض تدور حول الشمس, ع تتناسب عكساً مع س, الناس يذهبون إلى أعمالهم كل يوم عدا يوم العطلة, الله نور السماوات والأرض, هو الحي الباقي...

عملياً, إن موقف ستالين يتلخص في : الأفراد موجودون في مجتمع لا شك في ذلك. لكن ليس الأمر هكذا إلا لأن «الأفراد يجتمعون». كل موجود إنما هو ناتج ونتاج ونتيجة. «الاستنتاج» قائم في الواقع (الطبيعي والبشري على حد سواء) ولأنه قائم في الواقع لذلك يقوم في الفكر. و«الاستنتاج» هو المنطق. بدل الاستنتاج كان يمكن أن أقول النتوجية حيث الفرنسي تحيلنا على جذور مختلفة لكلمات متنوعة, تحيلنا العربية على جذر واحد «نتج» مع مزيداته المتداولة أنتج

واستنتج, إذن إنتاج منتوج, منتج, نتاج, ناتج, ونتيجة. مقولة الانتاج ومقولة السببية ومقولة الاستنتاج أو المحاكمة يتشاركن بشكل ممتاز!

وهذا التشارك هو مذهب هيغل الفلسفي: فكرة المنطق الواصلة أخيراً إلى العالم كذات حية مع الفكرة المطلقة ومع العمل الإنساني, وهو على الأقل القاعدة الأولة والمحور الجوهري:

العالم غير الطبيعة. الطبيعة تحتاج بعد إلى تعينات كثيرة لكي تصير عالماً.

لكل شيء «علة كافية», مبدأ لايبنتس. هذا صحيح. لكن «كافية» نافلة, زائدة عن اللزوم. إن علة غير كافية, إن علة ناقصة ليست علة, ليست عقلاً raison, raison! = علة أو عقل.

حين تكتمل شروط شيء من الأشياء, يوجد الشيء. ولينين «يدهش» لهذا الاستنتاج للوجود.

ما لم تكتمل الشروط فهو, الشيء المعني لا غيره فهو ليس. قد يكون النقص واحداً بالمئة أو واحداً بالمليون, لكن الشيء عينه تماماً ليس بعد. إن هذا الواحد بالمئة, حين يكون الـ 99% متوفراً, يكون هو الحاسم. وقد يكون هو مسؤوليتنا أنا وأنت أو أي شخص آخر! فالواقع أمامنا في الراهن النزوعي حمال أو احتمالي ثمة خيارات, ثمة مفترق, ثمة قضية وعي وحسم.

حتمية؟ وحده الواقع «محتوم». بالأصح: إنه أكثر من محتوم, إنه واقع! اكتملت تعيناته فوقع, صار واقعاً. صيغة سقط tomber, سقط في الواقع, نجدها مراراً في كتابات هيغل, إنها فكرة أفلاطونية ـ هيغلية, أي منطقية واقعية. بالعربية, الواقع من وقع. باللاتينية والفرنسية والألمانية Realite من res (شيء chose).

اكتملت تعيناته فوقع. ومن تعيناته عمل البشر السياسي, وعيهم وحسمهم... إن سؤال «لو...» مسوغ ولا بد منه إطلاقاً, من أجل فهم ما وقع, معرفة كيف جاء إلى الوجود. آليو ومسارات أنوجاده. منطقة حصوله Geschehen. إن هذا الحصول عالم حقيقي ليس «باطناً» مجوهراً وغير مفهوم ولا هو ظاهر سطحي يحيل الباطن ويخفي الواقع...

الجملة, الكل le tout, هو ناتج جامع لكليات. ثمة كل عياني وثمة كلي عياني.

العياني هو المعين إلى النهاية. لأنه ثمة منطق لذلك ثمة تاريخ.

مسيرة توفر الشروط هي مجيء الشيء إلى الوجود العالم الموجود نتاج ونتيجة. إنتاج البشر لعالمهم يقيم المنطق في ذهن الإنسان. وبالعمل الانتاج يكتشف الإنسان السببية والعلية والقانون والمنطق في الطبيعة ذاتها, يقيم علم الطبيعة وعلومها. وهذه العلوم تعزز العقلانية والموضوعية والاجتماعية في ذهن الإنسان وحياته وواقعه الاجتماعي. الفاعليات الفكرية والعلمية جزء من براكيس المجتمعات البشرية...

إذن إن المغايرة, الاختلاف أس في الواقع الموضوعي., قوام في الدنيا المخلوقة, أرضاً وسماوات عكذا هيغل. ولنقل إن هذا القوام ذو درجات ومستويات وأشكال (تنوع الاختلاف!).

اختلاف حبات الرمل ليس بين صحرائنا الكبيرة وصحراء كالأصاري بل في نقطة مكانية, في محل صغير جداً! فالمحلي الصغير جداً حامل للكلي... اختلاف قطرات الماء الصافي... واختلاف ذبابات النحل.. وتنوع الجزئيات العنصرية أو الابتدائية في الذرة...

واختلاف الأفراد في مجتمعات الحيوان societe: النمل والنحل والغزلان وبعض أواع الطيور...

واختلاف أفراد قطيع الأغنام أو قطيع الماشية البقرية واختلاف أفراد قطيع من البشر «الأوائل» hordes وأي مجتمع بشري لاحق, اختلاف الأفراد الجماعات أو المتحدات الطليعية ما قبل التاريخية أو اللاتاريخية...

أخيراً, بشكل خصوصي أو نوعي specifique: تغاير مجتمع الإنسان, المجتمع السياسي, مجتمع الحيوان «السياسي» zoon politikon, ابن التاريخ.

قلت: بشكل خصوصي أو نوعي specifiqument هنا, وربما هنا فقط. يتخذ هذا المصطلح معناه الشرعي, الذي لا لبس فيه.

يمكن إذن, تحت مقولة الاختلاف أن نميز ثلاثة مستويات في المنطق بوصفه علم الكون. المعنى الأبسط والأوسع والأشمل هو الاختلاف أو التغاير أو تمايز في الكون نفسه, فكرة الكون

البسيطة, الوجود, الكائن, الموجود, الـ هو, الـ أيس, etre بالمعنى الأوسع, الأبسط, الأدنى والأعم. الاختلاف كملازم للأيس. أنا أعتقد أن هذه الكلمة, أو هذا الصوت اللغوي إس, أيس إسو, esse اللاتينية res اللاتينية, is الانكليزية, الخ كلمة قديمة, بدأت عندنا, في الشرق الأدنى, في بلاد كنهان وآرام السامية.. لست في علم اللغة واللغات, وقد أكون مخطئاً فيما ذهبت إليه. المهم أنني أطرح سؤالاً, أخطأت أو أصبت: أنا طرحت سؤالاً, أنا أسأل. ويعززني في السؤال كون العائلات اللغوية الثلاث التي هي العندو ـ أوروبي والسامي ـ الحامي والبانتو وربما الأورالي أيضاً يجمعن اليوم ومنذ نصف قرن في «عائلة عائلات» تدعى نوستراتوم nostratum (أي خيرنا أو ملكنا أو لغتنا شيء لنا), مقابل العائلة الصينو ـ أوسترية مثلاً وسواها (الالطائية؟ بما فيها التركية, وجميع اللغات التي لم تجمع بعد في عائلات, ويتكلمها 16% من البشر وأشهرها اليابانية)... أذكر بأن esse اللاتينية «هي» etre الفرنسية (واضعاً المزدوجين حول «هي», منوهاً مرة أخرى بأن (المبتدأ والخبر لا يتغارقان لا يتنافدان, بل يتقاطعان, أو بالأهم إنهما يتغارقان وتناقدان ويتآخذان جزئياً), ومنها essence الفرنسية (ماهية أو جوهر؟) و Wesen الألمانية (كائن, كون etre أم جوهر essence؟ وأذكر بـ«أوسية» anssia أرسطو (essence وsubstanct وetre) وغير ذلك أيضاً). وهكذا «دواليك»...

هذه ليست مسألة ترجمة بتاتاً, ترجمة كما يتصورها البعض, الترجمة هي ترجمة الرأس, الترجمة عي الفكر, استقرار واستنطاق الكون خارج الرأس والذي الرأس فيه بوصفه الكون. الفلسفة الغربية في ميتافيزيقا الـetre, يقول هايدغر, إيانا أن نظن أننا خارج هذه الفلسفة الغربية أو هذه «اللغة الغربية»! نحن فيها ومنها, لسنا الصين واليابان ولا الهند, الهند وأوروبية لغة. ولا أحد خارجها, على الأقل اليوم. esse وres شيء, وهايدغر صاحب مؤلف عنوانه «ما الشيء؟» أو «ما شيء؟». فعلاً, الفلسفة سمفونية الـetre, من بارمنيد العظيم إلى سعو أوغسطين مدشن الغرب « si Faller sum» (لئن أنا مخطئ, فأنا موجود!) إلى sum ديكارت مدشن العصر الحديث cogito. ergo sum (أنا أشك, أنا أفكر أنا اتفاكر, أنا أحاكم, إذن أنا موجود) إلى منطلق برهنة بركلي, وهو esse مزدوج, أو بالأصح مكرر مرتين!, فاصل نهائياً, قائم ضد اللوغوس واللغة, مع فعل الإدراك الحسي والصورة و«النوس» الذي صار أقرب إلى الشرقية والبرغسونية...

وأخيراً, وهذا مباشرة في موضوعنا, في قضية الإنسان, والمغايرة في قضية مجتمع الناس, قضية الفرد الإنساني والجوهر الإنساني, إنها مسألة الـ wesen البشري في الأطروحة السادسة عن فويرباخ, لكارل ماركس: «الـwesen البشري ليس تجريداً ملازماً للفرد المعزول, في واقعه أو حقيقته, إنه مجموع أو جملة العلاقات الاجتماعية». etre أم essence ؟ كون, كائن, جوهر (ماهية)؟ كل الترجمات ممكنة! والقضية خلافية, في وسط الشراح والمترجمين, كل الترجمات صالحة. المهم هو المضمون, أي الاتجاه والقصد, المعنى واتجاه الضرب. كلم ماركس موجه ضد فويرباخ. إنها ضربة محددة ومدودة, محددة ومحددة للمعنى, إنها ضربة ضيقة أي وثيقة, إنها بؤرة انطلاق, نقطة مصب لانهار ونقطة انطلاق لانهار أيضاً. (ماركس يتوجع نحو «جملة العلاقات الاجتماعية» التي ليتس طبيعية نوعية وليست فرداً وحياً). التضييق توثيق! أو أيضاً وبالمقابل, أن الأكثر شمولاً هو الأكثر عمقاً. لكنه لم يعد هو الشمول بالمعنى التقليدي والسكولواستيكي, إنه تجاوز هذا المعنى بعد استيعابه. ثمة ماركسية, كما هو معلوم, ألغت فردية الفرد, وثمة اتهام برجوازي لماركس بأنه في هذه الأطروحة خلق التباساً...

وثمة ماركسية ألغت «العلاقات الاجتماعية» باستعابها واحتوائها واستغراقها «مجموع العلاقات الاجتماعية» في «علاقات الانتاج» التي عي عي المقولة الملتبسة وبأسوأ معنى, فهي بين جملة أمور مقولة قامت لتلغي كلية فكرة العلاقة التي هي فكرة العقالة أو العقلي والتي هي فكرة الاجتماع البشري أو المجتمع البشري, أي لتلغي سلطان مقولة العلاقة: الشغل علاقة, الانتاج علاقة, أداة الانتاج علاقة, قوى الانتاج علاقة, أو, وهذا شكل آخر: الانتاج علاقة «إنسان ـ شغل» مع طبيعة و«إنسان شغل» هو ناس مع علاقات, شغل مع طابعه الاجتماعي كشغل,... أداة الانتاج وسيلة شغل, الكينونة الاجتماعية أي وجود البشر الاجتماعي هو تبادل وتبادلات تعامل. وتواصل

بين الناس في العالم الأعم. والانتاجية productivite هلة علاقة ونسبة وقسمة. والقيمة علاقة, القيمة تناسبات, انتسابات متبادلة.

مستوانا الأول في قضية الاختلاف هو إذن عن الايس والشيء. «هو»؟ الـ«هو» رابطة صريحة أو مضمورة في كل جملة اسمية. مجرداً, إنه «هو» بارمنيد وأفلاطون الخ, «هو» الفلسفة, و«هو» الدين, دين الإله الواحد, الله الواحد, الـ هو بلا غير, العالمي, المتعالي (الله تعالى(, يا هو يهوه, ال El, الأزلي الذي ليس له اسم مع موسى, فيلو الاسكندراني, الإنسلام, المسيحية, التصوف, الباطنية العظمى, ديكارت, سبينوزا, نيوتن, كنط, هيغل, لوثر, باخ,... الذي هو الحق, الذي «لا إله إلا هو», الذي «ليس كمثله شيء», الذي «لا يمكن أن يفهم» و«لا يمكن أن يعرف», والذي «يحكم العالم» أو «يسير العالم» gouverve العقل و«مكر العقل», الذي «لا تسير أغواره وسيله», لكنها مع ذلك تسبر في التاريخ به. لحن كبير, سمفونية متنوعة, التاريخ الفكري أيضاً تنويعة عظيمة على الأشكال. يوجد اسلام وتوجد مسيحية, بل بما أننا عدنا إلى فكرة الوجود العادية, وجود الدنيا, توجد مسيحيات وتوجد اسلامات وإسلاميات. يوجد كون ويوجد تاريخ ثمة إذن هو مقابل وجود, لكن الـ هو في الوجود أيضاً.

هو عال متعالٍ مفارق, ومحايث, ملازم, الـ هو رابطة الجملة الاسمية, الرابطة الصريحة أو الضمينة, المضمورة, الضميرية. الـ هو ضمير. والوجدان conscience يقابل الوجود, وهو الضمير والوعي, وجدان الاخلاق ووجدان العلم, والعقل العملي و«العقل المحض» (مصطلح كنت). بامنيد وسقراط وأفلاطون جردوا الـ«هو». أرسطو على هذا الاساس المحرز يعيده على الأرض, أرض محاكمة الدنيا: معرفتها كلياً, كأشياء في تعاقل الـ «هو», رابطة الحكم.

المطلق فوق النسبي أولاً, والمطلق في النسبي ثانياً.

المطلق حد على النسبي. ومن ليس عنده المطلق يحول نسبيه إلى مطلق, وهذا هو الاستبداد والارهاب, وهذه هي قصة البشرية في القرن العشرين, الله ناف للآلهة, خافض لآلهة البشر في التاريخ والسياسة: الله فوق الاصنام, وبالنسبة لنا نحن, شأننا شأن كل نحن, الله فوق أصنامنا.

الله ناف للعالم, لكنه خالق العالم أولاً.

والمعنى: الله خالق العالم, خالع العالم, إنه السلوب, هكذا العلم اكهارت, وهكذا هيغل, وهكذا غوته, وهكذا سبينوزا, وكوزا, وبرونو, وبوهم, ومسلسل متنوع من رجال وأفكار في الفكر العربي الإسلامي وفي الفكر المسيحي الغربي, على حد سواء, وفي غيرهما أيضاً... وحين أقول: في الفكر المسيحي الغربي, فأنا أقول في جملة ما أقول إنه يوجد شيء قبل «العقل الأوروبي الحديث والمعاصر, شيء قلما يكون لميشيل فوكو صلة به «شأن معه», لكن شأن غيره كبير, وأحياناً كبير جداً في الصراحة المعلنة: ارنست بلوخ, البرت اينشتاين, ماركس وهيغل وكنط ونيوتن وباسكال وسبينوزا وديكارت...

إذا سألتموني ألم يكن بلوخ وأينشتاين وماركس ملحدين, والعياذ بالله, أم هل كانوا مؤمنين, والعياذ بالله من جهة مقابلة أو من الجهتين معاً (جهة الشتيمة وجهة السخرية أو التهكم المتعالم الذي لا شأن له بسقراط وتهكم سقراط), فأنا جوابي: لا أعلم, لكنني أعرف أفكارهم جيداً, وجدياً جداً في الحيثية المعنية! وحين يقال لي أن سبينوزا وهيغل وماركس هم (حلولية», مذهب «وحدة الوجود», فأنا أقول: لا! لا! بل, من أجل السهولة على الأقل, قولوا: حلولية لكن مع النفي! وهذا المذهب, مذهبهم, ليس عقيدة فوقية, معزولة, ليست تصوراً للعالم وجودياً وشرقياً, بل هو مذهب, هو طريقة ذهاب إلى الواقع, طريقة معرفة واكتشاف طريقة محاكمة محقة, طريقة فكر, هي هي العقل.

مرة أخرى, أنا أعارض حسن حنفي ومحمد عابد الجابري وندوتكم, ليس فيها العقل والتاريخ. فيها قطع من العقل والتاريخ, قليلة, متناثرة, متبددة. أنا مثلاً يهمني كرجل مفكر إذن كرجل طالب للمعرفة, أن أدرك في تراثنا العربي, في ميراث الحضارة العربية الإسلامية, عناصر وبذور قضية العقل والمغايرة والتاريخ, مسألة الكون والتغاير والتغير مع الإنسان وصناعته, إذن بالتالي, فكرة التقدم والتطور والصعود أقرأ مرة أخرى, أوراق الدعوة, برنامج الندوة, لا سيما الجلسة الثالثة «العقلانية العربية والتاريخ والتراث والدين», لكن, وتحت هذا العنوان ذاته الذي يقول «تاريخ»

و«دين», لا أجد ذلك, لا أجد طلبي وعطشي, أجد ربما شيئاً أكاديمياً, لكنني أشك أنه من نوع «الأكاديمي» المقبول في عوالم أخرى. حين المعرفة تريد أن تبقى في المعرفة لا غير, والعلم لا غير, فهي حتماً تقصر كمعرفة كعلم, وتقصر لا في النتيجة والمآل بل في المبدأ. ثمة روح, للإنسان, والنظر النظري الحق شكله المغرب القادر على توجيه الناس, اثارة المسائل الروحية والفكرية, وتأسيس الوعي البشري في الراهن, تأسيس مجتمع سياسي وجماهير مكافحة. أن الموضوع, أن القضية, في هذه الندوة, هي كحاصل في الراهن, هي العقل والمغايرة والتاريخ. يجب مواصلة عمل هذه الندوة بعد انتهائها في اتجاه اقامة «العقل والمغايرة والتاريخ», كنظرية, كطريقة تفكير, كمذهب روحي وفكري. لامة العرب الآن. وإنني بكل تأكيد لست إزاء كم سوى أخ لكم, يتعلم منكم, ويتعلم الكثير من علومكن واهتماماتكم, ويكن لكم الاحترام والحب...

ولما يؤسفني بالتأكيد أنني اضطررت وأنا مضطر على ترك مسائل كثيرة. ولاسيما مسائل اللاهوت مع السياسة, إذن الكون والانسان والتاريخ, بما في ذلك الاختلاف والخلاف بين الاسلام والمسيحية واليهودية أيضاً, أو لنقل أيضاً بين عدة اتجاهات في «إسلام ابراهيم» عبر التاريخ كروح وكطريقة تفكير عند البشر, الهوية الفوقية, عند الإنسان الهوية الاختلافية والخلافية. ثمة فرق بين الاحد الأزلي الذي لا يسمى اليهودي الموسوي, والله الواحد الأحد الإسلامي مع الكتاب وخاتم النبوة وعيسى بن مريم المسيح كلمة الله, والثالوث المسيحي.

ألاحظ أو ألحظ بلا أي توقف أن يوحنا فيلوبونوس أي يحيى النحوي عند الإسلاميين لم يكن في الثالوثية بل جنح نحو الثلاثية, نحو مذهب ثلاثة آلهة يدعى في تاريخ المسيحية بالفرنسية tritheisme بخلاف «trinite» (ثالوث) التي تؤشر في نهاية اللفظ على الوحدة (unite), مثلما أبيلار وآخرون كثيرون جنحوا بالعكس نحو الواحدية اللاثالوثية unitarisme أي الواحدية نافية الثالوث, فاتهموا أو انهم بعضهم بالاسلامية (ولا ريب أن بعهم تعاطف فعلاً مع الاسلام وموقفه وعقيدته. ولا أقصد فريديريك هو هنشتوفن أو نابليون, رغم صواب ذلك على الأقل بمعنى ما, بل أقصد فلاسفة). أما سبينوزا المتهم بالزندقة وبالالحاد, فقد أخذ عليه عند إخراجه من الكنيس (الجماعة اليهودية) تعاطفه مع المسيح المسيحيين, وفي وقت لاحق, حدث أن ألقى بعض الناس عليه شبهة إسلامية (أوروبا اطلعت على مكانة وتميز المسيح في القرآن وعلى حضوره في تاريخ الاسلام عند صاحب «الفتوحات المكية» أو عند الحلاج المصول وفي الوسط الشعبي عموماً).

هذا كله يحتاج إلى تدقيق وتصحيح وإلى إنماء وبسط. فهو ليس في الحاص, سوى شذرات. وهو لا يفي بالمطلوب. تركت مسألة «عقيدة الخطيئة الأصلية» وفكرة «النفس الامارة بالسوء», مسألة الشر في الدنيا, مسألة الحرام والحلال, والخطيئة, مسألة القضاء والقدر أو الجبرية والخيار والعقل, مسألة أوغسطين وبيلاج, اللاتينية واليونانية, الغربية والشرقية, في الكنيسة ككنيستين وكنائس, والمعاودة الإسالمية للقضية ذاتها, رغم الفرق الذي يجب أن يعرف, ... وصولاً إلى الأرثوذكسية الروسية والأدب الروسي (جوستوفيسكي, فكرة الشر كمركز, والمبدأ الشخصي «ضد» خلية «النحل», دوستوفيسكي ضد تولستوي). أذكر فقط تثمين هيغل لعقيدة «الخطيئة الأصلية» المسيحية, (فهي حسب رأيه, أساس الجهاد وأساس الحرية) بخلاف وبعكس تهكم ديدرو ورجال عصر الأنوار الفرنسي أو بعضهم... من الهام أن يكون محمد اقبال قد ثمن هذه العقيدة. لكن لعله موقف نادر في عالم المسلمين لا سيما العرب, ولا سيما إسلام عصر النهضة العربي, المأخوذ في مناخ الوضاعانية والعلموية تحت أسماء الايجابية والاواقعية والعلم مع العمل ـ الفتح, في موقف يختلط فيه الصواب والخطأ الحق والباطل, طلعات رائعة فكرية مذهلة أحياناً, وعدم متابعة رجل من الرجال لشيء حاسم اهتدى إليه في لحظة نور وبداهة, في لحظة ضمير وذكاء. قصدت على سبيل المثال: رشيد رضا, محمد عبده, الافغاني.. أنا أعتقد أن المناخ الوضعاني أو الايجابوي, الاوروبي المتفائل, أساء بشكل خاص لاساميي النهضة (الذين هم الأهم! وهم البؤرة, البؤرة الكبيرة, المشعة, المركزة والدائرة نفسها بمركزها), ثمة هنا مفارقات ومفارقات. هي أمور فائقة الجدوى إذا نظرنا إليها جدياً...

هناك ثلاثة مواقف ممكنة للإنسان ازاء الوجود أو العالم أو الحياة. مواقف روحية, فكرية, ذهنية, نظرية, وعملية جداً بالنسبة للجماعات, للأمم!.

حسب كثير من الناس (بعضهم في الشعب العام, وبعضهم في العلم الاكاديمي الناظر إلى الدنيا والشعوب), يوجد موقفان فقط:

إما القبول وإما الرفض. والرفض هو النفي. والقبول ايجاب. إيجابية, واقعية, معرفة, علم, جدوى الخ.

بالحقيقة, هذا ملتبس, خالط, وقاصر بالمبدأ.

لا يمكن أن أضم هيغل أو آدم سميت أو كارل ماركس أو لينين أو توماس مور أو جان جالك روسو أو باسكال لا للقبول ولا للرفض, كذلك جميع الرواد بلا استثناء, جميع الفاتحين, جميع الذين هم, في ميادينهم المختلفة, ميادين الروح والفكر والعمل, إذن التاريخ بسط للرمز الكبير: آدم والفتح.

توجد ثلاثة مواقف ممكنة وموجودة فعلاً:

1- نفي العالم وحسب, نفيه السلبي. العالم شر ولا يمكن اصلاحه أو تحسينه. الكون شر وعنف. الشر حقيقة كوسمية. لنقل: الموقف البوذي ولنحي البوذية مورة أخرى..

2- قبول الدنيا, قبول العالم, متابعة الناس لحياتهم مع انتاجهم للزوق, بلا سؤال ولا «تلبيك» أو إرباك ولا فلسفة. والناس يمكن أن تأخذ وهي تأخذ الموقف السابق أيضاً. نقبل الدنيا مع معرفتنا أن الدنيا فانية, كل ما عليها فان, الدنيا وادي الدموع, الحياة يوم... توجد آخرة, يوجد دين, واخلاق وتقوى وفضيلة. لكن الدنيا دنيا, ونحن قابلون لها, حتى وإن لم نكن راضين تماماً وبالضرورة, نحن نقبل الدنيا والعمل وإنتاج الرزق, ولا ريب أن هذا الموقف هو موقف تسعة أعشار البشر في تاريخ جميع الحضارات بلا استثناء. وإن الأديان المختلفة الصائرة ايديولجيات للشعوب إنما تضفي ألواناً وظلالاً مختلفة ومتنوعة حسب اختلاف الحالات على هذا القاع العام. البشرية بشرية, سواء كانت فوقها وداخلها طاووئية أو بوذية أو براهمانية أو كونفوشية أو مزدائية أو مسيحية وإسلام ويهودية... أن الموقف الثاني هو الايجابية مهما تكن الاضافات.

- النفي الإيجابي للعالم.

وفي رأيي, أن هذا الموقف حمله «دين الإله الواحد», وهو الذي يحمل فكرة التاريخ والتقدم. صحيح أن المزدائية مذهب متفائل ودعوة عملية واخلاقية عامة و«فتحاوية» بخلاف البوذية والشرق الكبير, لكن المثنوية تلغم وتنسف ذلك من المبدأ. والفضيلة تصير نسكاً هو «نسك العجم» كما لاحظ فقهاء المسلمين. لكنهم لم يلاحظوا أن هذه الدعوة الطهرانية (الحنبلية كما يقال) التي لا تهادن, والتي حملها كهنة أعورا مزدا (سدنة النار والطهر), كانت تمنع وتحبط أي اصلاح (والاصلاح يأتي من فوق)... وبالتالي, فأن الهم التاريخي, بما فيه الشغل التأريخي وصولاً إلى التاريخ كعلم, لم يميز بتاتاً ثقافة الصين مثلاً, رغم الطابع الاجتماعي والاخلاقي للكونفوشية بالذات والطابع الاخلاقي العام للبوذية (ثمة إذن فرق في المنشأ الذهني والروحي بين فكرة «الاجتماعي» وفكرة «التاريخي». (ميز اليونان, لكن التصور اليوناني للتاريخ لم يرخرج التصور الدوراني, شأنه شأن جميع التصورات الشرقية من قبله... واضح بما فيه الكفاية أن التاريخية الصعودية والتطورية لها مصدر آخر غير الفلسفة اليونانية وغير العقل اليوناني هذا المصدر هو دين الإله الواحد.

لكن الثقافة اليهودية هي أيضاً لم تلمع بالتاريخ وكتابته وعلمه, رغم لمعانها بالفلسفة والتصورف, ورغم التوراة ويوسيفوس, وذلك بسبب العزلة, العزل والانعزال, وبسبب فكرة «شعب الله المختار» المفوتة, القومية - النسلية.

التاريخية تلمع وبرز عند المسلمين, أي في عملهم الفكري والثقافي كهم حقيقي, يرتبط بالنبي والسيرة وسيرة البداية, وبسيرة البداية عند آدم مع التسلسل النسلي, البشري, مع هم قومي عربي وقرشي الخ. وهذا كله طبيعي تماماً, وهو حامل للتاريخية, بوصفها تعاقباً وتوالياً وزمانية بالمعنى العادي... وصولاً إلى عملية ابن خلدون.

هنا, مع ابن خلدون, نتخطى الخطية السابقة باعتبارها متوالية نسلية وسرداً لحقب سياسية حكومية, لدول دالت وتعاقبت, لأسر مالكة... بهذا المعنى يمكن القول إن ابن خلدون يدشن فكرة تشكل وتكون لواقع اجتماعي, يدشن معقولية تاريخ, هو عمران وطبائع عمران ونحلة من المعاش, هو جغرافية وانتاج واقتصاد. لكنه, تحت سلطة دولان الدول وعبورها, يبقى في آخر تحليل أو نوعاً ما يعود إلى التصور الدوراني للتاريخ. مع أن همه السياسي بالمعنى الكبير هو بالعكس: همه هو بلوغ دولة استقرار تكون قاعدة ثابتة لنمو يتراكم بلا انتكاس جوهري, وذلك ضد حالة المغرب التي يشخصها, أي يحللها ويفهمها ويمفهمها...

في الغرب, في أوروبا الغربية, أن التاريخية الصعودية لها أعلام متنوعة, عناصر كثيرة: التصوف وكوزا (مع فكرة «التقدم اللامتناهي» والعلم الرياضيو وفكرة وحدة الاستقامية والاغنائية...), ديكارت وبيكون (فكرة الفتح وفكرة التقنية), باسكال وقابلية الإنسان للتحسن (علم النحلة كامل, علم الإنسان ناقص, وهذا هو تفوق الإنسان على النحلة!) سبينوزا ولايبنتس (سبينوزا النفي وسبينوزا الفعل الإنساني),... كوندورسيه وهيغل... بل هيغل وكونت, كخيارين متعارضين مذهب أوغست كونت خطية بلا دارية إيجابية ضد النفي, كره للمجردات, علمية بلا الفلسفة...

ومما لا شك فيه إن التصوف الإلماني كان هو التمهيد الكبير للديالكتيك الألماني الحديث!

ومما لا شك فيه أن المدشن لهذا الخط الغربي جداً, البعيد عن المسيحية الشرقية, هو أوغسطين البربري الذي حمل الأنا والايدوس الأفلاطوني وفكرة الخلاص المسيحية والذي أعلن بقوة عن زمانية خطية غير دورانية, قوامها قبل وبعد, بعد هو غير القبل...

وهذه مسألة كبيرة تذهب إلى هيغل وآينشتاين باعتبار أنهما أيضاً حد على هذه القضية, بل حد يرد الاعتبار بمعنى ما لفلسفة الهند والشرق. هيغل يأخذ الزمانية في الكون. نافياً الثنائية الكنطية للمكان والزمان, موسعاً معنى السببية الجديد خارج التعاقبية الزمانية المحض جاعلاً السببية أو العقل أو العقل أو الضرورة قواماً للكون المكاني الذي الزمان بُعدٌ له. ونظرية النسبية (آينشتاين) هي عملية توحيد جبارة للكون ـ الفيزياء, عملية تعلم أنه ثمة حد تسقط بعده فكرة «القبل والبعد», ثمة حد وراءه لا يصح أن نقول أولاً معنى لأن نقول «قبل» و«بعد» لا معنى للزمانية المعلومة. هكذا الفيزياء, علم الكون ـ الشيء ـ الفزيس ـ الطبيعة إن شئتم, لكن بالمعنى لا أقول الأكبر بل فقط الأكثر أساسية, الأكثر مادية ـ رياضية, أو الأكثر هندسة وميكانيكا وأن العلم الأكثر عصرية في الفيزياء يحيي ويثمن بعض فلسفات الهند القديمة. وقد يكون الشيخ الهندي أقدر مني ومنك على فهم آينشتاين.

ولا ريب أن لينين لم يفهمه بتاتاً, ولم يجمع, في سنة 1922 مثلاً (سنة المقال الهام والعظيم: «عن دورة الماديانية المُكافحة», علماء فيزياء وفلاسفة, ليقول لهم: عالجوا موضوع هذه النظرية النسبية, ثم قولوا لي ما رأيكم, ما المعنى, ما الحقيقة؟ هل المكان والزمان واحدً أيضاً, مع أنهما اثنان, كما نعرف ونعيش, كما نعلم ونعمل؟ إذ أن لينين أثنى على آينشتاين, أي وصفه بأنه عالم طبيعيات كبير, وامته عن ابداء أي رأي في الموضوع (القصة, المسألة: نظرية النسبية), بل أشار إلى أن الرجعية والمثالية نحاولان استغلال العالم..

يبقى, رجوعاً إلى الإنسان والتاريخ, يبقى أن لا تاريخ بدون الزمانية الخطية, التي هي بمعنى ما تقليد لعملية الخلق الإلهي التوراتية, العملية القائمة على الفصل وعلى التعاقب والتوالي والصعود بلا انتكاس وبلا آلهة وسيطة (بخلاف نظرية الخلق البابلية مثلاً ـ في إطار الشرق الأدنى. الواحد, مع المغاير والتاريخ) ومع استحسان الخالق للكون المخلوق في كل دفعة أو يوم, مع عملية التزيين بعد عملية الفصل, وصولاً إلى الإنسان مع استحسان مضاعف... لا تاريخ بدون فكرة أن البعد غير القبل, إذن لا تاريخية في العقل والوجود البشريين بدون فكرة «الجديد» يوجد جديد هو غير القديم, المادة واحدة. لكن الكون غير المادة. والمادة المادة عدم. قيام الوجود, تراجع العدم: جعاد الإنسان, سعيه وعمله وفتحه. الله خلق العالم من العدم. الله يخلق الإنسان, يصنع, يشكل مواد. وفويرباخ يقلب العلاقة: الإنسان يصنع شيئاً من شيء, الله يخلق شيئاً من العدم, أو الله خلق كوناً من العدم, ولا أدري ما إذا كان فويرباخ مطلعاً على تخريجة مسيحية وسطوية (هل هي قبل ذلك شرقية

وإسلامية؟) فائقة الذكاء والجدوى: «الله خلق العالم من العدم» = العدم مادة في الكون, جزء من مواده. وإذا توقف جهاد البشر ضد العدم, نما العدم وانتصر العدم: عدم وجود, عدم زراعة, عدم قانون, عدم مجتمع سياسي, عدم كرامة. فالعدم عدم معين, إنه في الوجود عدم شيء ما, يقول هيغل. يبقى أن فويرباخ واحزاب أوروبا متفقة ومجمعة مبدئياً في قيادة المجتمع (المجتمع له قيادة, وأوروبا تطيع «أولي الأمر») على أن: «كن فكان» هكذا الخالق, لا أنتم ونحن وهم وهن. «كن فيكون» هكذا الله أي ليس نحن البشر وأحزابهم. وأي هي إذن. إذن الرياضية. ولن أعود هنا إلى سيرة الثورة الروسية الوبلاشفة الروس, ولا إلى «الثوار» العرب المتنوعين.

المطلق حد على النسبي. والمطلق حد في النسبي. المطلق عنصر الفلسفة, يقول هيغل, العنصر الذي فيه ومنه وبه تعيش الفلسفة, مثلما الماء عنصر السمك. لكنالشيء (الفلسفة أو السمك) غير عنصره أيضاً, و«أكبر» من عنصره. المطلق عنصر فلسفة هيغل بشكل خاص. وهي أعظم فلسفة «في» التاريخ. العقل تاريخ, مع الإنسان والكون. العالم عقل وذات وحياة.

«إما المطلق وإما النسبي, ونحن مع النسبي, نحن مع الواقع ومع العلم» بل ومع «الفكر والعقل واللوغوس» ومع العقل الأوروبي الحديث والمعاصر... إن بعضناً أيها الأخوة يضيف عمله وعلمه إلى الموقف الثاني الذي تكلم عته: موقف قبول الدنيا مع سعي إلى تحديثها, عفواً! مع سعي إلى تحديث الأمة, إلى تحديث دنيا العرب وثقافة العرب, مع سعي إلى التحسين لكن في شكل تحديث, لا مسألة التأسيس.

لنكن أكثر جدية أو أقل تواضعاً أن شئتم! ثمة تواضع وتواضع, وثمة كبرياء وكبرياء, بصرف النظر عن التنويعات اللغوية اللفظية... إن حامل الفكر اليوناني كعقل, والفكر الأوروبي الحديث كعقل هو الفلسفة, فلسفة الفكر او العقل أو الكلام النافية للرأي (الحقيقة ضد الرأي, ديموقراط والفلسفة اليونانية, جميعاً) والمفروزة عن الدنيوي والعملي, والمنفعة وما شابه من أجل المعرفة والعمل والجدوى...

وأن هذه الفلسفة درأت, بجهادها الدائم, مطلب «إما المطلق وإما النسبي» في شكليه النقيضين: 1) المطلق طارد للنسبي, ماسحاً له. 2) والنسبي كتنفياً بذاته, طارد المطلق, الشكل الأول محال وبما أنه محال فهو عملياً وموضوعياً يحيل الدنيا, ويكمل الشكل الثاني. من حين إلى حين, قد يتظاهر خالصاً نقياً في انفجار ثورة. تسعة اعشار الثورات في تاريخ الشرق والغرب والجنوب والشمال, بدءاً من امبراطورية السماء (الصين) ومن مصر القديمة, نتعت إلى الفشل. قيامها طبيعي ومحتوم, وفشلها طبيعي ومحتوم...

إن الفلسفة كمنشأ وكنسخ أقامت موقف «المطلق أساس للنسبي» و«الله أساساً للعالم» بلغة الدين, لكن نجدها عند هيغل مثلاً, نجدها في الفلسفة, وأن كانت الفلسفة بحكم طبيعتها وبحكم لغتها, لغة المفاهيم, تحجم مبدئياً عن لغة الدين. وإذا فتحنا كتاب كوفيلييه المدرسي لصف الباكالوريا الفرنسية (الكتاب الذي في حوزتي عمره ربع قرن) وجدنا فيه, الله ومسألة وجود الله, بل كفصل ختامي, يختم مجموع مسألة المعرفة أو مفصلة المعرفة. الله لا نجده في كتاب علم الفيزياء ولا البيولوجيا بل ولا في كتاب علم الفلك. حتى إذا كان من تأليف رجال دين كاثوليك للمدارس الكاثوليكية, وعندي كتاب من هذا النوع عمره سبعون عاماً, بالحقيقة إنه ينتهي بطريقة من مزمور: «لنقل صاحب المزامير...» كلن القول باللاتينية ومعناه: كل في فلكه يسبحون أو النجوم والأفلاك تسبحه وتغني مجده... ولك الذي سبق: أي الفصول والفصل الختامي والمقدمة, عقلانية رياضية انضباطية صارمة ودقيقة, وتعليمية جداً! ذهننا بالعكس. لن تجد «الله» في ندواتنا افكرية والعلمية العلية (بخلاف ندوات مع بلوخ وغيره), تجده في الحياة على الطالع والنازل كاسم بلا معنى حقيقي, كنوع من شيء, تجده في الخطاب التعليمي المدرسي. وفي التعليم العالي لصف الباكالوريا طردنا الميتافيزيقا, في بعض البلدان على الأقل أو في معظم البلدان...

المطلق أساس للنسبي! هكذا بدأت الفلسفة, في اليونان, والنسبي يكون أرسطو مثلاً (الكون, الصير, الحقيقة وأرسطو يمثل على هذه الركيزة علمنة الحقيقة). وهكذا بدأت الفلسفة ثانية في أوروبا. والبداية قرون والبداية الحقة راهن دائم. هذا أول شيء وأكبر شيء يجب أن ندركه, أن

ندرسه, أن نفهمه, بالنسبة لليونان ولأوروبا الحديثة على حد سواء, من أجل ذاتنا وراهننا. نحن في اللووس, في اللغة شئنا أو أبينا وإن الأحدث هو الأقرب إلى البدايية. الشيخ الهندي ذو اللحية الطويلة قد يفهم آينشتاين أكثر منا. لكن أيضاً لأن شعب العلم والتصميم في اليابان قد (!) يكون أقدر منا على استيعاب هايزنبرغ ونيلس بوهر وعلى فهم معنى العملية أو العمليات الفيثاغورية والطاليسية والديموقريطية والاقليدية والبروتوغراسية والسقراطية... وهم بالتأكيد أكثر منا في الوجود! فالوجود هو هذا القلم وهذه الورقة مثلاً! وجودنا نحن منتج نتاج. ليس نتاج فعل حب وجودي وبيلوجي فقط بل نتاج كل ما نستهلكه يومياً من طعام.

ليس من جوهر أخير. الاختلاف قوام الوجود. الفكر, فكرنا, ازاءه من أجل معرفته, معرفة الوجود ـ الاختلاف. باعتبار أن الوجود. بلا الاختلاف هو فكر وليس سوى فكر. هوية كاملة مطلقة. هوة هوية. الوجود وأكثر من ذلك. هويته, وحدته, مضمونه في الكلمة نفسها, المصطلح المفرد: وجود.

الاختلاف قوام الوجود. حرب الهوي ضد الاختلاف حرب ضد الوجود. حرب نوع من المثالية ساقط ضد الواقع, موقف استبداد وإرهاب وعدم...

إن انتصار ستالين على «بوخارين وريكوف وتوتسكي... وفودجاييف وإكراموف» هو انتصار «الفكر على الواقع», «الدولة» على المجتمع, الهوية على الاختلاف, القيادة على الحزب والدولة, الفرد على الناس, والسماء على الأرض. الذين سقطو في سنة 1928 هم رموز ذات دلالات على الواقع المتوع: روسيا والفلاح والإنسانية, الاقتصاد وفكرة الدولة, الطبقة العاملة والنقابات, والشرق المغتير لعالم الماركسية الكلاسيكي.

كذلك في فيتنام بعد رحيل هوشي منه واختفاء جبله المناضل العاقل والعارف لا حوال الناس والدنيا الخارجي «جباب», (فام فان دونغ), بدءاً من سنة 1977, كذلك اليمن الجنوبي وافغانستان وغير ذلك...

سواء قالوا: «الهوية» أو لم يقولوا! لا فرق في ذلك, ولا مبالاة, سيان. هكذا يقول الفكر, هكذا تقول اللغة, هكذا يقول لوغوس الهوية الصحيح, الواعي لمقولة الهوية. لم يقولوا الهوية؟ ماذا قالوا: الحزب, الثورة, اليسار, علم الثورة, الطبقة الطبقية؟ إذن بالضبط قالوا: الهوية, الهوية طاردة الاختلاف, الوحدة طاردة الكثرة, إلهاً في الأرض, مادياً يحذف المواد والأشكال, يحيل المجتمع إلى مادة. لن أذهب في نقدي إلى بلاد عربية تقدمية وثورية, غير ماركسية. ما قلته عن «الهوية» هذه كاف ونيف. وهي ـ البلاد المذكورة ـ دون «اليمن الديمقراطي» في تجربة «الهوية» هذه أو مأساتها. و«الهوية» الكلمة الصائتة صائتة أكثر خارج دائرة الماركسية ومآسي الماركسيين, كما هو معلوم!.

والقاسم المشترك الذي هو «هوية» معلوم: فهي جميعاً ثورات, على حد سواء. كلها تقول «ثورة», وبعض ألفاظ أخرى مشتركة هي أيضاً وبالتالي هويات! «لا يوجد في اللغة سوى الكلي», يقول فويرباخ ولينين جامع الملف. كل الكلمات الخارجة من فم بني آدم هويات: ثورة, جماهير نضال ضد الامبريالية, شيء, وجودو بل أيضاً اختلاف. اختلاف, المقولة اختلاف هي هوية الاختلافات, تهاوي الاختلافات المختلفة, كلمة أولية تؤشر على الوجود الذي خارج الرأس والمميز عن الفكر ولغته بوصفه هو اختلاف. ودرءاً لهذا التهاوي ولهذا الخلط والالتباس, قلنا بمبدأ دعوناه اختلاف الاختلاف, كتأسيس واجب للعمل المقولي, العادي والعلمي...

إن مقولة الاختلاف, أي تأكيد اختلاف الوجود هي جزء أولي وبسيط و«عادي» في التصور الديمقراطي للعالم والسياسة, ميدان مصائر الناس مع التاريخ. ثمة تصور ديمقراطي, الديمقراطية فلسفة, مذهب نظر, طريقة فكر, احترام للواقع, للمجتمع, للناس, لفهم الناس وعقلهم ولمذاهبهم. هذا الاحترام شرط المعرفة, والمعرفة شرط النقد والتغيير. بالنسبة لهي, كل الواقع, العالم كله, يجب تغييره. نفي العالم ليس معناه إن هذا العالم غير مستحق, وانتهى الأمر, بل معناه أن العالم مستحق, مستحق كله أن يغير كله: أنه النفي الإيجابي للعالم. العالم يجب أن يعرف لكي يغير.

والعالم اختلاف بدءاً من الوجود الأدنى.

شيء أمامي, إذن هو مختلف عن كل شيء آخر. كل الأشياء منخالفة.

جماعة, حبات الرمل, جماعة السجائر, كتلة كتيلات خارج الرأس, صخرة مفردة بوصفها كلاً من «ذرات» أمامنا. العلم يخضع «شعب السجائر» للمعرفة القانونية, ويحلل الجسم, ويحلل الذرة.

والعلم يدرك الأنواع الحية, يدرك الحياة كأحياء كائنة, ذات نظام وذات تطور. فكرة الأنوا والفصائل والمراتب والممالك هي فكرة نظام متراتب, وفكرة النظام المتراتب هذه متوائمة مع فكرة تطور الأنواع وأصول الأنواع ونشوئها وارتقائها على سمل صاعد ومتعدد. الفكرة الأولى أسبق (أرسطو) لكن «أرهاص» الثانية يلازمها. الديالكتيك مذهب عقل وتطور. وهو موقف قديم, نوع من خط له محطات معروفة أو مجهولة, ويعارض موقف آخر, هو موقف «التقدم انحدار والمعرفة تذكر» (أفلاطون) وثنائي. «الكون والفساد». وهذا الكلام ليس باطلاً بالمطلق. الكائن يهرم, الأنواع تضمحل وتنقرض, الدول والأمم والشعوب ترحل... لكن الموقف الآخر, الحديث, يبرز أن كون الكائن آتٍ من تكون, وبيرز خصوصية الإنسان وإنتاجه لعالمه وترقيه. يجب أن لا ننسى أن المغايرة انفساد, فساد شيء ما, وانتهائه وانتقائه أو نفيه الفعلي. وكلمة alteration تفيد جيداً هذا المعنى: تغير, تزيف, فساد, مصدرها alter, autre أي غير, آخر... أن التاريخ كتغير وتحول وكتقدم وارتقاء لا تحمله فكرة التناقض ولا فكرة التعارض, بل على وجه التحديد فكرة النفي: ثمة شيء ينفي وينتفي... هكذا تاريخ الإنسان وتاريخ الطبيعة (الحياة والأرض), في عرض إنجلز لموضوعة نفي النفي. «ونفي النفي» تحمل من الجهة الأخرى فكرة «تركيب». لا تاريخ تقدمي لا تركيب. بلا التركيب, نحن نبقى عند اليين واليانغ أو عند أهورا مزدا وأهريمان. في حركة نواس مع الأزلية... الثنائيات المفهومية تتحول إلى مثنوية وجودية, صراعية كوسمية فنائية.

إذن نظام وتطور. هكذا عالم الحياة والأنواع الحية. لكن الحياة هي بالضبط. بوصفها سيرورة أو عملية, أي بوصفها تاريخ نشوء وتكون وتشكل, عملية فردنة وجملنة, globalization وindividuation لنقل نمو لطابع «الكائن» في حيثية أنه كل ومفرد, جملة فردية. هذا ما يميز «الكائن الحي» عن «الكائن الشيء».

إذا قطعت هذا القلم في منتصفه يصير معي قلمان اثنان, إذا قطعت حطبة كبيرة يصير معي ثلاث حطبات صغيرة. بل أستطيع أن أقطع أصاناً من الشجرة الحية... الأمر يختلف إذا قطعتها عند جذعها. وهناك كائنات حيوانية دنيا تقبل القسمة. الحياة عملية تجملن وتفردن متزايدة, متنامية. إذا فطعت النملة لن أحصل على نملتين ولا على نصفي ـ نملة بل فقط قطعتين من اللحم والمواد المختلفة. والإنسان ذروة العملية المذكورة...

والذكاء عملية «تجملن», بالنسبة للتعليم والتربية والتدريس والمدرسة. هذه الفكرة غائبة عندنا, أو ضعيفة. آباء ميسورون من خارج ميدان التعليم أرسلوا أولادهم لهم إلى مدرة أجنبية في الخارج, بعد سنوات هنا, أو لهم أولاد هنا وهناك قالوا لي ببساطة فورية: الذكاء جملنة globalization, وأن أبني لا يشكو بتاتاً من الصعوبة, بالعكس, الصعوبة هي التناثر, هي الجهد غير المنتج, هي التفاهات... لنقل أيضاً: الصعوبة للتلميذ ولكل الأمور آتية من موقف خال من الكلي ومن الكل لكنه بعد ذلك يريد ملاحقة المواد وشمول الاشياء بالمفرق. تقام ضد تجارة الجملة تجارة المفرق أو حجارة «التجزئة» كما يقال الآن... هذا الذكاء الملاحق لأحدث الأشياء والمواد والتقنيات, بالمفرق, على خط «اللانهاية السيئة» (1. 2. 3. 4. 5,...) ليس ذكاء الحياة, ولا ذكاء الإنسان! إنه ذكاء ساقط. إنه لا يتعامل مع فكرة الكون والعقل.

الحياة تفردن. والإنسان ذروة التفردن بوصفه جملة.

أن قضية المغايرة في مستوى البشر ترتكز على ذلك. فكرة الفرد البشري الكائن تاماً, الإنسان, كل إنسان, ينتمي إلى فئات عديدة من أنواخ مختلفة. أحياناً ينتمي إلى فئتين من نوع واحد أو كيف واحد. إلى مهنتين, إلى ثلاث لغات, إلى دينين أو ثلاثة أو أربعة, إلى عرقين أو لونين أو ثلاثة عروق... وهكذا تتعدد «الطوائف», تتشكل الفئات أو الزمر الاجتماعية, في الحرية والعق.

في أمريكا يوجد رجال ونساء تجري في «عروقهم» دماء الأبيض والأسود والأصفر (الهنود الحمر) بنسب معلومة, متفاوتة, وتوجد في اللغة الاسبانية الامريكية تسميات ـ مصطلحات لهذه

«الطوائف الدموية» المختلفة, ربما ستة عشر مقولة عرقية نسلية أو نسبية, «أعلاها كقيمة عند بعض شعوب جبال الأنديس والمكسيك المقولة التي تدل على القسمة العادلة $\frac{1}{2}$ و $\frac{1}{2}$ و $\frac{1}{2}$! هكذا النسب هناك, والفخر.

وإذا كان الألمان والبولونيون وخاصة اليابانيون يمكن أن يعتزوا بنقائهم العرقي أو السلالي, فنحن لحسن حظنا لسنا تحت هذا الإغواء. اعتقد أننا في هذه الحيثية نعرف تنوعنا واختلافنا من الخليج إلى المحيط ومن طوروس إلى السودان وموريتانيا. علماً بأن الأمم والقوميات تختلف فعلاً في درجة التخالس. ثمة فرق أكيد, هنا, بين الألماني والبولوني من جهة والإيطالي والفرنسي والأمريكي والانكليزي والبلغاري والعربي والبرازيلي الخ من جهة ثانية. ومن المعروف أن الأفغان مثلاً «شعوب» قلما تتخالط. كذلك شعوب شرقية وجنوبية كثيرة ومنغلقة داخلياً في التجزؤ الداخلي, لأسباب ليست بالضرورة من مملكة المذهب الديني. لنقل أنها شعوب متقطعة داخلياً. إنها نتاج التاريخ لكن التاريخ الطويل حجرّها, وهجرها, فتصورت نفسها طبيعة طبيعية!! ونحن لسنا تحت إغواء العراقة العرقية النسلية, لكننا تحت إغواء نوع من عراقة روحية مفوتة تماماً, ولا أتكلم عن العاقة العائلية الذكورية, وعن تضافر العراقتين...

اليابان شنتوتية ـ بوذية, وانفتحت بقوة للمسيحية والإسلام, وكأنها تطلبُ وتنشد المغايرة والتعدد. اليابان شنتوية ـ بوذية وفيها الآن 320 طائفة دينية. كان العدد الذي وجدته في كتاب صادر قبل عشر سنوات لا يزيد كثيراً عن المئة. لكن صديقاً لي عائداً من اليابان صحح لي الرقم. حركة تشكل المذاهب حركة يومية. في بيت واحد تجد بوذياً ومسيحياً ومسلماً ودين لي, أربعة أخوة تحت سقف واحد إذا لم يكونوا متزوجين.. إحدى الطوائف انتحرت «22 شخصاً» مع رئيسها احتجاجاً على كذا أو ايماناً بكذا... إذن لنتحول عن اليابان فنحن ضد الانتحار, لكن لنأخذ (!) التقنولوجيا والعلم التقنولوجي, ولنأخذه بدون أي شيء حقيقي في اليابان, ومثلاً بدون تعليم السولفيج والموسيقى لكل الناس في المدرسة, لكل شعب اليابان, وبدون الانفتاح على الدنيا التي هي غير اليابان, بدون الحرية والعقل, بدون الفكر والرياضة الفكرية... هذا هو المحال.

من جبال الآنديس إلى اليابان مروراً بالعالم الأوروبي والعالم السوفياتي, هكذا الدنيا, وهكذا المخاض. هكذا المغايرة مع الديمقراطية والتاريخ.

إن اجتماعية الإنسان ليست طبيعة أصليو في الإنسان. بل هي فتح تاريخي جهادي على الذات. ليست اجتماع الإنسان امتداداً لمجتمع إنساني أصلي طبيعي لا وجود له. بخلاف وبعكس مجتمعات النحل والنمل وبعض أنواع الحيوان, إن مجتمع الإنسان صناعة تاريخية.

البشرية الأولى تميزت بقتل الإنسان للإنسان وأكله. هذه ظاهرة عامة على حقيقتها يجمع العلماء. وأن الانتقال من افتراس الإنسان للإنسان إلي أسره وتشغيله واستعباده كان انطلاق التاريخ... والتاريخ تاريخ الشغل مع العبودية. تاريخ الشغل العبدي, الرق والقنانة, وصولاً إلى العمل الحر المأجور أو «العبودية الأجيرة» حسب مصطلح ماركس المبرر تماماً وغير المجازي بتاتاً. لذلك, عند ماركس, أن التاريخ مع التقدم والارتقاء, لم يكن إلى الآن سوى «ماقبل تاريخ»...

التاريخ, إذن التقدم, هو تاريخ التفاوت والطبقات وصراع الطبقات, تاريخ الملكية مع اللاملكية, صولاً إلى الملكية الخاصة, ذروة التاريخ (أو ما قبل التاريخ بمعنى ماركس). التفاوت (مع الملكية الخاصة والطبقات). والتقدم متوائمان, في التاريخ كما حصل, اي في التاريخ ـ الواقع, التاريخ الواحد والوحيد: لا يوجد تاريخ غيره على هذه القضية الأساسية, يتفق ماركس وروسو وتوماس مور ولينين, وآدم سميث وريكارد وهيغل (وذلك بخلاف ما يتصوره أناس كثيرون عندنا), يتفق رجال الفلسفة والتاريخ والآداب والفنون والعلوم الإنسانية. لولا التفاوت, لولا اللامساواة, لولا الطبقات بمعنى واسع وحصري, لولا بطر الاغنياء وتجارة الترف العالمية, لما كان يكون معنا هذا المشهد الكبير: تقدم البشرية خلال 2500 سنة, خلال 6000 سنة. إن روسو وماركس, توماس مور ولينين, متفقون في انحيازهم الأساسي: مع التقدم ونقد التقدم ومطلب التغيير...

ارتقاء الإنسان, خروجه من حيوانيته الشرسة, صعوده في الاجتماعية والإنسانية, ارتكز على قاعدتين هما الكدح والكبح. المحرمات الدينية حققت الوظيفة الثانية, لا سيما الكبح الجنسي...

عل الصراع دافع التقدم والتطور؟ هذا ما قالته الستالينية, جعلت الديالكتيك مذهب صراغ وقفز, في الطبيعة والمجتمع الإنساني على حد سواء. الديالكتيك مذهب العقل والتطور, لا مذهب الصراع والقفز ليست كل صراعات البشر مع البشر, ولا حتى كل الصراعات الطبقية, كانت دافعاً للتقدم أو مرافقاً للتطور, ولا حتى في الغرب. إن صراع الطبقات المتنافية يمكن أن ينتهي إما إلى تحويل المجتمع وأما إلى فناء وهلاك الطرفين معاً. هذا ورد في نهاية الصفحة الأولى من «البيان الشيوعي»! أما صراعات الطبقات والثورات الكبرى في تاريخ الصين حتى القرن التاسع عشر, فلم تنته إلى أي تغيير يذكر. أن تاريخ البشر هو تاريخ انتاجهم لوجودهم. هذا أولاً هو القاعدة التي يرتكز عليها أي شيء آخر, من نوع الصراع والثورات والحروب, أن معرفة (وفرز وتفييم) الدور التقدمي لهذه الحرب أو تلك الثورة وهذا الصراع بين البشر أو ذاك الخ. هي عملية فصل فكرية, عملية فهم وعقل وعلم حقيقي.

إن كلمة «ثورة» يجب أن تفحص جيداً. هناك, في تاريخ البشرية وتطورها بما فيه تعاقب الأنظمة الاجتماعية, صعوداً, هناك الثورة ـ التحول وهناك الثورة ـ الانتفاضة الشعبية. تلك لم تنجم عن هذه شتان ما بين هذه وتلك. أن التاريخ البشري هو تاريخ إنتاج الوجود البشري!!

لا الثورة النيولتية مع ظهور الأرياف (القرى, الزراعة, تدجين الحيوان), ولا ثورة ظهور الحضارات (الحضارة بحصر المعنى أو المدنية: المدن والدول والطبقات, مصر وسومر الخ) انتهاء إلى اليونان وروما والمجتمع الرقي مع شعب الأحرار, ولا ثورة ظهور أوروبا عالم الاقطاعية الجديد (الذي انضاف إلى العوالم الحضارية السابقة في الجنوب), هي ثورة بشر طبقية, ثورة كادحين, انتفاضة جماهير كادحة أو أي شيء من هذا النوع.

إن أول ثورات اجاماعية طبقية منتصرة في التاريخ الثورات البرجوازية. وهي ذات طابع شعبي دوماً, لكنها الثورة البرجوازية قطعاً... وهنا, وهنا فقط, الثورات ـ الانتفاضات كانت جزءاً حيوياص وناجماً في «الثورة ـ التحول», في ثورة نمو وتقدم دائمة بدأت منذ قرون...

ولا ريب أن ظهور الأديان الكبرى, البوذية والمسيحية والإسلام, هو ثورة كبية جداً, جذرية, لكن من الخطأ أن نطلق عليها اسماء من نوع «ثورة اجتماعية» ما دامت الصفة «اجتماعية» ملتبسة وتحيل على الثورة الاجتماعية في العرف الماركسي العام, على فكرة «النظام الاجتماعي» و«أسلوب الإنتاج». الثورات الدينية فعلت فعلاً مديداً في التاريخ يجب أن يعرف وأن ينقد, فعلاً روحياً في صعود الإنسان وواقعه.

أن فكرة التفاوت أكثر التصافاً بفكرة التاريخ كتقدم من فكرة الصراع والتصارع. أن البشر الأوائل كانو أكثر صراعاً بكثير! هذا ما تعبر عنه عبارات «شريعة الغاب», «الإنسان ئذب للإنسان». وأن ظهور السياسة كان معناه تراجع الحرب. آثينا أقامت السجال الجديد: الجدل والسياسة, السياسة والديالكتيك, ضضد «حالة البشرية الأولى, كون السجال القديم: الحرب...

ولقد بينا حقيقة «الصراع» في نظرية تطور الإنواع عند داروين... لو كان «صراع البقاء» الداروييني هو واقع أن حيوانات تفترس حيوانات, وأن السمكة الكبيرة تأكل الصغيرة, لما كان يكون داروين فسر أي شيء, أعطى أي جديد ينضاف إلى معرفة البشر منذ آلاف السنين. أن الصراع المذكور لا يعطي أي نوع جديد, أي تطور... تستطيع الأسماك الكبيرة أن تأكل الصغيرة مليون سنة قادمة أو مليار سنة, ليس هذا من شأنه أن ينتج نوعاً جديداً من الأسماك.

إن فكرة الاختلاف والمغايرة, بما فيها أخيراً فكرة التفاوت الاجتماعي مع الطبقات ومع الملكية, هي إذن جزء من معركة العقل والتطور ضد العقيدة الصراعية والفنائية التي هي نوع من عقيدة كوسمية مغلوطة ومسحوبة على تاريخ البشر. في عصور انحدارنا وانحطاطنا كم كانت الصراعات كثيرة!! كانت الحالة «صراع بقاء», صراعاً من أجل البقاء وأن هذه الصيغة الدارونية الصق بالحالة المذكورة منها بنظرية داروين: غزو البدو للحضر ولقافلة الحج, غزو القرى العليا للقرى السفلى (قتل, سبي, تهجير نحو الأسفل أو نحو جهة أخرى), تعارك الجيوش المختلفة داخل المدن, الخ, الخ,

إن الثورة الروحية المتمثلة في دين الإله الواحد هي بين جملة أمور تأكيدها على فردية الإنسان. ليس فقط شرع الحدود (القاتل يقتل وليس ابن عمه أو أخوه الخ). بل بوجه خاص هو العام: النفس الخالدة! أن النفس الراجعة إلى ربها راضية مرضية هي نفس فلان, وليست نفس أخيه أو عائلته و... ليست نفس الأمة والجماعة وما شابه!

ليس اختلاف شعب الناس وأمة آدم وكل أمة آدمية كاختلاف «شعب السجائر» أو «شعب الذباب» أو جماعة من حبات الرمل ولا هي كاختلاف «ذرات» صخرة من الصخور.

إن «الوحدة الصخرية» كانت شعار ستالين... وبطرس الرسول كان الصخرة التي بنى عليه المسيح كنيسته التي لن تقوى عليها أبواب الجحيم..., لكنها أيضاً تصخرت.. الصخرة المتلاحمة المتكاتلة الخ, قتل أعلى عند الشعوب, لكنه كمثال هو رمز حي, صورة, وليس فكرة ـ مفهوماً ـ ايدوس ـ شكلاً. هذه الصورة ترمز إلى الوحدة, وإلى الوحدة تتطلب العقل, المجتمع عقالة...

إن الصخرة لا تتطور, إنها تتغير, تنفسد على المدى الطويل... وهي لا تصمد بتاتاً أمام الإنسان وعمله وعلمه. إنها شيء من الأشياء. العلم يحل أكبر وأصغر كتلة. لو أن منظري الجماعة أو الأمة عاشو اليوم, لاختلفت نظرياتهم بالتأكيد وبالتمام. يوجد تاريخ... ـ انتهى ـ.

إشكالية العمل الثوري
مجلة الوحدة العدد 5 - 1985

1- التاريخ ليس المادة والحركة

في مقال سابق (*), فرقتُ فكرة الواقع وفكرة المادة: إن فكرة الواقع تُضمن أموراً لا يمكن أن تحيط بها أو أن تشير إليها فكرة المادة مهما وسعناها وحولناها و«أنضجناها مفهومياً». ولا حاجة لنا أو فائدة في هذا التوسيع أو التحويل أو الانضاج الذي هول عب لا طائل تحتحه.

إن فكرة الواقع تؤشر على منطق بخلاف مفهوم المادة, وتؤشر بالتالي على تاريخ ليس هو فكرة «الحركة».

لا حركة بلا مادة ولا مادة بلا حركة, هذا ما يقوله الماركسيون, هذا ما يقوله فلاسفة وعلماء ماديون وغير ماديين, بشكل خاص هذا ما يقوله هيغل قبل الماركسيين لكن هذا لا يعطينا من قريب ولا من بعيد, تاريخاً.

فكرة التاريخ لا شأن لعا بـ «حرة المادة, و«المادة المتحركة». خركة المادة (الأجسام) في المكان تبعاً للزمان الخ, هذا ميدان اسمه علم الميكانيك. علم التاريخ لع قوام آخر, له «سواميك» من نوع آخر.

إن أعمال ماركس (رأس المال, الخ) بعيدة تماماً وبالبداهة عن ذلك الهاجس المادي الفيزيقي ـ الفلسفي, الملتبس, الذي هيمن إلى حد لا بأس به على ماركسية القرن العشرين. مع أن أطروحة الدكتوراه لكارل ماركس كانت عن فلسفيت ديموقريط وإبيقور. لكن بالضبط ثمة هوة بين الذرات والواقع, وهو أكبر بين الذرات والتاريخ.

إن الفرق واقع / مادة ينقلنا إلى مسألة العمل الثوري.

بادئ ذي بدء, ما هو العمل؟ فكرة العمل, أو العمل بوجه عام.

_____ الشرح _____

(*) هذا المقال الثاني في مجموعة مقالات كتبتها بالارتباط مع محاور الأعداد الأولى من مجلة الوحدة وتسلس على النحو التالي:

1- تحديث أم تأسيس؟ (الوحدة, العدد الأول, أكتوبر 1984).
2- اشكالية العمل الثوري.
3- أيّ عقل؟
4- الجدل.
5- التاريخ والتقدم.
6- المرتكزات ؟صفحة159 لمفهوم التقدم.

2- عودة إلى «ما العمل؟»

هذا السؤال الأول والأولي يختلف عن سؤال لينين في سنة 1902, إنه «أدنى» منه و«أبداً».

آنذاك كتب لينين ما العمل؟ أي ماذا يجب أن نعمل نحن الماركسيين الروس. وهو كتاب مهم جداً: 1) إنه «يُلهم» الثورة الروسية, وينال التكريس من ستالين, فيسوغ النخبوية ـ الطليعية. 2) إنه «يلهم» الثورة العالمية, إلى هذا الحد أو ذاك. يجب ألا ننسى أن تسعة أعشار الثورة في العالم ه بشكل ةآخر على خط «الماركسية ـ اللينينية» وأن هذا «النموذ الأعلى» archetype يؤثر حتى على خصوم الخط المذكور أو على الذين هم بعيدون عنه... يحبونه ويكرهونه بدون عناء معرفته, وبالتالي بدون مواجهة التجربة التاريخية العالمية كفكر وعمل بشريين. إنهم يريدون ثورة عربية تقدمية بدون هذه المواجهة مع حقائق العالم والتاريخ.

لنقل: إن كتاب لينين ما العمل؟, 1902, معم في تاريخ الماركسية ـ اللينينية ـ الستالينية, روسيا وعالمياً, ومنهم بشكل خاص في سيرة الثوروية العربية الشاطحة في سنوات 1968 - 1970, وبعدها, وفي مناظرتي ضدها [1]؟

كانت حصيلة المناظرة:

الاقتصادوية (الطبقوية) ليست الماركسية بل شبحها المرافق أو الملازم, الثورية العربية الشاطحة نسخة مخفضة عن «الاقتصادوية اليسارية» لسمة 1916 الروسية والعالمية, «العالم» ليس «المجتمع», الواقع لا ينحل في «علاقات الانتاج», الثورة الحقيقية لا تُبحر في «العمالية ضد البرجوازية» ولا في «الكدحائية ضد الامبريالية», المسألة القومية لم تمضض بل هي تبدأ وتنبعث, لا وجود لـ «ثورة اجتماعية خالصة» وليس من «عامل خالص»: «اجتماعية» صفة, «عامل أو كادح» صفة, الاسم سمة لا تستنفذ المسمى. في اليسراوية, أن المقولات «الموضوعية» و«المادية» مسهرة لخدمة الشطح الجامح إلى أمام, هذا الشطح الذي هو المثالية...

لنضف:

إن اليسراوية, التي هي موقف ضد المنطق, هي أيضاً موقف ضد الديمقراطية. فالديمقراطية موقف فلسفي أيضاً, موقف في نظريه المعرفة, يُعارض تبدبد الواقع في مجردة أثيرية محببة, أياً كانت. كل حرب, وكل جماعة أو جميعة, إنما تستطيع أن تقول إنها حزب الطليعة, هي وحدها أو هي وأخواتها اللدودة ـ لا فرق في ذلك ـ, لكن بين القول والكون هوة. في دين الإله الواحد, وحده الله الخالق يوحد القول ـ الكون في الكلمة ـ الفعل te verbe: تلك هي عملية الخق. وهذه العقيدة حد, وأساس لاهوتي للديمقراطية: الله فوق: الدنيا دنيا, البشر بشر, التاريخ تاريخ. لا أحد منكم يقول «كن» فيكون!

هذا يبعدنا عن ثورات القرن العشرين؟ ـ نعم, بمعنى ما, ولسوء الحظ. فلنعد إلى كتاب لينين.

الكتاب عنوانه ما العمل؟ (Que Faire?, What to be done?) وهو يطح مسألة الوعي: conscience, consciousness. السؤال هو عن العمل والجواب هو في مسألة الوعي.

الكلمة الفرنسية conscience مضاعفة أو مزدوجة بالمقارنة مع الانكليزية العرب عندهم ثلاث كلمات: وجدان, وعي, ضمير. يمكن إعطاء الثلاثة المعنى الأخلاقي («العقل العملي» عند كنط), والثانية المعنى النظري (العقل المحض أو العقل الخالص عند كنط), واعتبار الأولى أساساً لهما: الوجدان مقابل الوجود. هذا الوجود الذي ليس وجود الوجوديين ولا وجود «الشرقيين», بل هو الواقع ومنطقه والعمل والتعامل والناتج التاريخي: الوجدان ـ الروح ناتجه ومنجه, انعكاسه وصانعُه, ومقابه.

«الوعي بأني من الخارج» (المقصود «الوعي الاشتراكي ـ الديمقراطي», (النظري ـ السياسي), أي ـ حسب تصريح لينين, الذي يمحوه تراث طويل ـ من خارج العلاقة عما / أرباب عمال, إنه يأتي من مجموع العلاقات الاجتماعية لمختلف الطبقات والفئات في روسيا التي عي عالم والتي هي في العالم. المقولة السيدة هي الجملة totalite, الجملة لا «القانون».

«لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية», «وحده حزب يسترشد بنظرية الطليعة يستطيع أن يؤدي دور المكافح الطليعي», لكن لينين يذكر ـ بين هذين القولين الأشهرين ـ «الأهمية العالمية للأدب الروسي في القرن التاسع عشر». وبدافع عن الحلم (حلم الشغيل مثلاً, الحلم المجدي) ضد الماركسوي مارتينوف. إن لينين, في تاريخ الفكر الماركسي في القرن العشري, بعيد عن العلموية, بعيد عن «النظرية» بمعنى ستالين أو بمعنى ألتوسير والماركسية.

ولا باس من التذكير بخاتمة الكتاب: إذن ما العمل؟ (ماذا يجب أن نعمل؟), والجواب اللاذع ليس عجن عجين مادي ولا حمل بندقية مادية بل هو «الانتهاء من حقبة» في تاريخ الحركة الثورية الروسية (الحقبة الثالثة, التناثر التنظيمي, الضياع الفكري الخ). حمل البنادق تابع. «الثورة» ليست «الانتفاضة» الانتفاضة تابع.

هل من داع للتذكير أيضاً بما سبق لي أن بينت: إن كتاب «ما العمل؟» ليس غاية ونهاية تصور لينيني للقضية والقضايا التي عالجها الكاتب المذكور. حتى «الاقتصادوية» ـ وهي شرود الماركسية «الطبيعي» إن صح التعبير! ـ يعود لينين إلى اكتشافها أو «اختراعها» مرة ثانية بعد سنة 1914. هذه المعرفة الجديدة, المعمقة, تصيب المفهوم نفسه ـ الاقتصادوية ـ وتصيب تصور

لينين للماضي الروسي القريب: خلافات الماركسيين الروس ومصائر الماركسية والثورة. والتجربة العالمية بعد لينين تذهب بمجموعها ضد «الاقتصادوية»..

3ـ السؤال الأول: ما هو العمل؟

سؤالنا الآن ليس «ما العمل؟», بل ما هو العمل, مفهوم العمل. هذا السؤال لم يطرحه لينين, على الأقل منهجياً, على الأقل في سنة 1902. وهو في رأيي سؤال ـ مبدأ, ومضضيع في الفكر الماركسي وعند العرب.

أقصد بـ«العمل» الكلمة العربية الشعبية, الرحبة, المفتوحة, و... المنسية في الاستعمال. هذا جيد شرط إن يوعى وأن نصل مع الانفتاح إلى إغلاق. الكلمة العربية ـ العمل ـ ليس لها «مرادق» في الفرنسية مثلاً أو لنقل إن «مرادفاتها» كثيرة, منوعة: action (عمل, فعل), travail (عمل, شغل, كدح), pratique (عمل, نشاط عملي, ممارسة), الخ, أيضاً oeuvre (عمل, صنع, نتاج العمل, مع التأكيد على الإنسان, العمل الإنساني, الخصوصية الرفيعة).. عدا عن praxis (براكسيس, عمل؟).

ثمة فرق وفروق على هذه الفكرة أو على هذا «اللحن» الكبير لسي بين العربية و«اللغات الأوروبية» فقط, بل فيما بين اللغات الأوروبية: الفرنسية, الألمانية, الانكليزية, الخ.

مثلاً, إن travail تستخدم لعمل أو شغل الطبيعة ولشغل الإنسان على حد سواء: هكذا الفرنسية (لا الألمانية: werk, arbeit, لا الانكليزية: work, labor ـ مبدئياً!), فـ travail هي أولاً مفهوم علمي فيزيائي (علم الميكانيك) وثانياً ـ معنى أضيق ـ هي شغل أو عمل الإنان ومفهوم لعلم الاقتصاد. هذا المعنى الأضيق يتضمن المعنى الأوسع. ويتخطاه أي يضيف إليه «كيفاً» آخر.. وثمة فرق بين «لغة» المغرب العربي و«لغة» المشرق العربي. حيث يقول المشرقيون «عمل», قد يقول المغربيون «شغل» («الاتحاد العام للشغل»).

هذه الفروق اللغوية, على أهميتها, يجب أن لا تجعلنا نضيع الشيء الأهم. بالعكس: إن «الركوب» على عدة لغات مختلفة يمكن ويجب أن يساعد على بلوغ الفكرة (بالمفرد) عبر اختلاف الكلمات, وتبين اتجاهات وعلاقات الفكرة: جدليتها, جدلية الواقع. يجب بلوغ الفكرة و«بسطها إلى الأمام» (Durchfuhrung, كما يقول رومان ورلان عن موسيقى بيتهوفن), إقامة «تنويعاتها»!

والكلمة «العمل» جيدة ومناسبة تماماً من أجل الفكرة. مفردة لغوية, كلية كائنة.

4ـ العمل فاعلية هادفة

ما هو العمل؟

العمل فاعلية هادفة. العمل عمل الإنسان, والهدف هدف بشري (حتى حين يعتبر نفسه سماوياً وإلهياً فهو هدف الإنسان, مباشرة).

إي أنني ـ في هذا العرض ـ أستعمل كلمة «فعل» للأعم الطبيعة كلها (بما فيها الإنسان) فعل, الفعل الإنسان وفعل الطبيعة: فعل الشمس في البحر, فعل الحت الربحي والمالي, فعل الحشرات في الأرض وعلى الزوع, الخ. كان يمكن أن أقول: عمل الشمس, الخ, المهم أن الشمس لها فعل (أو عمل* لكن ليس لها هدف. العمل الإنساني فعل هادف.

أترك هنا مسألة الغاية والغائية. الوضعوية والعلموية تشنان حملة عليها بوصفها لاهوتاً وميتافيزيقا وايديولوجيا. أوغست كونت وخلفاؤه رفضوا أيضاص السببية مكنفين بـ «الفانون»... ولوي التوسير يضع «تعريقاً» للعمل (العمل الإنساني) لدون الهدف[2]. أي أنه يطارد الغائية والغاية والهدف, إلى النهاية, إلى العمل الإنساني نفسه الهدف مصطلح إير «علمي», مفهوم غر عملياتي أو غير اجرائي. لكن ألتوسير لا يصرح بهذا الموقف, إنه يحذف «الهدف» بالباهة!!

أترك اذن فكرة ومسألة الغائية, كتفياً بالإشارة إلى أن هيغل يؤيد فكرة «الغابة الداخلية», وأترك مسألة موقف أعلام الماركسية من هذه الفكرة, مشيراً فقط إلى أن إنجلز يؤيدها ويساويها بفكرة الترابط الكلي أو التواصل الكوني, التي تتخطى ـ بالمبدأ ـ فكرة السببية بالمعنى العادي: فالسببية (سبب ← نتيجة) هي قطع وقطعة, قطع يفرضه العمل والنظر, باعتبار أن كل عمل وكل

نظر محدد ومحدود. العمل يفترض السبب (سبب ← نتيجة) والعمل أو الصناعة هو محك السببية: هذا ما يقوله إنجلز في مناظرته مع هيوم...

5- الحدق ليس النتيجة

بعد إثارتي هذه الأسئلة وتركها, أبغى إذن مع العمل الإنساني.

العمقل فاعلية هادقة.

هكذا عمل النجار, عمل فلاح يزرع قمحاً, عمل عالم كيمياء في مخبره, الحرب, العمل السياسي, العمل التجاري, الرجعي, الثور, الخ, لا فرق في ذلك: نحن إزاء هوية, مفهوم, كلية. الهوية هوية المختلفات والمختلفات كثيرة. والكثرة ليست خمسة ولا ثلاثين. هكذا الهوية الكلية المجردة: مثلاً القيمة (في علم الاقتصاد السياسي الكلاسيكي والماركسي) تتظاهر فعلياً أو تتحقق واقعياً في آلاف أو ملا يين التبادلات اليومية المرئية (ولو من وراء الحجاب: المال المحسوس). وكل تصنيف واع إنما يأتي بعد هذا الموقف النظري الأول المتمثل في الكلية أو المفهوم.. وكما القيمة كذلك العمل, المقولة الشعبية ـ الفلسفية.

في كل الأعمال المذكورة آنفاً يوجد هدف but. الإنسان يتخذ هدفاً وسعى إلى توقيعه realization أي تحقيقه. وهو يوقعه, إلى هذه الدرجة أو تلك, أو لا يوقعه, أو يوقع عكسه. مفهوم الهدف غير مفهوم النتيجة. الأول يحيل على الذاتي, الثاني يحيل على الموضوعي, المادي, الواقعي: النتيجة, الأثر, العاقبة, الواقعة... (يمكن أن نرادف أو أن نراصف الكلمات). أما الهدف فهو في الرأس.

عادة يُقال: النتيجة (تحقق وعدم تحقق الهدف) تتوقف على «الوسيلة». ثمة ارتباط واجب بين الهدف والوسيلة (بين الغاية والواسطة). الوسيلة أن تكون «من نوع» الهدف. فمن يزرع شعيراً لا يحصد قمحاً و «من يزرع الريح يحصد العاصفة»: هكذا حكمة الشعوب. هكذا اللغة البشرية ومهارضاتها: الواقع والواقع (الذي وقع), حساب البيدر وحساب الحقل...

لنقل: إن الهدف (= الذاتي) يدخل في جملة الأسباب التي هي تُنتج النتيجة. قد اتخذ هدفاً لي بناء قصر في جبال هيمالايا. لن يتحقق هدفي. لماذا؟ لعدم توفر «الوسائل»؟ تأكيداً على الموضوعية والموضوعية, أفضل أن أقول: لعدم توفر «الأسباب» وبجميع المعاني: هدفي المذكور خارج السببية, خارج الكون والمنطق... أنا «أريد», لكن لا شيء خارج هذه «الأنا» المفرغة يريد.

6- المنطق والعمل

حين أقول: «هدف», فإن هذه الكلمة كمفهوم تستحضر, في النظر, سلسلة من الكلمات ـ المفاهيم:

نية, قصد, وعي, فكر, تطلع, توجه, خيار, حرية, مسؤولية, ذاتية subjectivite.

هذا وارد في قراءة لينين لـ منطق هيغل, أي لكتاب عنوانه وموضوعه المنطق وتسلطن فيه مقولة العمل! «المنطق» ليس مربوطاً بالطبقية, ليس تابعاً لايديولوجية, المنطق مرتبط بالعمل.

قلنا: «حرية». الحرية وعي الضرورة والضرورات. في أحد وجوهها, الحرية هي نظام السير, لكن في هذه الحال لن أصل إلى هدفي وقد أهلك على الطريق. الحرية انضباط, المعرفة العلمية انضباط discipline (حيث يقول العرب «ميدان علمي» يقول الأوروبيون «انضباط علمي»), شغل النجار أو الحذاء انضباط.

7- المفهوم = كلّي

الكلية «العمل» نعاينها مباشرة في ملايين الأعمال المختلفة, والمختلفة الاختلاف. فكل «الأشياء» مختلفة ومختلفة الاختلاف (هيغل). لو كانت مختلفة على نحو واحد لعدنا إلى التساوي والعدم. زرع القمح يختلف عن زرع الخضار, ويختلف على نحو آخر عن صنع السيارات أو عن

«الزرع» الثوري... والهوية هوية المختلفات, دائماً. لا يوجد «شيئان» متماثلان (أو متساويان) في الأرض والكوسموس (لايبنتس, هيغل,... وهكذا بصمات أصابع البشر الخ).

بعد تثبيت الكلي ـ العمل ـ, يمكن أن أنتقل إلى «الأنواع», أن أضع لائحة بخمسة أصناف أو عشرين صنفاً, وأن أقول إن هذه الأنواع تتفرع و... إن الأعمال تتكاثر إلى ما لا نهاية. علماً بأن هذه الاضافة الأخيرة تؤكد الموقع السابق, الأول كلي univcrscl = صفة كل الأعمال, والكل يفترض اللانهاية, الكل يفترض كثرة ليست «عدداً» تاريخياً, إن كثرة الأشغال, تنوعهن ولامبالاتهن (إمكانية الانتقال من شغل إلى آخر, في المجتمع البرجوازي الحديث) تجاه الشغل ووجوب الشغل, إن هذه الكثرة اللامبالية هي التي «حكمت» بروز الشغل ككلية, أي الشغل مجرداً, «كمحض فاعلية ذاتية للإنسان», على يد آدم سميث, حسب كارل ماركس, في الفصل الثالث من المدخل («طريقة علم الاقتصاد السياسي», 1857).

غير أنني, من أجل مسألة العمل الثوري, لن أدخل في تصنيف بل سأميز ثلاثة أمثلة ـ نماذج, أو لنقل: ثلاثة أمثلة exemples هي أيضاً مُثُل idees وأمثولات.

عمل الحذّاء, عمل عالم كيمياء في مختبر, العمل الاجتماعي التاريخي, الثوري.

8ـ الحرفة والدعوة

كل منهم عمل, فاعلية هادفة. كل منهم فيه وعي, فكر, نظر (صورة, تصور... أو نظرية كبيرة جداً: لا فرق في ذلك), كل منهم فيه إذن ذاتية, حرية, مسؤولية الخ. وكل منهم يجري على موضوع, يستخدم مواد, أدوات, وسائل (مواد مادية وفكرية). وكل منعن ينتعي إلى نتيجة واقعة, إلى منتوج أو ناتج أو حاصل.

قل المتابعة والانتقال إلى الفرق بين هذه الأعمال الثلاثة, أي من واجبي, إزاء العلموية والثوروية والدينوية السائدة, الدفاع عن الحرفة ولا سيما حرفة صانع الأحذية: هذه الحرفة مفيدة وحيوي للبشرية...., لوثر وحد «الحرفة والدعوة» (vocation, نداء) في مفهوم الـ Beruf اللوثري..., جان جاك روسو, في صفحة مدرسية من كتاب «؟الصفحة 165 أو التربية» يشرح مزايا تعليم ابن الأكابر حرفة يدوية وينتهي إلى القول: «أخيراً, يا سيدتي, هو وليس) ومدشن كل الفلسفة الألمانية كان سيداً في حرفة صنع الأحذية: إنه يا كوب بوهم Boehme. هذا الرجل الذي عاش حوالي سنة 1600 كان تعليمه يذهب ضد ثالوث الوثنية والشيئية والمركانتيلية وإرنست بلوخ, في كتابه فلسفة عصر النهضة, ينقل لنا ـ بمناسبة بوهم ـ صفحة فلسفية في مدح الحرفة المعنية..

إذن ليس في المقابلة التي سأجريها امتهان لحرفة رجل المعرفة العلمية وحرفة رجل العمل الثوري. كل منهم, بلا فرق, يمكن أن يكون ملبياً دعوة ربه أو أن يكون ملبياً دعوة الشيطان. الحذاء قد يلبي نداء ربه و«رجل الدين» قد يلبي نداء الشيطان: هذا ما «قاله» لوثر.

9ـ الكيميائي, الحذاء, الثوري

هدف عالم الكيمياء (وكل فاعلية علمية) هو المعرفة. المعرفة هي هدف مجموع عمله (الفكري والمادي), أي هي الهدف الأخير بالنسبة له كعالم. التجربة (المادية) التي يجربها على هذه المادة أو تلك وبهذه الأدوات المخبرية وتلك الخ هي جزء من مجموع عمله النظري. وإذا أثبتت التجربة خطأ فرضيته, فهو يحصص الفرضية أو يتخلى عنها, يضع فرضية مغايرة, ويتابع عمله. الفشل هو مباشرة نجاح: العالم يتقدم في مساره نحو الهدف الذي هو المعرفة النظرية.

ليس الأمر كذلك في عمل الحذاء. هدفه ليس المعرفة, ليس النظر. هدفه صنع الحذاء وكسب الرزق. هنا الفشل فشل وله عاقبة سلبية. عمله ليس «تجربة». الحرفي لا «يذهب» إلى العمل (صنع حذاء) ولسان حاله: تجربة, أنا أجرب... بعد انتهاء عملية العمل, نصبح هذه العملية تجربة ستفيد منها. الفشل فشل, وصانع الأحذية أنه لا يستطيع أن «يكابر». «المكابرة مقتل له ولعياله». إنه ألصق بالواقع والمادة والدنيا. في عمله, النتيجة نظهر مباشرة وبتمامها. الهدف محدد وواضح. كذلك المسؤولية.

في العمل الثوري, ليس الأمر هكذا. الهدف كبير جداً, إنه الوحدة العربية أو الوحدة والحرية والاشتراكية أو المجتمع الديمقراطي الحديث أو هذا كله معاً, أو هو «تغيير العالم», «تحويل العالم» (ماركس, الاطروحة الأخيرة عن قويرباخ, 1845).

العامل (الفاعل, الصانع) ملايين من البشر, مدة العمل طويلة, العملية معقدة, لها منطق كبير. قد نقول: المسار طويل, لكن من المفيد أن ندرك أن هذه الفكرة ـ المسار ـ لا تكفي, إيحاؤها ملتبس, وهي تصير عند جهات متنوعة «مشواراً» ويطول... لذلك قلت: عمل وعملية ومنطق. هنا أيضاً يوجد امتياز للعملين السابقين: عالم الكيمياء وصانع الأحذية مدركان بسهولة وبلا مكابرة أن عملية كل منهما لها منطق قائم خارج رأسهما وملزم, ضرورة قاهرة يعونها ويتبنونها. إغواء الشطط عندهما محدود, إنهما «لا يدخلان في تجربة»[3], في إغواء.

ولنقل, بمفردات وحدود العمل ـ النموذج العام, أن الموضوع يختلف.

في عمل الحذاء, الموضوع مادة, مادة ومواد, جلد, مسامير وخيطان وغراء الخ, الوسيلة أداة وأدوات, المجموع: مادة وأداة ورأس ويد, الصانح يحرك الأدوات والمواد, يشكل المادة, يصنع منوجاً, يخلق شيئاً ـ غرضاً له معقولية مع الدنيا القائمة, والصانع في معظم الحالات لا يفشل. إنه يحقق هدفه, يجعل الصورة كائناً.

كذلك عالم الكيمياء أو التشريح والفيزيولوجيا, إنه يحرك مواد وأدوات, يلاعب manipule المادة الكائنة خارج رأسه, المعزولة في مخبر (والتي يستطيع أن يعزلها أكثر بواسطة مفاعلات كيميائية أو مبضع الخ), ويحول المواد الذهنية في رأسه, يُنضج الادراكات (الحدسات, الرؤى) والتمثيلات (الصور) إلى مفاهيم, في اتجاه هدفه النظري ـ بالمقابل, في علم الاقتصاد أو المجتمع, أو التاريخ, لا يوجد مبضع ولا مفاعل كيميائي, العالم (مثلاً ماركس) يستخدم رأسه المجرد (التجريد بلاً من التجريب), والواقع ـ موضوع المعرفة ـ يبقى على حاله, بلا تغيير, «بعد كما قبل عملية معرفته» (حسب ماركس). الهدف في هذه الأمثلة هو المعرفة العلمية, المسار «العملي» كمجموع هو مسار النظر.

10- الفلاح, الطبيعة

لا بأس هنا, «كانتقال» من وقفة عند نموذج آخر: الفلاح زارع القمح. عمله يختلف عن عمل صانع الحذاء. أمامه طبيعة, مناخ, ترب, طقس, حشرات, الخ. هذه الطبيعة من العبث أن نسميها «مادة أولية»: هذا المصطلح الأخير آتٍ من الصناعة[4]. الطبيعة ازاء الفلاح ليست جلداً في حانوت الحذاء, أو خشباً في معمل نجارة, أو حديداً ومعادن في سلسلة مصانع رينو للسيارات. إنها «شيء أعلى» في مراتب الضرورة, في مراتب المنطق والحياة والذاتية. ليست مادة لتحريك وملاعبة.

من الفلاح والطبيعة إلى الفلسفة والطبيعة!

الطبيعة مفهوم فلسفي قديم وحديث, راية كبيرة ضد الذاتوية, ضد الغائية البشرية المنفلتة من عقالها, ضد الوساوس والتطيرات.

ثمة «طبيعة للأشياء». هذا العنوان ـ عنوان كتاب لوكريس: في طبيعة الأشياء, وأيضاً: في الطبيعة ـ ذهب مثلاً, وصار شعاراً.. مفهوم الطبيعة يختفي في «العصور الوسطى الدينية» أو الوسواسية, يبرز عند ابن خلدون (السبب الطبيعي بدلاً من العفاريت, طبائع العمران)... ويُسلطن في العصر الحديث.

مشروع ديكارت هو «جعلنا أسياداً ومالكين للطبيعة», ويكون يقول: «لكي تطيعنا الطبيعة يجب أن نطيعها», هذا القول يسس فكرة التقنية (ضد السحر) معلناً أن التقنية هي «السحر الحقيقي» أي السحر المجدي. ريموند سابونده ومونتيني Montaigne يدعوان إلى «قراءة كتاب الطبيعة» (أليست الطبيعة خلق الله, أليست هي أيضاً وأولاً كتابه؟). مونتيني ـ «أبو العلاء» الفرنسي ـ يدشن كل الفكر الفرنسي الحديث, بالريبية, بالتسامح, بالاستفهام (ماذا أعلم؟ Que sais-je?), بالعقلانية والاتصال بين الناس. سبينوزا يقول: الله أي (c'est-a-dire. Sive) الطبيعة (أي؟ ترادف أم انتقال؟ ـ سبينوزا حامل مبدأ النفي), والطبيعة لها محمولان كبيران معلومان هما المادة ـ الامتداد والفكر ـ

الروح, أي أن سبينوزا يضع الطبيعة «فوق» المادة. الفيزيوقراطية هي «خكم الطبيعة» (ضد الحكومات والمونوبولات والذاتويات..). جان جاك روسو يدشن التربية الحديثة بفكرة الطبيعة: طبيعة الدنيا, طبيعة الطفولة, خصائصها ومراحل النمو التلقائي, والطبيعة بالمعنى الأكثر شهرة ورومانطيقية, الطبيعة خارج الجدران... ماركس يستخدم مفهوم الطبيعة كواحد يتثنى: الطبيعة بما فيها المجتمع, والطبيعي مقابل الاجتماعي والتاريخي والصناعي أو الحضاري (أليس هذا الواحد المتثنى موجوداً عند ابن خلدون, بصرف النظر عن المصطلحات التي استخدمها؟).

ماركسية القرن العشرين ضحت بهذا المفهوم, الذي ارتبط, في تاريخ الفلسفة, بالعقل والمنطق والقانون الخ. ضحت به لصالح «المادة», أو «المادة» و«الثورة». آخرون عندنا يضحون به لصالح «الفطرة». ليست المسافة كبيرة بين الضلالين المذكورين. الفكرة مفهوم ملتبس «متشابه» (وقد يُعطى معنى ايجابياً وقد يُعطى معنى أحمق, بل معنى وثنياً لصالح «النقس»).

في كل تاريخ الفكر الحقيقي, إن هذه اللحن ـ الطبيعة ـ كان بسطاً متنوعاً ضد ما يحلو لي ولك أو لنا ولهم. ولم يكن هذا المفهوم طارداً للتاريخ والصناعة والعمران والتقدم, لك كان بالأحرى أساساً لمفهوم التاريخ وعلم التاريخ: هكذا جرت أومر الفكر في العصور الحديقة: بعد «الطبيعة» يأتي «التاريخ», ويلازمان.

11- العمل الثوري: الموضوع ذات

في العمل الثوري, ليس «الموضوع» مادة. الموضوع مجتمع وعالم. الموضوع واقع لا يؤخذ بكلمة «مادة» ولا يكلمة «موضوع». بلغة أهل بعض المدن العربية (حلب) وغيرهم, لنقل أن الموضوع هو «الخلق», أي البشرية, بنو آدم, «الأميون», الناس (Gentils. Gens), «الغوييم» (ضد «شعب الله المختار», قديمه وحديثه). وهؤلاء ليسوا ذرات, بل هم كينونة اجتماعية, ليسوا مادة بلا شكل..

هذا الموضوع ذات وهو الذات sujet.. بمفردات النحو العربي, لنقل إنه الفاعل والمبتدأ والمسند إليه. ولنق, بصدد العمل التاريخي وبمصطلحات قواعد اللغة العربية: «المتعدي» يرتكز على «اللازم»: هكذا يجب أن يكون. التحويل يستند على التحول, التغيير على التغيير. (في الفرنسية أو الانكليزية, توجد صيفة واحدة لتحول وتحويل: transformation). بالأحرى, لنقل إن التحويل جزء من عملية التحول التي تتخطاه في جميع الاتجاهات. الذات الثورية الواعية «جزء» مميز في ومن ذات أكبر منها.

ثمة سياسة لأنه ثمة تاريخ. هذا هو الموقع الأول في النظر الواعي. أو بالأصح: يوجد تاريخ لأنه يوجد منطق لواقع, وتوجد سياسة لأنه يوجد تاريخ. الوعي العربي السائد يسير بالعكس. إنه يعطي لفعل الذات الهادفة دوراً كبيراً جداً, في الرأس ويقتله في الواقع.

إن الموضوعية الحقيقية هي الاعتراف بذات الموضوع. أي بالموضوع كذات. بالمقابل, إن الذاتوية subjectivisme تخفض الواقع إلى محض «موضوع», إلى ماد و«مادة أولية».

12- ثلاثة تصورات ممكنو للواقع

ثمة, من وجهة نظر العمل والعمل الثوري, ثلاثة تصورات ممكنة للواقع تصورات مبدئية, ضمنية أو صريحة.

التصور الأول: الواقع مادة. مادة تحركها الذات الفاعلة, تُلاعبها, تُشكلها. كأن العمل الاجتماعي الثوري هو عمل الحذاء أو النجار إو عمل الصناعة: الحديد يتحول إلى سيارات, والمواشي إلى نقانق في معامل شيكاغو.. مع العلم, من جهة أخرى ومرة ثانية, أن عمل الحذاء والنجار والصناعة كلها يتضمن خضوعاص وانضباطاً و«قانوناً» صارماً.

التصور الثاني: الواقع آلة, ساعة, آلة دقيقة, بل جدلية وديالكتيكية. ونحن (الذات(نملك قوانين هملها. هذا التصور في شطره الأول ملك للعصر الكلاسيكي الحديث (ق17 - 18) وهو يرتبط بالعقلانية في شكلها الأكثر شهرة, وقد مثل في حيته التقدم: الطبيعة, الكون الخ آلة كبيرة, ويجب

أن تُعرف. ولم يكن هنالك «حزب» بمعنى «حزب» و«أحزاب» القرن العشرين. فكرة الآلة فكرة تناسق وانسجام ومعقولية.. الماركسية السائدة «تصحيح» لهذا التصور بالجدلية والثورية: الآلة, الطبيعة والتاريخ يتقدمان ويقفزان.

التصور الثالث: الواقع (العالم, الكون) حيوان كبير, يمكن القول: هذا أقدم مذهب فلسفي. فهو يضر جذوراً عميقة في تاريخ البشرية قبل اليونان, في «ما قبل الفلسفة», في مختلف الحضارات. إنه, في الفلسفة اليونانية البادئة, المذهب الهيلوزولي hylozollame (الكون كائن حي), المادي الاحيائي مع أرواح وآلهة الخ. ويص, عبر تاريخ طويل ومتنوع (أهم ما فيه فكرة المنطق), إلى هيغل.

لنقل: إنه موقف. واضعه في المعارضة مع الموقفين السابقين (مادة, آلة), وهو يستوعبهما و«يحتويهما» (أي يوقفهما عند حدهما). يكون الخيار الواجب: مذهب «العالم كائن حي كبير» ضد مذهب «العالم آلة» و«العالم مادة». هذا أولاص. بعده, ثانياً: بالطبع إنه مادة إلخ, وبلخ وآليات وغير ذلك.

«التاريخ الطويل والمتنوع» الذي عينته يشمل: دين الإله الواحد, سقوط الاحيائية والأرواحية animism, سقوط «الجوهربة», الفلسفة, فكرة الشكل والمفهوم, فكرة التقدم والتاريخ.. إنه مسيرة صراعية ومتناقضة.

13- التوتر بين الهدف والواقع

في قضية العمل, ولا سيما العمل الثوري التاريخي, ليس التقابل أو التعارض قائماً بين «المادة» و«الوعي» بل هو بين الهدف والواقع[5].

إذا كان «الموضوع» في بعض الأعمال قريباً من «المادة» كقطب نظري, فليس الأمر هكذا بتاتاً في جميع الأعمال (الحرب, السياسة, التربية, الزراعة الخ). مبدئياً: ليس الموضوع «مادة» بل هو واقع ذو منطق.

العمل, كل عمل, هو مسعى توقيع لهدف. هذا يعني: يوجد تعارض وتوتر بين الواقع والهدف.

الهدف ليس الواقع, الواقع ليس الهدف. ثمة هوة بينهما.

وإن الهدف, لأنه الهدف, ولأنه وبقدر ما أنه ينسي صاحبه أن الهدف ليس الواقع وأن الواقع ليس الهدف وأن الهدف بمعنى ما «لا شيء» و«عدم», فهو يسد على توقعه أو يرتج على تحققه. هذا ما يصل إليه لينين في قراءته لكتاب هيغل: المنطق...

إن وحدة العمل والمعرفة, وحدة الحقيقة والعمل, ليست بديهية معطاة بل هي مطلب واشتراط. إن «عمل» الماركسية ليس براغما البراغماتية ولا «أكشن» «action» أفلام الغرب الأميركية, ولا جمعاً «طبيعياً» بينهما.

14- ثلاثة مستويات للمعرفة

حسب منطق هيغل, المعرفة ثلاثة مستويات.

الأول هو الشيء, الأشياء «موجود», «كائن»: مذهب الكائن (أو نظرية الوجود» هو الجزء الأول في كتاب المنطق.

الثاني هو العلاقة: تناقضات المستوى الأول تدفه المعرفة إلى تجاوز الكائن والشيء إلى العلاقة. هذا مذهب الجوهر أو نظرية الماهية (ما هو هذا الكائن؟), الجزء الثاني في كتاب هيغل.

المستويان الآنفان يؤلفان «المنطق الموضوعي».

ثالثاً, من فكرة الجوهر وتناقضاتها, ننتقل إلى المستوى الأعلى, الأخير: العالم كذات وكحياة. إنه ـ بمفردات هيغل ـ «مذهب المفهوم», أو «المنطق الذاتي», ذروة كتاب هيغل.

فكرة الجواهر أو الماهية تابعة لفكرة العلاقة. فكرة العلاقة تفترض فطهاً و«المفهوم» يتجاوزها إلى معقولية أكبر وأحق, إلى الكل العضوي, الجملة الحية. المسار إنشاء يبدأ من الصفر (الكائن, الكائن العدم: الصيرورة الخ, الهوية, الهوية والفرق,..), من تجريد كبير جداً وفارغ جداً

وينتهي إلى اللوحة: هذه, لا «القانون», هي الغابة. لينين يؤيد هذا المسار, ماركس «يُطبقه» في رأس المال. لأن له بداية ومبدأ لذلك له غاية ونهاية. وتلك البداية تقود إلى هذه النهاية, هذه النهاية تفرض تلك البداية. بتعبير آخر: إنه فعلاً مسار وطريق وتقدم, إنه انشاء لصورة الحقيقية, أي الصورة العميقة, المترابطة, الحية والتفصيلية, المطابقة.

إذن ثلاث مستويات. يمكن أن تبقى المعرفة في المستوى الأولو في المستوى الثاني, بينهما.. أما الجدل أو المنطق فهو اشتراط الذهاب إلى المستوى الثالث: العالم ذات وحياة. وليس مادة لملاعبة, ليس آلة وآلات امتلكنا قوانينها ولم يبقى علينا إلا «تطبيق» هذه القوانين. العمل الإنساني, مأخوذاً كجملة «أكثر» من فكرة «التطبيق» هذه.

15- الخيار الثوري واجب وراهن

ما هو الخطر الذي يتهدد عقل الذات الثورية؟

لقد اخترت هدفاً كبيراً: الثورة العربية, الوحدة, الاشتراكية, الخ. اخترت ذلك بوعيي وضميري. والخيار مبرر. الأوضاع العربية يجب أن تقل من أساساتها, الوحدة العربية ضضرورة, ملايين البشر على حافة الجوع, التنمية القطرية الاقليمية مختنقة وشاردة, الامبريالية, الصهيونية, النفط.., الأمة العربية مهددة بالهلاك في ععالم قوى عظمى مأزوم... إن خياري التزام نهائي, لن أتراجع عنه وسأتفانى من أجله الخ.

لكن يجب أيضاً أن أتساءل بعد هذا الخيار ومعه: ما الخطر الذي يتهدد وعيي. ما هو الخطأ أو الضلال الذي يتربص بفكري ونظري وروحي؟

ليس روح التضحية والتفاني هو ما افتقده ألوف الشباب العرب من الخليج إلى المحيط!

لقد اخترت, في سنة 1849 أو في سنة 1895 أو في سنة 1920, الخ, «تغيير العالم». الخيار مبرر: العالم يجب أو يُغيّر, هذا استحقاقه.. وهو مبرر اليوم أكثر منه في زمن ماركس.

فالتقدمية البرجوازية المتفائلة, الاقتصاد البرجوازي المبتذل الوضعوية والعلموية, التطورية والبراغماتية الخ, هذا كله ينكشف بلطانه اليوم أكثر بكثير من الأمس, التقدم التقني والتكنولوجي المذهب, التقدم المتسارع الذي رفع الانتاجية (مردود الشغر الإنساني) إلى أضعاف ـ أضعاف ما كانت عليه بالأمس, هذا كله لا يُطعم البشر الجياع (والماركسيون محقون ـ ضد هذه الايديولوجيا البرجوازية واتباعاها المتنوعين ـ في التأشير والتأكيد على مستوى علاقات الانتاج, نظام الملكية, توزيع الدخل, الطبقات وصراع الطبقات), البطالة تستفحل, البيئة تتدهور, ثروات باطن الأرض تسير قدماً في طريق النفاد, الإنسان الصانع والعاقل ينتكس إلى انسان الأخذ والتخريب, الكرة الأرضية تتصحر وتتصلع, تنمو انخلاعات وأفيونات واستبدادات جديدة وقديمة. نمو القدرة النتاجية هو أيضاً نمو القدرة التدميرية, البشرية تعيش تحت خطر حرب عالمية ثالثة, نووية. إن المشروع الماركسي الكبير, كما عرفه (إنجلز وماركس في عدد من النصوص الكلاسيكية والذي ليست «الاشتراكية» كما يفهمها «الرأي العام» الماركسي سوى جزء منه, إن هذا المشروع راهن اليوم وملح.

الخيار الثوري مبرر. لكن, وقد اخترت الهدف الثوري, يجب أن أتساءل: ما هو الخطر. أو الخطأ الذي يجب أن أدرأه من العتبة, مبدئياً؟

من الواضح أن السؤال ليس شخصياً.

16- الذاتوية, الارادوية, المثالية

هذا الخطر هو هذيان الهدف على حساب الواقع.

هذا الخطر هو الذاتوية, الارادوية, المثالية, . «ثالث كلمات لشيء واحد».

بالمثالية أقصد هنا الضلال وحسب. ضلال العمل الإنساني وضلال الوعي الإنساني, لا أقصد «المثالثة الفلسفية» , مذهب أو مذاهب المثالية الموضوعية (أفلاطون, شيلنغ) والمثالية الذاتية (بركلي, فيشته) والمثالية المطلقة (هيغل) الخ.

إنها لخسارة نهائية أن لا «أقرأ» هذه المذاهب الفلسفية قراءة إيجابية. الذي أخسره في المبدأ هو المفهوم وهو العقل. والذي أخسره كذلك, في المبدأ, هو حقيقة المثالية ـ الضلال, الحقيقة البسيطة. هذا الضلال البسيط كان يمكن أن يكون في كل حين ملكاً (لا للفلاسفة بل) لمئات الملايين من البشر.

المثالية, الذاتوية, الارادوية. هذيان الهدف على حساب الواقع. هذيان الارادة على حساب صلابة الواقع, التي ليست صلابة جبل هيمالايا, بل هي منطق الواقع وذاتيته وحياته.

أشكال هذا الضلال متنوعة: نتكلم عن المستقبل بصيغة الحاضر, نتكلم في السياسة بلغة الحرب (استراتيجية وتاكتيك, قوى الثورة واحتياطي الثورة) بدون أخذ وعي الفرق. بدلاً من أن يكون عندنا تصور للواقع وخط عمل, يصبح عندنا استراتيجية وتاكتيك, «نظرياً» أو كلامياً على الأقل.

«العالم إرادة وتمثيل», الارادة إرادتي, وتميلي (صورتي الذهنية) في خدمة إرادتي.

بدلاً من البدء بالسؤال: كيف الواقع وكيف يسير, ما الواقع واحتمالاته ومفارقاته؟ نطرح فوراً السؤال كيف نحقق الهدف؟ وفي أحسن حال, نحل الواقع في صراع ارادات.

حتى التاريخ! كأنه عندنا كتوب بضميري المتكلم والمخاطب: نحن, أنتم. مع أن جميع الحقائق العملية مكتوبة بضمير الغائب, لكن, إذا تدهورت أحوالنا الذهنية والروحية, فقد يأتي يوم تحاكي فيه كتب الفيزياء كتب التاريخ والسياسة, وقد يتعلم طلابنا عندئذٍ: أنا الأرض أدور حول أنتِ الشمس, أو ربما العكس: أنت الأرض تدورون حول نحن الشمس, لا فرق في ذلك.

بحجة إن التاريخ عمل البشر, يكف التاريخ عن كونه عملية أو سيرورة processus, موضوعية وضرورية, تتضخم الذات والذوات, يتجوهر الشعب وتتأقنم الجماهير. ينحل التاريخ في «الثورة», الانتفاضة الأبدية, العاجزة في معظم الحالات العملية (السيرورة تنحل في العمل, السياسي والارادي.

يقول الشاعر: «صح مبني العزم والدهر أبي». وهو قول جميل في قصيدة جميلة حقاً, ما دامت علمتنا بـ «غادة اليابان» «أن نرى الأوطان أماً وأباً». غير أن هذا الشعر شعر وليس نظرية معرفة. وإذا ما خفضنا وقلصنا, في روحنا ونظرنا, فكرة العمل إلى عزم عظيم فإن الواقع يتحول إلى دهر أعظم في شره.. العمل «أكثر» من عزم, الواقع «أكثر» من دهر. «العزم» ليس إلا واحداً من اشتراطات العمل الثوري.

هذا الضلال ـ المثالية, الذاتوية, الارادوية ـ أدنى وأبسط وأكثر أساسية من ضلال الفلاسفة. علماً بأن الفلسفة المثالية ترتبط بالفاعلية الإنسانية, بالذات أو الذاتية: وهذا الارتباط هو مزيتها التاريخية التي نالت تثمين واعتراف ماركس في أطروحته الأولى عن فويرباخ, وذلك بالمعارضة مع «المادية السابقة كلها بما فيها مادية فويرباخ»: المثالية لم تنظر إلى الموضوع كمحض موضوع Gegenstand. Objet, منتصب إزاء الحدس والرؤية والتأمل..

الضلال ضلال إنساني, بشري. الإنسان الصانع والعاقل له «مصلحة» في المعرفة وفي ضلال المعرفة. والمعرفة تضل عن مصلحة وبلا مصلحة! يوجد خطأ لأنه يوجد صواب. يوجد صواب وخطأ لأنه توجد معرفة ومسألة معرفة. لا معرفة بدون تجريد بدون كلمات ـ عموميات, سواء وعينا ذلك أو لم نعه.

17- مصدران للخطأ

حسب لينين, للخطأ نوعان من المصادر: 1) مصادر اجتماعية. 2) مصادر غنوزياولوجية (معرفية).

التراث الماركسي بوجه عام وفيما عدا استثناء مهمة (جورج لوكاكش, مثلاً), غيب المصدر الغنوزيولوجي, رغم تأكيدات لينين ورغم ماركس. والوعي الماركسي الغالب قلص المصدر كله إلى الرجعية. في مذهبة الضمني ـ الذي يغدو صريحاً ومعلناً, في أية محادثة موجهة تعقد مع «ماركس» عادي من بلادنا ـ, إن الكينونة الاجتماعية هي علاقات الانتاج (الطبقات, نظام الملكية), والوعي هو الايديولوجيا, الفكر هو الايديولوجيا, بلا فرق, المنطق ملحق بالايديولوجيا, المعرفة

جزء من الايديولوجيا, علم الاجتماع أو الاقتصاد ايديولوجيا برجوازية أو اشتراكية, وكذلك قبل ثلاثين سنة علم الفيزياء وعلم البيولوجيا والوراثة. الايديولوجيا صنف كبير يحوي الفلسفة والفن والدين والعلوم, باعتبارهم «نظريات» متصارعة. باختصار, «الطبقوية ـ الايديولوجية» ألغت فكرتي العمل والعقل وحلت العالم في «ثانونها» (أو واحدها الاثنيني): تجريدة علاقات الاناج وتجريدة الايديولوجيا.

غير أن الوعي الماركسي السائد والفاعل حوله لا ينفي فقط المصدر المعرفي للضلال, بل هو أيضضاً يحصر المصدر الآخر ـ الاجتماعي ـ في الطبقات الرجعية والبرجوازية والمستغلة الموحدة في نظرة «إجمالية» لا تاريخية للتاريخ.

هذا الشطط تحمله اليوم, بأشكال مختلفة, شتى الأحزاب أو الحركات الثورية, وقوامه إلغاء التقدم التاريخي وفكرة التقدم من أساسها. الحقيقة تُحوّل إلى حق أخلاقي, كاذب, «موضوعياً» على الأقل. المعرفة تُلغى «لصالح» العمل, عمل مستحيل.

18- الحقيقة التاريخية

إذا نظرنا إلى التاريخ على امتداد ثلاثة آلاف سنة, يتبين لنا أن هناك مسافة كبيرة بين ايديولوجية الكادحين المظلومين والحقيقة التاريخية. وافضل على صيغة «المصدر الاجتماعي» للخطأ صيغة «المصدر الايديولوجي», مع التأكيد, في المبدأ, على أن هذا المصدر ليس حكراً على الرجعيين والمحافظين والمستغلين.

البشرية تتقدم من مجتمع لا طبقي إلى مجتمع طبقي ثم من مجتمع طبقي إلى مجتمع طبقي آخر. أو هي لا تتقدم, تراوح في مكانها, تدور على نفسها. هذا التقدم التاريخي هو تقدم قوى الانتاج والانتاج (الأدوات: العصر الحجري, عصر البرونز ثم الحديد, الخ, أشكال الانتاج: صيد وقطف, ثم زرع ورعي, الخ) ونمو تعداد البشر (من حوالي 15 مليون إلى 100 مليون إلى 300 مليون إلى 500 مليون في أوائل العصر الحديث..). إن الانتقال من ما قبل الرق إلى الرق هو تقدم, وبالنسبة للعبيد أنفسهم: قبل ذلك, لا عبيد, اي لا أسر في حروب القبائل بل الموت للمهزوم. وصعود «أوروبا الغربية» من البربرية إلى الاقطاعية (بين ق5 - 8 وق 11 -12) ثورة كبيرة, بداية لكائن تاريخي جديد. «الشيوعية البدائية» بربرية وهمجية: هذا ما علمته الماركسية بوصفها مذهب المادية التاريخية (ضد المثالية الأخلاقية مثلاً), وما لم يجهله أو يتجاهله بتاتاً عمالقة الفكر الذي ندعوه بحق «الاشتراكية الطوباوية» والذي هو أكثر عقلانية وواقعية وصدقاً من بعض الفكر العربي الثوري المعاصر. إن فوربيه Fourier مثلاً تصور التاريخ, بآن معاً, كانتقال من الهمجية إلى البربرية إلى المدنية, ومن المساواة إلى اللامساواة, من اللاطبقات إلى الطبقات. هكذا التقدم عند جان جاك روسو أيضاً: من المساواة إلى التفاوت بين البشر, بل الملكية الخاصة. التناقض لحن معم في فكر الاشتراكية الطوباوية بوجه عام. هذا الفكر جدلي!

إن قسماً كبيراً من الوعي العربي الثوري, الذي حمل الآن ألوية الثورة والحرية والعدالة, يقع دون مستوى روسو والأب موريلي وفورييه وتوماس مور وغيرهم. بالأصح, إنه يقع خارج الفكر وخارج الوعي (إنه في الرؤية المنامية) وهو لا يرى عند هؤلاء مأثرتهم الأساسية: التجرد والتجريد, الكليات المفهومية التي لعبت دور الأساس والركيزة الميناء الفكري (الطبيعة, الحق الطبيعي, الإنسان, مطلب مقاضاة الواقع والتاريخ والتقدن أمام محكمة الوجدان والوعي, كاشتراط دائم, روحي ونظري..). إن الوعي العربي الثوري يلغي الطبيعة والتاريخ, معاص وبالتلازم, لصالح هواجس الذات التي تتخذ اسماءً متنوعة ومتضاربة. المقاضاة مرفوضة, بديلها «الرفض»! فكرة التناقض مرفوضة. وإذا البشرية لم تحقق العدالة قبل الف أو ألفي عام فالسبب هو سوء النية, المتآمرون, الجواسيس...

في التاريخ, ليس الثائرون و«المعرفة العلمية» في صف واحد. الكادحون, في يمعظم الحالات, لم يثوروا تحت لواء العقل أو تحت لواء التقدم أو «النظرية المادية العلمية», بل وراء ألوية أخرى: الخلاص, العدالة, الجنة على الأرض, و(في تاريخنا) الحنبلية أو الأمامية. وفي تاريخ

جميع الشعوب, من الصين إلى أوروبا الغربية, ثمة فرق كبير بين «طبقة تقدمية» و«طبقة كادحة», وفرق كبير بين «تقدم» و«ثورة».. العبيد ثاروا, أكثر من مرة, في تاريخ روما والامبراطورية. هل هم طبقة «ثورية»؟ بأي معنى؟ وهل هم طبقة «تقدمية»؟ في أوروبا الغربية, كانت البرجوازية طبقة تقدمية وثورية مع أنها طبقة مستثمرة منذ ما قبل الثورة البرجوازي الظافرة, بل منذ القرن الثالث عشر..

هكذا «الماضي». والبروليتاريا الحديثة حالة جديدة نوعياً في الحيثية المعنية. لكن من الشطط أو نقول: الماشي مضى, الحاضر ماهية أخرى, البروليتاريا أو البروليتاريا وحلفاؤها معصومون عن.. الذاتوية الثورية. من العبث أن نقول إن حزب البروليتاريا (إن ليس البروليتاريا نفسها) معصوم عن الخطأ, أو معصوم عن الخطأ الكبير. من الأحق أن نقول, في المنطق, وكتنبيه أولي للذات الثورية: حذار! لمشروع كبير خطأ كبير.

إن للثورة الاشتراكية في عصرنا نسباً خلاصياً أكيداً. والمطلوب أن ينال هذا النسب الخلاصي العريق الاعتراف (والاعتزاز), باعتبار أن الاعتراف شرط للسيطرة بالعقل على البعد المذكور. حين لا تنال الاحداثية الخلاصية الاعتراف فهي التي تُسيطر وتشوه وتخرب, وتنفي العمل خارج الجدوى.

في اعتقادي, تستطيع الجماهير أن تناضل من أجل غدٍ أفضل, وافضل جذرياً, بدون أن يكون هذا الغد جنة وبدون أن يقال لها إنه الجنة.

لقد وصلت البشرية إلى أكبر مفترق في تاريخها الطويل. الفكر البرجوازي المستنير يتهم المشروع الاشتراكي بأنه طوباوية. ما لا يراع ولا يوجهه هذا الفكر هو أن المشروع الاشتراكي هو الرهان الوحيد والخيار الوحيد. ليس من أجل «غاية ونهاية», بل من أجب تاريخ آخر.

وما أكبر ثورة في التاريخ سوى درجة على سلم التاريخ. وأمام البشرية هذه الدرجة الأكبر. وكذلك العرب كأمة.

19- الوضعوية العلموية في خدمة الذاتوية الثورية

الذاتوية الثورية هي الضلال «الطبيعي» الذي يهدد الوعي الثوري.

والوعي الثوري «العلمي» و«الماركسي» الخ مهدد بهذا الضلال مرتين.

مرة لأنه ثوري.

ومرة لأن «الماركسية» تقدم له ما يشاء من مبررات تغطي ضلاله الأساسي: إن مذهب «المادية الجدلية والمادية التاريخية» خادم جيد للمثالية, الذاتوية, الارادوية. «الماركسية» يستطيع أن يقول لنفسه: أنا مادّي, أنا علمي, أنا بعيد عن المثالية, أنا حسمتُ «المسألة الفلسفية العليا», أعلم أن الأشياء موجودة والملائكة والشياطين غير موجودة وأن المادة هي الأصل, وأنا أملك «القوانين» العامة للطبيعة والتاريخ, أعرف أن الواقع الحقيقي هو الاقتصاد والسياسة تكثيفه, إذن هو الطبقات والأحزاب, أما الطوائف الدينية, مثلاً, في غير واقع, أو هي ماض والتاريخ يتقدم... العمل الثوري ينحط إلى تقنية ملاعبة, السياسة تعسكر: المسألة المركزية في الثورة هي مسألة السلطة, والسلطة في فوهات البنادق: «النضال» يلغي العمل والحياة, و«الكفاح المسلح» يلغي النضال.

العالم مادة وحركة, له قوانين, ليس له عقل أو منطق. العقل عقل «الإنسان» والنظرية العلمية المادية والطبقية ذروته.

كل هذا الذي سبق حق وباطل, وفي الحاصل, إنه باطل الأباطيل: الذاتوية.

كمسطرة من خارج الوطن العربي, لا بأس من إيراد مثالٍ شهره مفكر فرنسي غير ماركسي, هو موريس دوفرجيه. المثال ـ الأمثولة اسمه «أشجار برتقال بحيرة بالاتون».

المجر, 1950.. الرفيق ماتياس راكوشي بالقرب من بحيرة بالاتون.. أمامه سهل المجر المترامي الأرجاء والفائق الخصوبة. ستدعي كبير المهندسين الزراعيين. ما رأيك؟

ـ منظر خلاب, إنه السهل العظيم, والتربة ممتازة.

ـ هنا سنزرع بستاناً كبيراً من البرتقال, ليكون شاهداً على الاشتراكية وقدرة الإنسان ـ لكن, أيها الرفيق الأمين العام.. المناخ, البرد,.. هنا وسط أوروبا.. ـ لا! دعك من هذا الكلام المثالي, فالحزب, قادر الاشتراكية العلمية والنظام الاشتراكي يفتحان آفاقاً جديدة الخ. و.. هُزم المهندس, وزعت الأشجار. وحين قضى عليها «الطقس» سُجن المهندس..

موقف هيغل عكس هذه الذاتوية: 1) العالم له منطق, منطقه هو. 2) مكر العقل «مكر الله» مفتاح فلسفة التاريخ الهيغلية, وهو العاصم المبدئي عن الذاتوية. المطلق لا ينحل في نسبيات التاريخ, في «أحزاب» البشر وغاياتهم. ثمة نفي أو سلب negation.

المطلق والنسبي ليسا شيئين. لا النسبي شيء ولا المطلق عفريت. المطلق والنسبي مفهومان وحدان. المطلق حدٌ, يحدُ النسبي. ومن ليس عنده المطلق يحوّل نسبيّه إلى مطلق. ذلكم هو الاستبداد.

20- العمل الثوري

والعمل الثوري؟

1ـ ثمة هوة بين الواقع والهدف. ليس فقط في روسيا 1917-1922, المتأخرة الفلاحية, نصف الآسيوية الخ أي في روسيا السوفياتية كما يراها لينين وينقدها بشكل لاذع. وليس فقط في الصين وشتى بلدان العالم الثالث. بل أيضاً في الغرب المتقدم, الصناعي, الحضاري, ذي التراث الديموقراطي: الثورة لم تقع, الاشتراكية لم تتحقق. «الهوة بين الواقع والهدف» موقف فلسفي مبدئي, يتعلق بمفهوم العمل نفسه. بعد هذا التأكيد, أنتقل إلى تمييز البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة (أوروبا, روسيا, الصين, الهند الصينية, افريقيا الخ), أدرس الشروط الموضوعية وقصورها الجذري في بعض الحالات, منقلاً من «الشروط الموضوعية» إلى «الجملة الواقعية»...

2ـ العالم كذات, المجتمع كذات, الشعوب كصانعة للتاريخ. هذه المعرفة وظيفة الفكر. لن يؤديها إلا بالجدل: فكرة الجملة, فكرة التناقض كمفهوم. الشعب ليس كلمة بديهية, الشعب ليس جوهراً أزلياً. ولا الطبقات. العامل, الفلاح, الخ, أسماء لا تستنفد المسميات. «الفلاح», بخلاف العامل والطبقة العاملة والبروليتاريا, فكرة تحيل على نوع شغل, على نوع إنتاج, على علاقة مع الطبيعة أولاً. هذا ما نسيه ستالين في سنة 1028.

برنشتاين قال: «الهف لا شيء, الحركة كل شيء». خطيئته ليست في الشطر الأول مجرداً. كل ثوري يجب أن يقول أن الهدف, بمعنى ما, لا شيء. (وبالضبط, يجب أن يقول ذلك لأنه هو لا يتخلى عن الهدف بل يسعى إليه). الخطأ في الشطر الثاني: «الحركة»؟ «حركة العمال», «حركة التاريخ», التقدم والاصلاحات, نمو الديموقراطية, الخ. إن حقيقة الواقع أكبر من «الحركة». في 1914, قامت حرب عالمية لأول مرة في تاريخ البشرية. برنشتاين وأقرانه بعيدون جداً عن هيغل. ذوبوا الواقع حركة التقدم كما يرونها. هيغل في نظرهم ميتافيزيقا.

في العمل, الواقع يعارض الهدف. والمطلوب توقعن الهدف. بالتالي, المطلوب معرفة الواقع, معرفته كجملة حية, ككل متناقض, كجمع يتضمن فكرة اللانهاية (هذا الذي يعبر عنه في علم الرياضيات بالحرف اليوناني سيغما sigma) وهذا يفترض الصفر كمنطلق, أي التجرد, الأمية الروحي, «الصحيفة البيضاء» العقلانية, وذلك ضد المباشرة بالقبض على حد من الحدود ثم الركوع لهذا الحد الذي يتضخم ويستطلق.

من الواضح أن مثقفينا بوجه عام يرفضون الصفر كمبدأ أو المبدأ الأمي. في نظرهم لا شأن لإنساننا المسكين بسقراط وديكارت. فسقراط وديكارت فلسفة عالية, والشعب شعب, جوهر مسكين. وهم ـ المثقفون ـ في الوسط, بين الشعب والفلسفة, ملتصقون بالواقع والعلوم. وعلى أي حال, أو في أحسن حال, إن المبدأ ـ الصفر يتنافى مع المعارف التي يملكونها ومع التقدم. إنهم لا يعوم أن التقدم هو الذي يفرض دائماً هذا المبدأ. حين هيغل (المنطق) أو ماركس (رأس المال) أو ديكارت الخ يبدؤون بالصفر فهم ليسوا جهلة بل هم قد حصّلوا معرفة ومعارف دونها بكثير معرفة ومعارف المثقف العربي النموذجي, الملتبسة تماماً, والتي قررت البقاء في الالتباس.

وحده الجدل يمكن أن يكون مرشداً للعمل الثوري.

قلت: الجدل. كان يمكن أن أقول: المنطق, العقل.

ـــــــــــــــــــــ الشرح ـــــــــــــــــــــ

1- انظر بشكل خاص: نظرية الحزب عند لينين والموقف العربي الراهن, الماركسية - الينينية والتطوري العالمي والعربي, نقد الفكر المقاوم (دار الحقيقة 1970) وأيضاً الماركسية والمسألة القومية (دار ال؟ 1970).
ثلاث أسطر مطموسة صفحة 170

وفي اعتقادي, لي الماركسيون وحدهم مضيين بهاتين العارضتين.
إن فهمي لمصطلح «الاقتصادوية» يختلف عن الفهم الشائع في الغرب, يتفق مع فهم لينين في 1902 و 1915 - 1916 ويرتبط بالتجربة العربية المعاصرة.
الاقتصادوية مذهب «ماركس» ينتقل من التأكيد على علاقات الإنتاج (إذن الطبقات, الخ) إلى ؟ الاجتماعية في هذا المستوى وإلى حل الواقع والفكر في علاقات الإنتاج والايديولوجيا مضحياً بالانتاج والمنطق والمعرفة وبالعالم كعالم أمم...
2- في كتابه من أجل ماركس. بالأصح, إنه يستغني عن فكرة العمل, ويعطي «تعريفاً» لـ ؟ (النشاط العملي) بدون الهدف, وتصوراً يلغي التقابل أو المعارضة نظر / عمل. عمل / نظر (العمل محك النظر, النظر مرشد العمل), وهو.. أخيراً (في كتاب قراءة رأس المال) يلغي العمل ككلية بإعلانه: لا يوجد عمل (ممارسة) بوجه عام, بل فقط عملات (ممارسات) خصوصية - نوعية, هي (في عرضه) تارة أربعة وبارة خمسة أو ستة: ليس لهذه التغطية الأخيرة أية أهمية. المهم أن ألتوسير ألغى الكلي والمفرد بالتلازم وأقام عدداً من الماهيات أو الجواهر (أربعة أو خمسة أو ستة).
ألتوسير امتدح صراحة أوغست كونت مدعياً أنه مظلوم في التعليم في فرنسا (إن الرجوع إلى كتاب الفلسفة لصف الباكالوريا, مثلاً كتاب كوفيليه, يدلل على العكس تماماً), عرف الفلسفة بأنها «نظرية الممارسات السطرية» (أي ؟؟ العلوم والفاعليات العلمية), قطعاً إياها عن العمل الإنساني نفسه الذي ليست العلوم سوى جزء منه, ثم, في التنبيه القصير الذي يتصدر الطبعة الثانية لـ قراءة رأس المال (السلسلة الصغيرة, ؟) قام بنقد ذاتي سريع, تراجع عن التعريف الوضعوي والعلموي. التسوير مغرم بـ «التعريف», أولاً ككلمة فرنسية محببة ؟, وثانياً كفكرة مغايرة ومعارضة لفكرة النصين أو التحديد ؟ الألمانية أو... الفلسفية.
3- نسبة إلى الصلاة المسيحية: «أبانا الذي في السموات... ولا تُدخلنا في تجربة, لكن نجنا من الشرير. آمين».
4- لوي ألتوسير يعتمده! ممارسته الأربع - الممارسة الاقتصادية, السياسية الايديولوجية, النظرية - نصل على «مادة أولية وتحولها إلى منتوج. المجتمع مادة أولية! (إنظر من أجل ماركس, تعريف الممارسة والممارسات). ألتوسير ألغى فكرة الشغل. عند ماركس, الشغل يتضمن الفكر.
5- المادية الفلسفية الماركسية تبدأ بتقبلات أو تعارضات مفهومية : كينونة / فكر, ؟ / روح. مادة / وعي.
في الوعي الماركسي السائد. هذه الازواج ليست تعارضات. من أين لها أن تكون تعارضات؟ فالوعي نتجاج المادة الأونطولوجيا أكلت الغنوزيولوجيا, نظرية الوجود ألغت نظرية المعرفة. حتى أطروحة لنين القاتلة بنسبية التعارض الآنف (خارج حدود «المسألة الفلسفية العليا», يقول لينين) محذوفة في الوعي المذكور, المادة تتحول إلى إله.. هذا أولاً.
ثانياً, المقابلة مادة / وعي, ألغت التعارض واقع / هدف. مقولة العمل خفضت قلصت. علاقة العمل والنظر صارت مباشرة علاقة بين مقولتين متخارجتين, أي نتيجة بلا أصل وأساس. فالأساس هو فكرة العمل ذاتها. مثلاً فكرة الشغل. مفهوم علم الاقتصاد السياسي, مقارنة ماركس بين النحلة والمعماري: الفكر متضمن في الشغل الإنساني, إنه تجريد وإنشاء ؟, لذلك يستطيع أن يرشد العمل.

ألوسير ـ الذي هو ردّ باطل على حالة باطلة ـ ألغى الشغل وفكرة العمل الإنساني. ألغى بهذا الألغاء نفسه مقولات المنطق المادي الجدلي, مستعيضاً عنها بمقولات علمية علموية.